رواية

ط 2

# الوالي

محمد راضي

# محمد راضي

رواية

# الولي

إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة

## إهداء

إلى/ لينا محمد راضي:

لعلّي أقدر بهذا العمل، أن أضع بين راحتيّ يديكِ الصغيرتين، ما ينير عقلك البريء بضياء الحقيقة التي أراهم – يوميًا – يحرّفونها.

(٠)

سوف أضع بين يديك الآن قصة هي أغرب من الخيال، وبعد الانتهاء من قراءتها، لك الحق في أن تصدق ما جاء بها أو لا تصدق.

وإن سألتني عن رأيي الشخصي، فأنا في حيرة من أمري كما ستكون أنت، ولكني أنصحك أن تتعامل معها على أنها قصة مسلية، وقد تعتبرها هادفة أيضًا.

والآن.. سأضعها أمامك، دون تعديل أو تصحيح للأخطاء الواردة بها – إن وُجدت – فقط سأقوم بنسخ المحادثة التي دارت بيني وبين بطل تلك القصة، وسوف أرسلها لدار النشر، وأطلب نشرها كما هي، وبما أنك تقرأ تلك المقدمة الآن، فهذا يعني أن الناشر قد وافق على طلبي.

ولكن قبل أن تبدأ دعني أكتب لك آية قرآنية قد تساعدك قراءتها على استيعاب الأسطر التالية بشكل أفضل..

دعني أذكرك بقول الله تعالى في سورة "الإسراء":

بسم الله الرحمن الرحيم (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا) صدق الله العظيم..

وَمَا أُوتِيتُم مِنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلًا.. كي لا تتعجب مما سوف تقرأ!!

ن. محفوظ

القاهرة ١٦ فبراير ٢٠١٨

## (١)

**أورشليم..**

مات "لازار"، فذهبت أخته إلى السيد "صاحب المعجزات" - وقد كانت من أتباعه- وطلبت منه أن يبعث أخاها من موته! وكان "السيد" يعلم أنه ليس لها في هذه الدنيا سواه - أخاها - فاستجاب لطلبها، وذهب صبيحة اليوم التالي عند قبر "لازار"، وهمس ببضع كلمات، ثم قفل عائدًا من حيث أتى.

وكان هناك شاب يدعى "كالفن" - عشرينيّ.. قمحي اللون طويل الشعر أجعده، ذو لحية خفيفة وشارب كث - متواريًا قرب القبر، إذ كان يعمل حفّارًا للقبور، وقد انتهى لتوّه من حفر قبر بجوار قبر "لازار"، ثم جلس يستريح بين القبرين، فلما سمع همس "السيد"، تعجب لوقع هذه الكلمات التي بدت غريبة على أذنيه، لكن دهشته زادت حتى كاد أن يُغشى عليه، حينما رأى "لازار" الميت المدفون.. يخرج من قبره ويمضي خلف "السيد"!

ظل "كالفن" مشدوهًا واستغرق عدة ثوانٍ حتى أفاق من ذهوله، ثم نظر حوله باحثًا عن شيء يسجل به الكلمات التي سمعها، حتى لا ينساها، ولمّا لم يجد شيئًا، ساوى بيديه الأرض بجوار قبر المبعوث، ثم كتب ما سمع، ولم يكتفِ بذلك، بل ظل يردد تلك الكلمات حتى حفظها عن ظهر قلب، فمسح ما كتبه على الأرض بيديه ومضى وفي قرارة نفسه عازمًا على تجربة تلك التعويذة.

ولمزيد من الحذر، ولكي لا ينسى الكلمات التي سمعها من "السيد"، قرر أن يسجلها في ورقة ما أن تسنح له فرصة بذلك، كما قرر أيضًا أن يضع كل من

"السيد" ومعجزته – "لازار" – نصب عينيه عن طريق مراقبتهما.

لكي يراقب "السيد" ، كان يجلس بين أتباعه مدعيًا أنه يؤمن بما يؤمنون، وذلك حتى يظل بجواره دون أن يلفت الأنظار إليه. وبالرغم من أنه – وبمرور الوقت– راق له حديث "السيد" وحديث أتباعه، فقد ظل في داخله شيء من كبر يمنعه أن يؤمن به وبرسالته.

وخلال مراقبته للمبعوث "لازار" ، لاحظ أن سلوكه أضحى غريبًا بعد البعث، نقيض ما كان عليه الحال قبل ذلك. فقد أصبح شارد الفكر دائمًا، لا يتكلم إلا في أضيق الحدود، كما أصبح بليد المشاعر لا يضحك.. لا يبكي.. ولا تظهر على وجهه أية تعبيرات. باختصار أصبح كالجماد.. أو كمن بُعث جسده فقط دون الروح.

أمّا عن عامة الناس..

فقد آمن بمعجزة بعث "لازار" ، من يريد أن يؤمن بـ"السيد" فقط، ومن لم يُرد أن يؤمن به، شكك فيها. وأما الغالبية العظمى منهم، فكانوا يعتبرونه فأل شؤم، فبغضوه وضجروا منه، حتى إن أطفالهم كانوا إذا رأوه، جروا خلفه وألقوه بالحجارة. وبالنسبة للحاكم والطبقة العليا من بني إسرائيل، فقد استخدموا ذلك التغيير في شخصية "لازار" كحجة لهم، كي يطعنوا في صدق "السيد" وفي معجزاته.

بعدما صُلب "السيد" ، أظلمّت الدنيا فجأة، وهبت ريح عاتية اقتلعت الأخضر واليابس، أحسّ "كالفن" أن تلك العاصفة المظلمة غضب من الله على هؤلاء الظَّلَمَة الذين صلبوا رسوله، ولمّا كان يساوره شعور بالذنب، وإحساسٌ أنه ضمن

المغضوب عليهم، فقرر أن يغادر تلك الأرض بحثًا عن النجاة. وكان يعلم أنه قبل العاصفة المظلمة بدقائق، مرّت قافلة تجارية متجهة نحو الطريق المؤدي إلى مصر، فقرر اللحاق بها، وبالفعل استطاع الوصول إلى القافلة.

وبعد مسيرة بضع ساعات مع القافلة، أضاءت الدنيا من جديد، ولكنه لم يعلم أن الدنيا لم تعد مظلمة في بلده أيضًا، فاعتقد أنه بهروبه هذا نجا من الهلاك المظلم الذي أصاب أهل بلدته.

## (٢)

أكاد أرى الآن علامات الذهول تعلو وجهك، كما أكاد أرى أيضًا اتساع عينيك من الدهشة. أراهما جيدًا، فقد كنت مثلك وأكثر عندما قرأت تلك الكلمات، وستتعجب أكثر عندما تكمل قراءتها.

والآن.. دعنيّ أجيبك عن السؤال الذي أعلم أنه يدور بخلدك حالًا: "كيف وصلت إلى هذه المعلومات؟".

أنا لم أبحث يومًا عنها.. هي التي وجدتني، مع تلك التعويذة التي تحيي الموتى! معذرة.. ألم أقل لك إن تلك التعويذة معي؟!

أنا آسف.. يمكنك أن تعتبرها أولى سقطاتي الكتابية، حيث كان يتوجب عليّ أن أقوم بإثارة فضولك أكثر من ذلك، ولكنني حديث العهد بالكتابة.

المهم أنك علمت بالأمر وانتهى، دعني إذن أحدثك عن نفسي قليلًا، لكن اسمح لي أولًا أن أقوم بإعداد فنجان من القهوة كي أستطيع شحذ تركيزي.. وأنصحك أنت أيضًا أن تستغل وقت غيابي في إعداد فنجان لك -إذا سمح طبيبك بذلك أو لم يسمح- سوف تحتاج القهوة، لأن المرحلة المقبلة من قصتي ستتطلب منك تركيزًا مضاعفًا.. فانتظرني.

## (٣)

ها أنا قد عدتُ، وأمامي كوب القهوة، بجوار حاسوبي الآلي المحمول، ماركة "توشيبا". تضيء علامة خضراء بجوار اسمك، مما يدل على أنك لا زلت "online" على موقع الـ facebook ومما يدل أيضًا على أن قصتي نجحت في جذب انتباهك وإثارة فضولك.

..((...typing

أراك الآن تكتب لي.. أرجوك لا تفعل!!

نعم.. هكذا أفضل.. أعلم أنك لا زلت في فترة النقاهة، بعد غيبوبة استمرت إحدى عشرة سنة.. منذ عام ٢٠٠٦ حتى نهاية عام ٢٠١٧. لذا لا أريدك أن تجهد نفسك بالكتابة. فقط أتركني أنهي قصتي أولًا، وبعد ذلك حق الرد مكفول لك. وسوف أقوم بالرد على جميع تساؤلاتك واستفساراتك. لكن لي رجاء آمل أن تحققه: أريدك إن راقت لك قصتي، أن تقم بنسخ كلامنا هذا وتعيد كتابته بصيغة أدبية أفضل، ثم تعرضه على دار النشر التي أخذت حقوق نشر رواياتك القديمة، وإن وافق مسؤولوها على نشره، فلا يهمني أن تُنشر هذه القصة باسمك أو باسمي أو حتى باسم الجن الأزرق، المهم أن تصل رسالتي تلك إلى الناس. وبما أنك كاتب كبير ومشهور وحاصل على جائزة عالمية في الأدب، فسوف تجعل شهرتك، مهمتي سهلة.. ومن يدري لعل ما سأقصه عليك بعد قليل، يتم تحويله إلى فيلم سينمائي، كما هو الحال مع معظم أعمالك، فتلقى قصتي بذلك رواجًا على نطاق أوسع!

أتعلم أننا أصبحنا نعيش في بلد نسبة القراء فيها أقل من ١٪؟! فماذا تنتظر من

بلد تباع فيها الكتب فوق الأرصفة.. بينما الأحذية في أفخم الفترينات؟! كما قال "عمر طاهر".

أراك مللت من كثرة "الرغي".. يجب أن تعذرني فما مررت به كاد أن يُذهب عقلي، ولكني أعدك أن تنال قصتي إعجابك، ولن تشعرك بالملل أبدًا.

ماذا كنت أقول قبل أن أذهب لعمل القهوة؟! اسمح لي أن أمرر شريط المحادثة للأعلى كي أرى أين توقف كلامي، ثم أرجع إليك.

آسف على التأخير.. فمستطيل الدردشة صغير جدًا، الأمر الذي جعلني أستغرق وقتًا أطول في البحث حتى وجدت ضالتي. كنت قد توقفت عند تعريفك بنفسي، وسوف أفعل، لكن قبل ذلك دعني أطلب منك أن تتحمل رداءة لغتي الفصحى، إن وجدتها كذلك. فأنا وكما ذكرت سلفًا حديث العهد بها، وعندما تعرفني جيدًا ستعذر ضعف لغتي أكثر. كذلك أريدك أن تتحمل رداءة السرد، فأنا لم أكن يومًا راويًا. وتعذرني أيضًا، إن حدث أي تكرار، فأنا - كما ولابد أنك لاحظت- أكتب من عقلي مباشرة إلى لوحة المفاتيح، ليس أمامي أية أوراق، اللهم إلا الكتيّب الصغير الذي كتبتُ فيه ملخصًا لقصة "كالفن" ونقلت لك جزءًا من ذلك الملخص في البداية، وسأنقل الباقي وبعض المقاطع بين الفينة والأخرى. وبالمناسبة.. تعويذة إحياء الموتى موجودة أمامي الآن بجوار الكتيّب!

أعرف أنك تعتقد أنني أكذب، وأعرف أن عقلك الباطن يتساءل الآن: إذا كانت تلك التعويذة مكتوبة بيد شخص من بني إسرائيل، وهو "كالفن"، فلابد أنها ليست باللغة العربية؟! وأنا أؤكد لك هذا الكلام. فعلًا التعويذة ليست بالعربية، ولكن مكتوب تحتها كلمات بالعربية غير مفهومة، وهذه الكلمات هي طريقة

نطقها بالعربية، كأن تكتب مثلًا: "وات إز يور نيم"، جملة إنجليزية بحروف عربية، ومعناها "ما هو اسمك؟".

وعمومًا.. لن أجبرك على أن تصدقني، فلا يهمني ذلك. ما يهمني حقًا هو أن تنشر قصتي، إن راقت لك.

والآن فلنبدأ...

## (٤)

أنا "مدحت الحي"، ومدحت هذا ليس اسمي الحقيقي، ولكنني بالفعل سليل عائلة الحي، أكبر عائلات محافظة البحيرة بدلتا مصر. وأعذرني، لن أكتب عنواني لشيء في نفسي، ولكني سأصف لك أجزاءً من قريتي والقرى المجاورة أثناء سردي الحكاية.

مؤهلي هو دبلوم ثانوي صناعي، "قسم مباني"، من مدرسة "أبو حمص" الثانوية الصناعية دفعة عام ٢٠٠٥ مما يفسر لك السبب وراء رداءة لغتي، ولكني أقرأ كثيرًا، وفي شتّى المجالات.

أسرتي من الفرع الفقير في عائلة الحي، والدي ترك الزراعة منذ أمدٍ بعيد، وصار يعمل "معالج روحاني"، بعد أن كان ملازمًا لعمي الأكبر، صاحب البركات، الشيخ "مهدي الحي".

أثناء مرض الشيخ "مهدي" أوكل شؤون العمل لأبي قبل أن يلازم الفراش، فأوكل أبي بدوره شؤون الأرض والمواشي إلى عمي الأصغر، وتفرغ هو للبخور وحبة البركة وماء الورد، والكتابة على البيض بأقلام حمراء وسوداء، وعمل الأحجبة والتحصينات، وطرد الأرواح الشريرة من الأجساد الملبوسة، أو المنازل المسكونة.. إلى آخر تلك القائمة الطويلة من الأشياء التي تساعده في النصب على الناس، باللعب على أوتار الجهل المتفشي في القرى.. والمدن أحيانًا.

وكان رأيي فيهما - والدي وعمي "مهدي"- أنهما دجّالان، ولهذا السبب لم أرضخ للضغوط التي مورست عليّ من جميع أفراد الأسرة كي أتعلم "الدجل"،

وأساعد والدي في عمله، ثم أرث تلك المهنة عقب أن يتوفاه الله بعد عمر طويل. ولكني ورثت منذ نعومة أظافري - بدلًا من الدجل- حب العزف عن جدي لأمي، الذي كان يعزف على آلة العود في فرقة الست "عزيزة جلال"، وأورثني أيضًا -مع حب العزف - آلة العزف "العود"، فكنت أقضي معها أوقات وحدتي الكثيرة. وكان أبي يكره العود، كما كان يكره جدي لأمي، ويكره كرة القدم وخضار البامية والآيس كريم و..... وكل شيء أحبه.

في صباح أحد الأيام.. احتد النقاش بيني وبينه حول العود، هو يرى أنه لابد لي أن أتعلم أصول العلاج الروحاني حتى أساعده فيما يفعل، وأنا لا أرى أمامي إلا أنني سوف أصنع ألحانًا تعيد للعود أمجاده. اعتدت ذلك الصدام بسبب تكراره، ولكن تلك المرة كان الوضع مختلفًا:

- يا ابن الكلب الناس هتاكل وشّي بسببك.. بيقولوا إزاي أبقى بعالج أمة لا إله إلا الله ومش عارف أعالج ابني؟!

قالها أبي غاضبًا، فعقبتُ ببرود:

- بس أنا مش تعبان يا حج!

صرخ فيّ:

- لأ تعبان.. تعبان وأهبل كمان.. هو فيه حد عاقل يعمل عمايلك دي؟ يبقى قدامك شغل مع أبوك هيكسبك دهب ويعملك هيبة ويخلي الناس تخاف منك، وتروح تركب الحمار وقدامك البيانو بتاعك ده؟

قلت متعمدًا أن أستفزه، حتى يكف عن ذلك الحديث:

- عود مش بيانو!

احمّر وجهه:

- هي دي مشكلتك؟! إنه عود مش بيانو؟ ومش شايف خالص إنك ما ينفعش تركب الحمار ومعاك الجيتار ده؟

ورفع سبابته مشيرًا للعود:

- عود مش جيتار!

بدأت أرى آثار دخان طفيف، يخرج من فتحتي أذنيه:

- خلاص يا سيدي ما غلطناش في البخاري. يا ابني أنا عاوزك تعقل وتعيش عيشة أهلك، إحنا فلاحين ومالناش في جو الهشك بشك والكامنجات ده!

- عود مش كامنجا!

زاد خروج الدخان من كل فتحات وجهه، حتى تحول إلى نيران، فقام من مكانه وهو يقول:

- عود يا ابن الكاااااالب!

وضربني بآلة العود على أم رأسي، فأصبحت قطعًا صغيرة متطايرة في الفراغ مع نجوم تحوم حولي. بكيت بعدها كما لم أبكِ من قبل. كان الألم موجعًا، لن أكذب وأقول إن الألم النفسي كان أكبر من البدني، ولا أن حزني على العود وما أصابه، فاق حزني على رأسي وما ألمّ بها، فأنا لم أكن أبكي حزنًا لأن ما فعله أبي بالعود قد سبب لي عقدة نفسية "كما نرى في بعض الأفلام العربية"، ولم أحزن حتى لأنه كان يذكرني بجدي لأمي الذي كنت أعشقه، بل على العكس تمامًا، فقد كنت أكره ذلك العود وأريد تجديده لأنه، ومنذ مدة، أصبح غير صالح للاستخدام،

ولولا قصر ذات اليد لكسرته بنفسي واشتريت عودًا أحدث.

إذن فما الذي كان يبكيني؟ لا أعرف!. ولكني رجّحت أن تكون خبطة العود على أم رأسي قد أصابت مناطق معينة في المخ مسؤولة عن إعطاء إشارات للعين بالبكاء، فأصبحت عيني تبكي "عمّال على بطّال"! واستفدت كثيرًا من ذلك الوضع، فلولا كثرة بكائي هذا، ما كان أبي ليشتري لي عودًا جديدًا أبدًا. ولكنه لما وجدني لم أكف عن البكاء، حتى بعد أن أعطاني العود الجديد، تحوّل شكه في صحة قواي العقلية من مجرد شك إلى تأكيد.. وفي أحد نقاشاتنا المعتادة، قام بكسر العود الجديد فوق رأسي هو الآخر، فتوقفت عيناي عن البكاء أخيرًا!

كنت قد مللت العيْش في الريف، وسط أكوام القش التي تعلوها أقراص "الجلة"، التي تستخدمها النساء في إشعال الأفران للخبيز والطهي. وتعبت من مشواريّ الصباحي والمسائي الذي أسير فيهما حوالي كيلومترين، من قريتنا إلى قرية مجاورة، حيث أقرب سيارة نصف نقل - كانت مكشوفة قديمًا، والآن اخترعوا لها "تقفيصة" جعلت شكلها أقرب إلى "بوكس" الشرطة- كنت أسير هذا المشوار يوميًا، وفوق ظهري أحمل العود - قبل أن يتعرض للكسر- مما يزيد من مشقة الطريق. ومللت أيضًا شعوري بالاشمئزاز من المحيطات حولي، ناموس وذباب وغيرهما. هذا كله بالإضافة إلى أن كل المعطيات من حولي لا تتناسب مع موهبتي في العزف على العود، فقررت أن أستغل صدامي القادم مع أبي وأترك له المنزل!

تركت البيت والمحافظة كلها وانتقلت للعيش في الإسكندرية. كان عمري وقتها عشرين عامًا، وكنّا في منتصف عام ٢٠٠٨. فكرت في البحث عن سكن، ولم أكن أملك في ذلك الوقت، مالاً أو عملًا! ولا أعلم حتى كيف سأتدبر أمر عصافير

بطني التي لم تكف عن الـ "صوصوه" منذ مغادرتي القرية.

أخرجت هاتفي وبدأت أبحث في قائمة الأسماء عن اسم صديق سكندري تسمح علاقتي به أن أطلب منه استضافتي في منزله عدة ليالٍ، إلى أن أجد حلًا لتلك المعضلة، ولكني للأسف وجدت كل معارفي، الذين يعيشون في الإسكندرية، أقرباء وليسوا أصدقاء، مما يعني بكل تأكيد أنه عندما تخطو قدماي عتبة باب بيتهم، سيعلم أبي مكاني وسيأتي ليأخذني، أو على أقل تقدير، إن لم يأتِ، فسوف يطمئن عليّ، ولمْ أكن أريد أن أطمئنه. ولنرى كيف ستستطيع عفاريته مساعدته في معرفة مكاني!

ما الحل إذن؟.. لا أعرف!

فتحت قائمة الأسماء مرة أخرى ونظرت إليهم اسمًا اسمًا، فلفت نظري اسم صديق لي منذ الدراسة، يعيش في قرية قريبة من قريتنا.

"كرم".. طويل، عريض المنكبين، قمحي اللون مائل للسمرة، ذو ملامح تحمل كل طيبة الفلاحين، في كفيّ يديه وكعبي قدميه تشققات، تصنع خيوطًا متقاطعة دليلاً على كثرة العمل في الحقول، وهو - رغم الشقاء الواضح عليه- كريم جدًا كمعظم أهل القرى.

وقتها كان "كرم" يؤدي خدمته العسكرية في أبي قير، وكان قد هاتفني منذ فترة قريبة سعيدًا بتجنيده. تعجبت حينها، لأنه دائمًا ما كان يحسدني بسبب إعفائي من أداء الخدمة العسكرية، بما أني وحيد أبي وليس لي أخوة! أذكر يومها أنني حينما سألته عن سر سعادته تلك، قال إنه قد تم ترحيله - بعد انتهاء فترة مركز التدريب- إلى مساكن الضباط بأبي قير بجوار الأكاديمية البحرية، وأن

الجنود هناك يرتدون ملابس ملكية لأنهم يحرسون مساكن الضباط وأسرهم من المدنيين، ويقومون بأعمال النظافة للعمارات أيضًا، كان "كرم" إذن يقضي جيشه في منطقة مدنية. هذا ما قاله لي، وطلب مني يومها أن أقوم بزيارته لأرى بعيني إذا كنت غير مصدق. ولم أتردد كثيرًا، فضغطت على زر الاتصال الأخضر في هاتفي الصيني - آخر صيحات الهواتف النقالة في ذلك الوقت- وانتظرت حتى أتاني صوته من الطرف الآخر.

## (٥)

مكثتُ عند "كرم" أسبوعين، استطعت خلالهما أن أحصل على ما يقرب من الألف جنيه، عن طريق تركيب وصيانة الدش للضباط ملاك الشقق. وبذلك أصبح بإمكاني دفع إيجار شقة صغيرة أو حتى حجرة فوق السطوح، أنتقل للعيش فيها قبل أن يحين موعد إجازة "كرم"، بعد أربعة أيام.

بدأت البحث عن الشقة في منطقة المعمورة لسببين، أولهما أنها قريبة من محل عملي - مساكن ضباط أبو قير - والسبب الثاني يرجع لأنها منطقة شعبية، وبالتالي فأسعار تأجير الشقق فيها سوف تتناسب مع دخل متسوّل مثلي.

وبعد بحث قرابة أربع ساعات وجدتُ ضالتي، شقة صغيرة بإيجار خمسمائة جنيه شهريًا، ولما وجدني المالك وحيدًا صغير السن، تغاضى عن أخذ مبلغ التأمين، بعدما عاهدته أني سأحافظ على الشقة ومحتوياتها كأنني مالكها.

وخلال الثلاثة أيام التي سبقت سفر "كرم"، استطعت أن أكتب اسمي ورقم هاتفي على معظم عمارات المساكن، الأمر الذي ساعدني على الانتشار بصورة أفضل. وزاد من شعبيتي أيضًا علاقتي الطيبة بالجنود زملائه. وهكذا أصبحت أحصل شهريًا على مبلغ لا بأس به، أستطيع من خلاله دفع إيجار الشقة، بالإضافة إلى مستلزمات المأكل والمشرب، وفواتير الكهرباء والماء وما إلى ذلك. ويتبقى مبلغ صغير أضعه باسمي في دفتر توفير، لأني لا آمن تقلبات الأيام!

وكما توقعت جاءت أيام التقشف سريعًا، وقلّت استعانة الناس بي في تركيب الهوائيات، ولكي أتغلب على تلك الأزمة سريعًا، اشتريت بمعظم مدخراتي، عودًا

جديدًا وذهبت به إلى بعض كازينوهات الإسكندرية، باحثًا عن عمل، ولكني في كل مرة كنت أُطرد شر طردة، مع سماع عبارات مثل:

"إنت خارج من فيلم أبيض وأسود؟"، "اعمل لي لحن أبعته للأستاذ كارم محمود -الله يرحمه- ولو عجبه هشغلك معايا!"، "إنت باين عليك حفيد القصبجي... الخ".

أذكر أنني ذات مرة دخلت على مدير كازينو في أحد فنادق الإسكندرية الشهيرة، فقال لي بوجه سمح:

- إنت شبه محمد عبد الوهاب؟

-الله يرحمه كنت بموت فيه.

فرد بنفس الابتسامة:

-وأنا كمان كنت بحبه.. هو كان فنان.

ارتاح قلبي واطمأن، أخيرًا وجدت من يفهمني ويقدر قيمة الفن والعود تحديدًا. قلت:

-آه عند حضرتك حق، هو كان فنان فعلًا.. أحسن ملحن عرفته مصر، عمل كام أغنية لأم كلثوم...

قاطعني بوجهٍ عبوس:

-أنا أقصد محمد عبد الوهاب بتاع الأهلي!

ثم أشار ناحية الباب وأضاف:

-ياللاّ ياض اسرح من هنا.. مالكش شغل عندي.

-ماليش شغل عندك.. ليه؟!

قال ساخرًا من أغنية موسيقار الأجيال:

-من غير ليه..!

ثم ضحك بملء فيه واستطرد:

-على رأي عبوهاب بتاعك: عارف ليه؟ من غير ليه.. هو غلاسة كده!

قطعتُ المسافة من أمامه إلى باب مكتبه على صوته الذي يشبه صوت الحمار، وهو يدندن أغنية "من غير ليه". كرهت الأغنية بعد ذلك.. كرهت عبد الوهاب نفسه.. ثم كرهت نفسي وكرهت العود ويئست..! لو كان أبي معي الآن، لأحب هذا المدير "اللطخ"! أما أنا فقد ضاقت الدنيا في عيني وأظلمت.

رجعتُ إلى شقتي وظللت ليلتي مستيقظًا أفكر في كيفية الخروج من تلك الأزمة. وهداني تفكيري إلى حيلة شيطانية، كانت هي المخرج الوحيد المتاح أمامي، فشرعت في تنفيذها.

في الصباح، اجتمعت ببعض الجنود - زملاء "كرم" الذين أضحوا أصدقاء مقربين لي- وعرضت عليهم أن يتلفوا بعض الهوائيات من فوق أسطح العمارات التي يقومون بحراستها، ولما يهاتفني الضباط أصحابها، سآخذ معي الجندي الذي أتلف الهوائي، وحين أنتهي من إصلاحه، سأعطيه ما فيه النصيب مما يجود به علينا الضباط.

كنت أعلم أنهم لن يتمكنوا من رفض عرضي، إذ نمى إلى علمي أنهم يتقاضون

- بدل أكل- ثلاثة وثلاثين جنيهًا شهريًا، أي ما يعادل واحد جنيه وعشرة قروش في اليوم الواحد! في حين أن وجبة الإفطار وحدها كانت تكلف الفرد منهم أكثر من ضعف ذلك المبلغ كحد أدنى. وبناءً على حالتهم المادية السيئة، نجحت في إقناعهم بالإجماع، ولما بدأنا التنفيذ كنت عازمًا على التوقف حينما أجمع ما يسد حاجتي من مال. ولكني لم أتوقف، حتى بعد أن تخطيت أزمتي المالية، وجمعت نقودًا لم أكن أحلم أن أجمع نصفها يومًا. فقد راق لي الموضوع، حتى إنني بدأت أنظم جدولًا بمواعيد شبه شهرية لإتلاف هوائيات السكّان.. على سبيل المثال، عمارة رقم ٧ هـ.. شقة ٤، ٢٣، ٤٢ يوم الخميس، عمارة رقم ٤١ د.. شقة ٣، ١١ يوم السبت وهكذا...

## (٦)

استقر "كالفن" في مصر، وتعلم لغة أهلها حتى صار يتحدثها كأنه منهم. وظل طوال الوقت يجاهد كي يُبعد عن باله خاطر مُلحّ يدعوه أن يجرب تعويذة إحياء الموتى. كان غير واثق من قدرته على فعل ما فعله "السيد". فتارة يقول إنها إحدى المعجزات الخاصة بـ"السيد" وهو ليس أهلً لها. وتارة أخرى يقنع نفسه أن كل من عرفهم منذ أن أتى إلى مصر أحياء، وعليه الانتظار حتى يموت أحدهم، لأنه يخشى إن اختبر تلك التعويذة على شخص لا يعرفه، أن يحدث ما لا تُحمد عقباه..!

وهكذا إلى أن مرّ أكثر من ثلاثة أعوام، كان "كالفن" خلالها يعمل صيادًا -المهنة الوحيدة التي تعلمها منذ صغره وأحبها- وطوال الثلاثة أعوام تلك، عاش "كالفن" في صراع داخلي، عقله يريده أن يقوم بتجربة تعويذة إحياء الموتى، وفي قلبه قلقّ. وكان إذا أحس أن عقله سوف يتغلب على قلبه، ذهب إلى النهر القريب من بيته، وجلس على حافته، وتحدث مع أسماكه حتى يهدأ.

وذات مرة، وفي إحدى جلساته على حافة النهر، كان هناك طفل يستحم، عمره لا يتخطى الخمس سنوات، وكان "كالفن" ينظر ناحيته ولكنه لا يراه، في الحقيقة لم يكن يرى شيئًا أمامه، إذ كان شاردًا في صورة لم تفارق مخيلته منذ أن رآها.. صورة "السيد" وهو يقرأ تعويذة إحياء الموتى على "لازار"، الذي يخرج من قبره، ثم يتبعه.

قطع صوت صراخ الطفل حبل أفكار "كالفن". نظر في الاتجاه القادم منه

الصوت، فرآه يغرق. فوقف وخلع عنه قلنسوته وجلبابه، ثم قفز إلى الماء.. ولكن شيئًا ما جال بخاطره جعله يتوقف فجأة عن السباحة، ويخرج من النهر راكضًا إلى داره القريبة.

في وسط الدار، وعند نقطة معينة، حفر في الأرض وأخرج صندوقًا خشبيًا صغيرًا، فتحه ثم أخرج من داخله ورقة، فضّها وأخذ يقرأ ما فيها قبل أن يعيدها إلى ذلك الصندوق مرة أخرى، ويعيد الصندوق إلى الحفرة في وسط الدار ثم يعود هو الآخر إلى النهر.

استغرق مشوار الذهاب إلى البيت والحفر ثم العودة دقائق معدودة، كان الطفل فيها قد استسلم لتيار مياه النهر الطفيف. سبح "كالفن" حتى وصل إليه، ثم سحبه إلى أن وصل به إلى الشاطئ، وبعد أن تأكد له موته، قرأ عليه تعويذة إحياء الموتى!

بعد برهة تجشأ الطفل، وفتح عينيه فنظر إلى "كالفن" الذي كان مشدوهًا كمن رأى لتوّه إنسانًا يطير، أو بمعنى أكثر دقة، كمن رأى لتوه إنسانًا يحيا بعد موت!

ابتسم الطفل، ثم قام من رقدته وشكر "كالفن"، قبل أن ينطلق عدوًا، ليخبر أهله بما لاقاه من شجاعة ذلك البطل، الذي لولاه لكان الآن في عداد الأموات.

## (٧)

في صباح يوم ما من أيام شهر أغسطس عام ٢٠١٠ جاءني والدي، وكان ذلك أول لقاء بيننا بعد ما يقرب من عامين، فلما رأى علامات الدهشة تعلو قسمات وجهي، ابتسم قائلًا:

-مش مبسوط إنك شوفتني ولا إيه؟

جاهدت حتى استدعيت أحبالي الصوتية، ورددت بصوت مرتعش:

-لا مبسوط طبعًا بس مش عارف إنت وصلت لمكاني إزاي! وبلاش - أبوس إيدك - تقولي إن العفاريت هي اللي قالتلك.

مع نهاية جملتي انتبهت إلى أنني لم أحتضنه، كما يفعل الأبناء حينما يقابلون آباءهم بعد غياب. أنا حتى لم أمد يدي بالسلام كأقل تقدير! وقبل أن أصافحه، ضحك على ذكر العفاريت ورد:

-لا مش هقول العفاريت، ومش هريحك برضه وأقول إن مش همّ.

من هذا الرجل؟.. لا يمكن أن يكون هذا أبي!

هذا الذي يقف أمامي الآن، يضحك بملء فيه.. بل ويمزح أيضًا! وأبي الذي أعرفه لا يبتسم حتى.. قلت:

-ياااه تصدق إن دي أول مرة أشوفك بتضحك من قلبك!

رد بهدوء على غير المعتاد:

-الزمن بيغيّر يا ابني.

ثم تجشأ وقال مغيرًا مجرى الحديث:

-إنت هتسيبني واقف على الباب كده كتير؟

-لأ طبعًا تعال ادخل، أنا آسف، بس المفاجأة نسيتني إننا لسه واقفين على الباب.

بعد أن أجلسته، أمسكت هاتفي وطلبت لنا طعامًا جاهزًا، احتفالًا بأول ضيف يدخل عليّ شقتي.. مهلًا.. أليس غريبًا أن أقول على أبي ضيفًا! عدت إليه فوجدته مستغرقًا في مشاهدة التلفاز، فوقفت خلفه أتأمل ملامحه عن قرب. كنت كمن أراه لأول مرة، أصبح نحيفًا جدًا عما كان عليه قبل عامين، ورسم الزمن خرائط من تجاعيد على قسمات وجهه، وأصبحت عروق يديه ورقبته أكثر بروزًا. عجيب حقًا ما أحدثه الزمن في والدي خلال العامين الماضيين! كل شيء فيه قد تغير.. كل شيء تغير إلا تلك البقعة السوداء التي تعلو خده الأيسر:

-كل الأمهات بتتوحم على حاجة تستاهل، إلا ستّك الله يرحمها، كانت بتتوحم على زتونة، عشان كده طلعت في وشّي. بس الحمد لله إنها ما طلعتش في حتة تانية!

وغمز بعينه اليمنى، فتعجبت، بينما سأل هو:

-هتفضل باصصلي كده كتير؟

أفقت من الشرود والتعجب على الذهول: كيف عرف أنني أنظر إليه، وهو لم يحوّل نظره عن التلفاز؟ والأهم: كيف قرأ أفكاري بخصوص "الوحمة" التي تعلو

خده الأيسر؟! طال صمتي بسبب انشغالي بالتفكير، فقال:

-ما تستغربش مش العفاريت اللي قالتلي إنك بقالك خمس دقايق بتبصلي، فيه مراية جنب التلفزيون شوفتك فيها!

أيجعلك جنّك تقرأ الأفكار أيضًا؟ يا له من جنٍّ بارع!

-اقعد عشان عاوزك في موضوع مهم.

جلست أمامه، فأخرج كتابًا قديمًا من جيب الصديري، ووضعه على الطاولة التي بيننا، وهو يقول:

-أنا عرفت من كام شهر أن عندي "الله أكبر" في المثانة، والدكاترة بيقولوا هاخد جلسات كيماوي وإشعاع وعمليات وخلافه، وأنا جايلك عشان أطلب منك طلبين قبل ما أموت؟

أخفيّت حزني وقلت:

-بعد الشر عنك، ربنا يجعل يومي قبل يومك. الطب اتطوّر يا حاج وما بقاش زي الأول، ما تقلقش كده..

ابتسم قائلًا:

-أنا مش قلقان عشان عارف إنك راجل وهتشيل مسؤولية البيت من بعدي، ده لو فضلت ميّت يعني!

تعجبت لكني لم أعقب لاعتقادي أنه يهذي، فأستطرد هو:

-أول طلب عاوزك تسامحني على اللي عملته، أنا عارف إني غلطتّ لما كرشتك

من البيت، وغلطت برضه لما اشتغلت في كار الدجل ده.

تأثرت بحديثه بشدة، إذ كانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها والدي يعترف بخطئه. أكمل:

- بقولك كده دلوقتي عشان الاقيك صافي من ناحيتي، وتاخدني في حضنك بعد ما أموت وأرجع تاني..

هذه المرة قاطعته مستفسرًا:

-أول مرة لما قلت "ده لو فضلت ميّت يعني"، قلت يمكن أنا سمعت غلط، تاني مرة بتقول "بعد ما أموت وأرجع تاني"! كده أكيد ما سمعتش غلط؟

-لا، ما سمعتش غلط!

-طيب هترجع تاني منين يا كبير إن شاء الله؟

أجابني بلا مبالاة جعلتني أتعجب أكثر:

-من الموت!

فقلت بتلقائية:

-ليه فاكر نفسك ماريو، هتموت وترجع تاني؟

ضحك حتى أدمعت عيناه، ولما انتهى قال:

-اصبر بس واسمعني للآخر!

-قول.....

-أنا ورثت تعويذة بتصحي الميّت!

Shit.-

تملكني حرج شديد، لأنني تجرأت وقلت هذا اللفظ لوالدي.. لكنه – والحمد لله– لم يفقه معناه.. إذ سألني:

-يعني إيه؟

-يعني... كمّل

-التعويذة دي موجودة معايا ومش هديهالك دلوقتي، بس الكتاب ده "وأشار إلى الكتاب الموضوع أمامنا".. فيه صور من مخطوطات قديمة مكتوب فيها قصة التعويذة وإزاي بدأت، وأنا هسيبهولك تفحصه براحتك وتتأكد من كل كلمة فيه لغاية ما تصدق كلامي.

كررت نفس اللفظ السابق.. والذي اعتقد أبي أن معناه "كمل "فقال:

-حاضر كنت هكمل من غير ما تشتّ لي، بس اصبر!

ثم أكمل:

-وعشان أنا عارف إن دماغك وسخة وصعب تصدق، هحكيلك حكاية عيلتنا -عيلة الحي- مع التعويذة دي.. اسم العيلة لوحده دليل، بس لو ركزت فيه.

ثم نطق اسم عائلتنا ببطء، وقال كل حرف على حدة:

-الـ حـــي.

-إيه يا عم جو الأفلام العربي ده، الحي إيه؟ وأركز إيه بس؟ هو أنت يعني لما

تقول اسم العيلة بهدووووء كده أنا هتأثر مثلًا! ولا يعني هو اسم عيلة الجحش معناه إن أفراد العيلة حمير صغيرة؟

-يا ابني اصبر على رزقك ما تستعجلش، أنا كنت فاكرك هيغمى عليك لما تسمع الكلام ده، أو على الأقل، هتشتم وتقول ألفاظ قبيحة!

حمدت ربي مرة أخرى، على جهل أبي للإنجليزية، وكررت نفس اللفظ:

-Shit.

-إنت علّقت ولا إيه؟ ماشي يا عم هَشِتَ لك يوووه قصدي هكمل لك..

الحكاية بدأت زي ما قولتلك مع اسم العيلة، الكلام اللي توارثناه عن الحي بيقول إن اسمه كان "سمعان"، وإنه حضر فتح المسلمين لمصر، وكان عمره وقتها ٢١ سنة، وأسلم زي معظم الناس اللي أسلمت، واتجوّز وخلف من مراته ٣ صبيان، وبعد ٢١ سنة كمان.. قبل معركة من معارك المسلمين، قعد "سمعان" مع ابنه الكبير -اللي كان عمره ٢٠ سنة وقتها- واداله التعويذة وحكاله الحكاية.. بس ابنه لما سمع الحكاية، مكنش بيـ Shit كل شوية زيك كده..

كررت نفس اللفظ رغمًا عني، فقال والدي متعجبًا:

-برضه! المهم، "سمعان" طلب من ابنه إنه لو مات يروح عند جبّانته ويقول التعويذة دي. ومات "سمعان" بس مش في معركة، مات موتة طبيعية، وهو سنّه ٨٩ سنة. وبعد مراسم الغُسل والتكفين والصلاة والدفن، راح ابنه ينفذ وصيّة أبيه، ورغم إنه ما كانش مقتنع باللي هيعمله، بس كان كل همه إنه ينفذ وصيّة والده وبس.

رددت كلمتي المعتادة، فقال أبي:

-أنا مش هرد على الكلمة دي تاني..

ثم أكمل:

-ولما رجع "سمعان" من الموت، الناس ما كانتش مصدقة عنيها، بس فيه منهم كتير أوي أقنعوا نفسهم إنهم دفنوه وهو فيه الروح!

كنت متحفزًا لأقولها ولكني آثرت السكوت حتى لا أغضبه، بينما أكمل هو:

-بس "سمعان" مات تاني، ولما رجع من الموتة التانية قطع الشك باليقين، ما همّ مش كل مرة هيبقوا دفنوه وهو فيه الروح يعني! فسمّوه "سمعان الحي".

عند تلك النقطة تحديدًا، لم أستطع منع لساني:

-Shit.

تجاهلني أبي وأكمل:

-ولما رجع من الموتة التالتة اتعاملوا معاه على إنه وليّ من أولياء الله الصالحين، وبقى اسمه "الولي الحي".. واتعمل له مقام مش عارفين مكانه لغاية دلوقتي. وطبعًا ابنه الكبير اللي عارف القصة كرر نفس الموضوع مع ولاده، وهكذا لغاية ما وصلت التعويذة وقصتها لإيد جدك ومنها لعمك "مهدي ولي" من بعده!

تغلبت على لساني، وسكتُّ، فاستطرد أبي وسألني:

-إنت عارف جدك مات وهو عنده كام سنة؟

حاولت أن أتكلم ولكن لم أقدر، فهززت رأسي نافيًا، بينما أردف هو:

-١٤٠ سنة، وعمك الشيخ مهدي مات وهو ١٢٠ سنة.

-طيب وإيه المشكلة في كده، ما تروح تصحيهم!

-إنت فاكر العملية سايبة، لو كانت سهلة كده كان زمان جدك الحي عايش وسطينا دلوقتي!

-Shit Shit Shit.

اعتقد والدي أنني مسنيّ ضُرّ، أو تلبسني عفريت، فسألني قلقًا:

-مالك يا ابني؟

-مالي إيه بس؟ إنت ليه مصمم تهد كل حاجة حلوة جوايا ناحيتك؟

لم يرد، فأكملت:

-تفتكر ينفع أحترمك وإنت أهبل كده؟

لا أعرف كيف خرجت مني تلك الكلمات، وندمت على قولها. لو كان هذا الشخص هو أبي القديم، لكنت الآن أعد النجوم التي تحوم حول رأسي، بعد أن يضربني بالعود عقابًا لي على "قلة أدبي". ولكن أبي الجالس أمامي الآن أخذها بصدر رحب، إذ ابتسم وقال:

-واد إنت، ما تنساش إنك بتكلم أبوك، احترم نفسك كده وقولي مش فاهم إيه وأنا أفهمك؟

-مش فاهم إيه؟ أنا مش فاهم حاجة خالص.. مش فاهم ليه "الحي" مش صاحي لغاية دلوقتي؟ لما هو سوبرمان كده! ومش فاهم ليه جدي وعمي وكل

حبايبنا أموات طالما كلامك ده حقيقي.. والأهم من ده كله، أنا مش فاهم ليه ماحدش استغل التعويذة دي في إنه يسيطر على العالم مثلا؟!

تقمص أبي شخصية الحكيم، ورد بهدوء:

-هجاوبك من آخر سؤال: محدش استخدمها لأن الموضوع صعب وبيعرّض الشخص اللي معاه التعويذة لخطر حقيقي من كل ناحية. وكل حبايبنا أموات، لأننا أخدنا عهد إن محدش يستخدم التعويذة غير الناس اللي يختارها الشخص اللي معاه التعويذة وبس، ولازم الناس دي تكون من صلب "الحي".

وسكت، فسألته:

-طيب وبالنسبة لعمي وجدي وجدي الحي وابنه الكبير، وكل الأشخاص اللي كان معاهم التعويذة من أيام فتح مصر، ليه مش عايشين دلوقتي لما إنت تقدر تصحيهم من الموت؟

-ما هم كانوا بيصحوا من الموت فعلًا، بس فيه حد أقصى لاستخدام التعويذة على كل شخص!

ولمّا شعر أن عقلي لم يستوعب، قال موضحًا:

-كل واحد ليه يصحى من الموت ٣ مرات بس!

رددت:

-Shit.. مش بقولك فاكر نفسك بتلعب ماريو!

## (٨)

بعد نجاح تعويذة إحياء الموتى على الطفل الغريق، تعددت استخداماتها في عقل "كالفن". فكر أن يذهب لأهل المتوفين ويطلب منهم مالاً مقابل إحياء أقربائهم وذويهم، أو يحيي موتى الأثرياء فقط، وبذلك يذيع صيته ويصل إلى الملوك والحكّام عما قريب.

لماذا لا يدّعي النبوّة؟ وبفضل تلك المعجزة التي بين يديه، سيصدقه الناس ويكثر أتباعه ومريدوه، فيحصل منهم على قرابين باسم الرب، ويخلد التاريخ ذكراه كما خلّد ذكرى الأنبياء من قبله!

دارت الأفكار في خلده حتى وصل مداها حينما فكر أن يدّعي الألوهية: الله يحيي ويميت، وأنا أحيي وأميت، فلم لا أقول لهم إنني ربهم الأعلى؟!!

ولكن لم تغب عنه مخاطر تلك الاستخدامات، التي ستجر خلفها غضب المتديّنين من الناس، وستجر أيضًا عداوة أغلبهم، وهو في غنى عن كل هذا. ولم يغب عن فكره، أن تلك التعويذة لا تعصم حاملها من الموت، وله في "السيد" المصلوب، خير عبرة. هو يعلم أنها كنز يجلب الجاه والعزة وكثرة المال والخلود، إن استخدمها بطريقة سليمة.. ولكنها أيضًا لعنة قد تجلب الموت إن أساء استخدامها!

وبعد طول تفكير أصبح يعلم أن عليه أن يجد شخصًا يثق به كي يساعده في نشر خبر أنّه يحيي الموتى، والأهم، يقوم بإحيائه مستخدمًا تلك التعويذة، إذا حدث له شيء وقتله الناس.

ولكن من يكون هذا الشخص؟! إن علاقته طيبة بكل من يعرفهم هنا، وجميعهم يحبونه ويقدرونه، ولكنه ليس ساذجًا لدرجة أن يأمن أحدهم على ذلك السر، ويطلب منه أن يساعده فيما ينوي فعله.

لم ينم "كالفن" ليلته، بسبب كثرة التفكير حتى هداه رشده إلى أن يعود كسابق عهده، ويؤجل استخدام تلك التعويذة، حتى يجد ذلك المساعد، برغم عدم تأكده من أنه سوف يجده.

(٩)

رن جرس الباب، ولم أكن قد أفقت من صدمتي بعد، فلمْ أحرك ساكنًا. لكن بعد فترة تحول رنين الجرس إلى طرق على الباب بدأ بسيطًا ثم أخذ يزداد تدريجيًا. كنت في حال لا يمكنني وصفها، عيني ترى النقوش المرسومة على السجادة المفروشة فوق الأرض، والتي أنظر إليها منذ سيطر الصمت على حديثنا، وكف يدي اليمنى مشتبكة مع كف اليد اليسرى، كأنني أستمد قوتي من اتحادهما معًا، بينما كانت أذني تسمع صوت الطرق على الباب. كل الحواس تعمل، إلا عقلي.. لم يعط إشارة إلى قدمي لتسيرا نحو الباب، فأفتحه وأستريح من ضجيج ذلك الطرق! ونبهني أبي:

-مش ناوي تفتح الباب اللي هيتكسر من كتر الرزع ده؟

رددت ببلاهة:

-هاه؟

-الباب بيخبط يا ابني؟

وهنا تذكرت أني لم يسبق لي استقبال أحد في شقتي، فقلت له:

-بس أنا ماحدش بيجيلي الشقة دي خالص أصلًا!

-طيب قوم افتح وشوف مين؟

تملكني الخوف، بعد الحديث عن أرواح تُبعث بعد موت.. بعد الحديث عن "سمعان" و"الحي"، فليس بعيدًا أن يكون من بالباب هو "المسيخ الدجال"

نفسه! قلت مرتبكًا:

-لا يا عم أنا خايف قوم افتح إنت!

ضحك:

-خايف من إيه؟!

قلت بغباء:

-خايف من العفريت.

ارتفع صوت ضحكته:

-إيه العفاريت المحترمة دي اللي بتخبط على الباب قبل ما تدخل؟

-خلاص هقوم أفتح، إنت ما صدقت وعاوز تسِف عليّا؟

لما فتحت، وجدته عامل الدليفري الذي كنت قد نسيت أمره تمامًا، في الواقع كنت أقترب من نسيان اسمي. استغرقت بضع ثوانٍ حتى فهمت سبب وجوده، فأخذت منه الطعام ووضعته في المطبخ، ثم اتجهتُ إلى حجرة نومي، فجلبت النقود من جيب بنطالي ورجعت إليه، فأخذ الحساب والبقشيش وذهب.

عدت إلى أبي، فوجدته جالسًا غير مبالٍ بشيء، قلت لنفسي "همّ حاجتين ما اهمش تالت: يا أبويا بيهزر، يا اتجنن"، فقال لي:

-أنا مش مجنون والله!

تعجبت! فابتسم ابتسامة المنتصر. سألته:

-إنت بتقرا أفكاري إزاي؟

-بقرأ أفكارك!

ثم أضاف وهو لا زال محافظًا على ابتسامته:

-الله يخرب بيت الأفلام اللي بوّظت دماغكم.. شغل قراءة الأفكار، وجو الفيلم بتاع ابن فاروق الفيشاوي ده ما بيحصلش في الحقيقة..

قلت ساخرًا:

-آه عندك حق، قراءة الأفكار ما بتحصلش في الحقيقة وشغل أفلام، وإنك تصحّي الناس من الموت بتحصل عادي وشغل واقعي!

كتم ضحكته، وقال:

-ليك حق ما تصدقنيش، بس أنا هثبتلك!

-ماشي كمّل.

-طيب ناكل بس الأول وبعدين نبقى نـ Shit براحتنا..

-لا مش هناكل غير لما أفهم، إنت إزاي قادر تضحك كده وكمان جايلك نفسك تاكل وإنت بتموت؟ بغض النظر عن حوار التعويذة ده، اللي لو حقيقي المفروض تكتئب أقل واجب، من كتر التفكير ومن كتر ما بالك مشغول؟

صمت مفكرًا.. ثم قال:

-عندك حق، بس حوار التعويذة ده زي ما هو سبب قلقي.. هو برضه اللي مطمني ومش مخليني خايف من الموت، لأن طول ما هي معايا فيه أمل إني أرجع تاني!

لم يبد عليّ الاقتناع.. فاستطرد قائلًا:

-قوم بس حطلنا ناكل وتعال وأنا هقنعك.

## (١٠)

صباح اليوم التالي، أتاه أهل الطفل ليشكروه على إنقاذه نجلهم من موت محقق. وكان مستغرقًا في نوم عميق، بسبب سهره الليلة الماضية. بعد طرقات متتالية على باب بيته المنعزل قرب النهر، استيقظ من نومه، وبعيون متورمة بسبب قلة النوم، استقبلهم في حجرة معدة للضيوف، ثم استأذنهم ليغسل وجهه.

لما عاد إليهم، أمعن النظر فيهم فوجد رجلًا هرمًا، ومعه سيدة عجوز، عرف أنها زوجته، والطفل الذي أنقذه من الغرق الليلة الماضية، وبجواره كانت تجلس فتاة دون العشرين، مليحة الشكل، خمرية البشرية، ملامحها دقيقة ومتناسقة، وجسدها يفور بالأنوثة. لم يستطع "كالفن" أن يرفع عينيه عن هذه الحسناء، وكان الأب يشكره على إنقاذ ابنه الوحيد الذي رزق به بعد عناء، وطول انتظار، إذ إن الفارق بين الطفل وأخته يقترب من الخمسة عشر عامًا. وكان "كالفن" يستمع إلى ذلك كله، ويهز رأسه للرجل، ولكن عينيه وعقله وكل جوارحه بما فيها قلبه أيضًا، مأخوذ بذلك السحر الفتّان، والضوء المنبعث منها.

بعد أن انصرفوا، خطر ببال "كالفن"، أن يتزوّج بتلك الحسناء. وتعجب أنه حتى الآن لم يفكر في الزواج، رغم عمره الذي تخطى الخامسة والعشرين! سيتزوّج وينجب طفلًا يورثه تعويذة إحياء الموتى، ويساعده في عمله. تعجب أكثر من أن تلك الفكرة لم تخطر له على بال من قبل، رغم أنها الحل الأمثل، والأكثر أمنًا، فإن لم يكن ابنه هو من سيساعده في نشر أفكاره، ويساعده أيضًا لما يبعثه بعد الممات، فمن سيفعل إذن؟!

## (١١)

لمّا طلبت من والدي أن يكمل قصته، وكنا قد فرغنا لتوّنا من تناول الطعام، قال لي:

-قوم بس هات الشاي وتعال عشان دماغي وجعتني من كتر الكلام.

يا برود أعصابك:

-مافيش شاي غير لما أفهم الأول!

زفر بامتعاض، وقال مضطرًا:

-لما تفتح الكتاب ده هتلاقيه مكتوب بلغة تحس إنها مش مفهومة، بس لما تركز فيها هتلاقيها عربي.. وهتعرف من طريقة الكتابة وشكل الورق نفسه إن الكتاب ده قديم..

صمت، ثم أردف مؤكدًا:

-قديم أوي.

-أيوه بس ده مش دليل!

-يا ابني أصبر لما أخلص كلامي..

-كمّل..

-هتلاقي في القصة اللي في الكتاب ده، أسامي ناس، ابحث عنهم في الإنترنت، اللي بيقولوا عليه ده، هتتأكد أكتر.

-وانت بقى أتأكدت إزاي؟

حاول أن يجعلني أخجل من نفسي فقال:

-كنت بثق في أبويا وبصدق كلامه، مش زيكم جيل فلتان..

قلت غير مهتم:

-أقصد عرفت منين إن النت هيأكدلي الكلام ده؟

-قبل ما أجيلك رحت لمحمد أمين، صاحبك، هو الوحيد اللي عنده إنترنت في العزبة، وقولتله اسم كذا شخص من اللي في الكتاب، وطلبت منه يبحث عنهم ويشوف هيلاقي إيه!

-ولقى إيه بقى؟

-في الأول، قال إن واحد اسمه على اسم ماركة هدوم مشهورة أو حاجة زي كده، والتاني اسم مصارع معروف أو بتاع كمال أجسام باين...

ما العلاقة التي تربط اسم ماركة ملابس مشهورة واسم مصارع، بتلك القصة وهذا الكتاب العجيب؟ سألته فأجاب:

-ما هو عشان مفيش علاقة بين الكلام ده والتعويذة، طلبت منه يدوّر كويس، وبعد فترة قال إنه لقى واحد اسمه زي اسم بتاع كمال الأجسام ده، وكان عايش زمان، وحكالي قصة قريبة من الموجودة في الكتاب هنا، وهتوضحلك الحكاية أكتر من الكتاب كمان. وقالي كمان إن فيه كاتب ذكر القصة دي في كتاب اسمه "قرية ظالمة".

شعرت بأن عقلي، الساكن الهادئ، لم يعد قادرًا على استيعاب كل تلك الكمية من

المعلومات، التي جاءتني على غفلة من أمري، فقلت:

-أنا كنت مستنيك تفهمني، جيت بوظتلي دماغي أكتر!

ضم إصبعيه السبابة والوسطى، مع الإبهام، في إشارة منه ليجعلني أهدأ، ثم قال بتعقل:

-بص.. إنت دلوقتي تقرا الكتاب اللي قدامك ده، وبعدين تدوّر على اسم "لازار" .. على البتاع الإنترنت ده، وتشوف النتيجة، وبعدين تشتري الكتاب اللي اسمه "قرية ظالمة" ده وتقراه وتشوف هتقتنع ولا لأ.

-ماشي.

-طيب قوم بقى اعملنا كوبايتين شاي، بس خلي كوبايتي تقيلة عشان الصداع.

قلت برجاء:

-حاضر.. بس تعال معايا المطبخ!

ابتسم:

-خايف تروح المطبخ لوحدك؟! أومال هتعمل إيه لما أسيبك وأمشي؟

انتفضت مذعورًا:

-إنت هتسيبني وتمشي؟

-آه

-Shit.

## (١٢)

بزواجه من الحسناء تقرّب "كالفن" من أخيها "بادجيا"، الذي أنقذه من الغرق، وشرع في تربيته كأنه والده أو أخوه الأكبر. الأمر الذي أسعد الطفل كثيرًا، إذ كان ينقصه ذلك الشعور بسبب فارق السن بينه وبين أخته الكبرى.

كانت السعادة تملأ حياة "كالفن"، أحب روح زوجته وخجلها، أكثر مما عشق شكلها لما رآها أول مرة. إلا أنّ تأخر الإنجاب عامًا بعد عام، كان ينغص عليه حياته، ويقضي على سعادته تلك. وشغله التفكير في الأمر، حتى صار دائم العبوس. كانت تسيطر على عقله فكرة واحدة: لو لم ينجب، من سوف يساعده في تنفيذ مخططه؟ وكان يشعر بالخجل عندما يضبط نفسه وهو يفكر في أمر الإنجاب، بتلك الطريقة التي جعل من خلالها، عاطفة الأبوّة أمرًا ثانويًا.

ولما طال الزمن أكثر، ولم تحبل امرأته بعد، أصابه يأس، وفكر أكثر من مرة في البحث عن مساعد، ولكن ما الذي يجعله يبحث عن غريب وأمامه "بادجيا" شقيق زوجته- ذلك الطفل الذي كبر الآن ولا زال حافظًا للجميل، فهو لم ينس أن "كالفن" قد أنقذ من حياته.

إذن.. آن الأوان أن يعرف الحقيقة. ولكن إن علم الحقيقة كاملة، إن علم أن "كالفن" هو الذي تركه يغرق لكي يتمكن من تجربة تعويذة إحياء الموتى عليه، فلن يعد هناك جميلًا يرد، بل قد يتحول الأمر وقتها إلى دين في رقبة "كالفن"!. فليؤجل إذن هذا القرار، لعله يرزق بطفل.

(١٣)

بعدما رحل والدي، فتحت الكتيّب فوجدته كما قال، أوارقه قديمةً وتنبعث منها رائحة الزمن. أما الكلمات العجيبة تلك، فكانت مكتوبة بخط يشبه، إلى حد كبير، الخط الأندلسي أو الكوفي!

مع انتهائي من قراءة تلك الكلمات، كانت دهشتي قد وصلت منتهاها، فأخرجت الـ "لاب توب"، وبحثت على محرك البحث "جوجل" عن اسم "كالفن"، بصفته بطل تلك القصة إلى الآن. وبعد بحث طويل، لم أجد سوى معلومات عن ماركة "كالفن" كلاين" الشهيرة. وكان من البديهي أن أبحث بعد ذلك عن "لازار" فوجدته اسم لاعب كمال أجسام حالي. لكني واصلت بحثي حتى عثرت على ضالتي. ولما تأكدتُ من تلك القصة احتجت دليلًا آخر، فنزلت من فوري إلى محطة الرمل بحثًا عن كتاب "قرية ظالمة"، ولكني لم أجده هناك، فركبت سيارة إلى شارع النبي دانيال، وهناك وجدت الكتاب. فتحته ومررت بعيني بين سطوره باحثًا عن اسم "لازار"، إلى أن وجدت بالفهرس عنوانًا لفصل داخل الكتاب بنفس الاسم. فتحت الصفحة وقرأت القصة التي لم تكن تختلف كثيرًا عما قرأته عن "لازار" الموجود بالكتّيب الذي تركه لي أبي!

لم أستطع صبرًا، فرجعت إلى شقتي بالمعمورة، وجمعت كل متعلقاتي، ثم غادرت الإسكندرية، متجهًا إلى قريتي بالبحيرة.

## (١٤)

استقبلني الأهل والأصدقاء القدامى بالكثير من الترحاب، واستمر توافد الناس على البيت، للترحيب بي يومين، فلم أختل بأبي إلا في ساعات الليل المتأخرة، أول ما رآني ضحك وقال:

-ماكنتش أعرف إنك جبان كده ومش هتقدر تقعد لوحدك بعد ما تسمع الحكاية دي؟

قلت ممازحًا إياه:

-وانت يعني عاوزني أتأكد أن أبويا سوبر ماريو، وأقعد لوحدي بعيد عنه؟ وبعدين اللي سمعته منك مايخوّفش، بالعكس.. ده يطمن يا حاج.

تهللت أساريره وسألني فرحًا:

-أفهم من كده إنك اتأكدت من كلامي؟

أومأت برأسي أن نعم، فأستطرد سائلًا:

-بالسرعة دي!

-آه بالسرعة دي، هو الموضوع مكنش محتاج غير فتحة نت ومشوار لغاية محطة الرمل والنبي دانيال..

صمت قليلًا، ثم سألني:

-ورجوعك ده معناه إنك قررت تساعدني وتكمل الرسالة من بعدي؟

كررت خلفه:

-رسالة! رسالة إيه يا حاج؟ إنت هتمثل؟ الكلام ده لو بجد، يبقى إنت في إيديك كنز وتقدر تقدم بيه رسالة فعلًا.. ولو عرفت تستفيد منه هتبقى فوق.. فوق قوي كمان، ومش لوحدك، إنت تقدر تعلي بالبلد دي كلها معاك!

نظر إليّ بعدم فهم، فأكملت:

-إنت مش بتحب جمال عبد الناصر؟

-آه.

-طيب ليه ما فكرتش تصحيه من موته، وتطلب منه يوحّد العرب من تاني، ونتجمع ونحرر القدس مثلًا؟

-بقولك إيه، أنا عارفك مجنون بقضية القدس، بس أنا بعمل اللي أجدادي وأجداد أجدادي كانوا بيعملوه.

-آه.. يعني إنت بتعمل زي الكُفار لما قالوا: "حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا".

زفر بنفاد صبر، قبل أن يقول:

-أنا عارف إني مش هاكل معاك.

ثم تغيرت طريقته في الحديث ليصبح أكثر هدوءًا، وأضاف:

-بص يا ابني.. أنا ليا أصحى ٣ مرات صحيهملي، وهتبقى معاك التعويذة تعمل بيها اللي يريحك!

-طيب هو إنت ماينفعش تلم ١٠٠ عملة ذهبية زي ماريو، فتاخد موتة زيادة؟

-بس يا علِّ× بطّل تريقة وقولي هتصحيني ولا لأ.

-يا حج موت إنت بس ومالكش دعوة.

-يعني إيه؟

قلت بجدية:

-يعني ماقدرش أوعدك، عشان أنا مش عارف إذا كنت هقدر أعمل كده ولا لأ..

ثم مازحته قائلًا:

-سيبها على الله بس وماتقلقش.. عاوزك موت وإنت متطمن!

## (١٥)

هرم "كالفن" ويئِس من إنجاب الوريث، وفشل طوال السنوات الماضية في إيجاد شخص يثق به، فلم يعد يفكر في جاهٍ أو مال أو حتى خلود اسمه، كل ما فكر فيه كان أن يجد من يحفظ سره ويرضى أن يبعثه بعد موته، ولمّا يُبعث سيكون أمامه الكثير من الوقت فيفعل ما يحلو له، وسوف يصبح حديث الناس ومعجزتهم.

فكر كثيرًا، حتى قرر أخيرًا أن يخبر "بادجيا" ، الذي كان في ذلك الوقت قد تخطى حاجز الستين من عمره. وقرر "كالفن" أن يأخذ عليه عهدًا بمحاولة تجربة تعويذة إحياء الموتى على قبره بعد أن يموت. وقال لنفسه: ما دمت ميّتًا في حال أخبرته بسري أو لم أخبره، فلن يضيرني شيء إن أخبرته، ومن يعلم، عسى أن يفي بالعهد، ويبعثني.

ولم يستطع صبرًا حتى الصباح، كان خائفًا إن أعاد التفكير في الأمر مرة أخرى، أن يعدل عنه. فذهب من فوره إلى "بادجيا" وحكى له الحكاية كاملة، باستثناء الجزء الخاص بتركه يغرق لكي يجرب تعويذة إحياء الموتى عليه. وكان "بادجيا" يثق به ثقة عمياء، فلم يكذبه، فما عهد سابقًا عنه الكذب قط.

اطمأن "كالفن" وارتاح - إلى حد ما- من عناء التفكير في أمر بعثه، وبدأ يعد العدة والخطط فيما سيفعل بعد البعث.

فكّر في استخدام كل المعطيات لصالحه، حتى فكرة خروجه من القبر، قرر أن تكون بشكل مسرحي. فاتفق مع "بادجيا" أن يتركه، بعد أن يقرأ تعويذة إحياء الموتى على قبره، ثم يذهب إلى الناس ليخبرهم بخبر معجزة العائد من القبر،

ولا يعود إلا وقد جمع أكبر عدد منهم. سيكون وقتها "كالفن" قد بعث من موته، ومختبئًا بجوار القبر. فإذا ما رآهم قادمين، نزل إلى قبره وأهال عليه بعض التراب، حتى يصبحوا بالقرب منه، فيقف فجأة أمامهم. وبعد ذلك إن قال لهم إنه مبعوث الرب سيصدقونه دون شك.. بل إن قال لهم إنه الرب نفسه، لن يكذبوه!

ظل "كالفن" يتعجل الموت من سن الثمانين حتى وصل المائة، في تلك العشرين عامًا فكر كثيرًا في الانتحار، ولكنه خاف أن يحدث ما لا تحمد عقباه، مثل أن يخون "بادجيا" العهد، أو حتى يحاول استخدام التعويذة ويفشل، فيكون وقتها "كالفن" قد قتل نفسه سدى.

عندما تخطى "كالفن" حاجز المائة عام، شعر بأن النهاية قد اقتربت، فأحضر التعويذة وقام بتحويل نطق كلماتها من لغة اليهود الآرامية، إلى اللغة القبطية، لغة المصريين آنذاك. ثم بعد ذلك جلس مع "بادجيا" يقرأ عليه النطق الصحيح للكلمات إلى أن أحفظه إياها عن ظهر قلب، فسلمه التعويذة وطلب منه أن يبقيها بحوزته، وألا يطلع أحدًا على سرها مهما حدث. ثم مات "كالفن" قبل أن يتم العام الأول فوق المائة بقليل.

مات أبي مع بداية الشهر الأول من العام ٢٠١١ وكان يأمل أن أعيده فيعيش بين الناس على أنه مبعوث الله، أو على أقل تقدير يعتبرونه وليًا من أولياء الله الصالحين، مثل جده "الحي"، ولم لا يعتبرونه المهدي المنتظر حتى؟

لماذا يريد أبي وجيله، أن يأخذ زمنه وزمن غيره؟

إنه حقًا جيلٌ عجيب، تعوّدوا على الرضا بالظلم والخضوع ودفن رؤوسهم في الرمال كالنعام. وزرعوا فينا تلك العادات، فربّونا على السمع والطاعة دون تفكير، كأننا في وحدة عسكرية، ورغم كل هذا الظلم، إلا أنهم متمسكون بحياة الذل تلك إلى أبعد مدى!

انتهى عمرك عند هذا الحد يا أبي.. فلماذا تريد أن تعيش أكثر من ذلك؟ ماذا قدمت في الخمسين عامًا الماضية من حياتك حتى تستحق حياة جديدة؟ وإذا عدت للحياة وأعطيتك فرصة ثانية.. بماذا ستفيد البشرية؟ تريد أن تعود كي يمجدك الناس ويبجلوك ويخلدوا ذكراك؟ لكن إلى متى؟ إلى متى تخلّد ذكراك يا أبي وكل شيء إلى زوال؟ لا يوجد خلود، فإن حدث وعشت طوال الحياة، فستنتهي حياتك حتمًا، بانتهاء الدنيا كلها يوم الدينونة.

لهذا السبب، وأسباب أخرى كانت تُعتمل في نفسي، لم أحاول حتى أن أجرب أن أبعثه من موته، وقررت أن أستخدم تلك التعويذة في نهضة بلدي والوطن العربي كله. فما وُجدت تلك التعويذة إلاّ لهذا الاستخدام. نعم إنه الاستخدام الأمثل لها، لكن عائلة "الحي" لم تكن تعي ذلك. أمّا الآن.. فلابد من إعادة الأمور إلى

نصابها الصحيح.

بعد انتهاء مراسم المأتم وانصرف المعزّون، قررت الاختلاء بنفسي لكي أرتب أوراقي وأعرف من سأبعث، ومن أين سأبدأ..!

## (١٧)

لما حكى "كالفن" لـ"باديجا" قصة تعويذة إحياء الموتى، أضاء جزء من عقل الأخير، ورأى مشهد إنقاذه يعاد أمام عينيه مرة أخرى، ولكن بطريقة مختلفة، ومن زاوية تصوير جديدة. فقد كان "باديجا" يعافر أمواج الغرق على أمل أن ينقذه "كالفن"، الجالس على الشاطئ بالقرب منه. وهيأ إليه أنه رأى "كالفن" يسبح باتجاهه داخل النهر فصارع الأمواج أكثر لمّا زادت احتمالات نجاته. ولكن فجأة، رآه يتوقف، ثم يعود أدراجه، ويهرب بعيدًا عنه! فاستسلم في يأس، ولم يشعر بشيء إلا وهو يفتح عينيه على وجه "كالفن"، بعد أن أنقذه...

أنقذه؟ لا لم ينقذه. لقد تركه يغرق لكي يجرب عليه تلك التعويذة، وقد جاءته الآن الفرصة لينتقم. فقط عليه أن ينتظر حتى يموت "كالفن"، فيأخذ منه تلك التعويذة ولا يستخدمها عليه.

وهذا ما حدث، لم يجرب "باديجا" تعويذة إحياء الموتى على "كالفن". بل أعطاها لابنه وقص عليه قصتها وأضاف إليها قصة "كالفن". وهكذا.. انتقلت التعويذة من ابنه إلى ابنه إلى ابنه، وكل هؤلاء كانوا يستخدمونها في هدوء وتكتم، حتى وصلت إلى جدي "الحي"، الذي أحدث ضجة كي يخلد اسمه، واعتقد أنه من كتب ذلك "الكتيّب" الذي أورثنا إياه مع التعويذة.

سأتوقف قليلًا عن الكتابة، لأريح جسدي المرهق أصلًا بطبيعة الحال.. ولترتاح أنت الآخر قليلًا!

فانتظرني...

## (١٨)

عصر يوم الخميس ٢٧ يناير، انتهت فترة عزلتي، وقد توصلت إلى أن أكثر ما ينقصنا كعرب هو أن نتحد. ولكن كيف سنتحد وبيننا ما بيننا من مشاحنات ومشاكل لا تنتهي؟

تلك التي يفتعلها الصهاينة بمساعدة الأمريكان، لكي نظل مُتفرقين. لو كان بيننا "ناصر" الآن لكان... مهلًا.. ماذا فعل "ناصر" أصلًا في حياته غير القمع وتصفية معارضيه، بالسجن والتعذيب والقتل أحيانًا؟ ولكنه أكثر من استطاع أن يوّحد الأمة العربية في الآونة الأخيرة.. لم يأت بعده من استطاع لمّ شملنا مثله. فماذا عمّن كانوا قبله؟! التاريخ ممتلئ بنماذج لأبطال استطاعوا أن يوحدوا ونجحوا. على الأقل عبد الناصر فشل في الاستفادة من تلك الوحدة التي صنعها على حساب دماء البعض. أما من سبقوه فمعظمهم نجح.

"إخناتون"، الذي حارب الكهنة وجمع الناس على عبادة الإله الواحد. "أحمس" البطل الهمام الذي طرد "الهكسوس" أيستطيع إن بعثته، أن يطرد "اليهود" ويحرر القدس؟

مهلًا.. كيف غاب عن فكري "صلاح الدين الأيوبي"؟ إنه أنسب شخص لتلك المهمة.. مهمة لمّ شمل العرب وتحرير القدس.. ألم يحرر صلاح الدين القدس فيما مضى؟ إذن.. فتلك هي خطوة البداية!

مع حلول المساء، رسخت في عقلي ضرورة استخدام تعويذة إحياء الموتى على قبر "صلاح الدين الأيوبي"، ولما كنت لا أعلم مكان رفاته، فقررت أن أذهب

صباح اليوم التالي، لأشتري مودم للحصول على الإنترنت عن طريق إحدى شبكات المحمول، كي أستخدم شبكة الإنترنت في البحث عن المكان الموجود فيه قبر "صلاح الدين".

كنت قد ضقت ذرعًا بالعزلة، واشتقت لحديث الناس، فخرجت أمشي الهوينى في شوارع القرية. كان الشارع خاليًا كمعظم الليالي، رأيت شخصًا قادمًا عن بعد، ولما اقترب اكتشفت أنه أحد أصدقائي. تحدثنا كثيرًا، وصدمت حين علمت منه أن هناك مظاهرات منذ يومين بالقاهرة، وامتدت حتى اجتاحت كل المدن العظمى بمصر. كنت في حاجة لمزيد من المعلومات، ولما كان بيتنا في فترة حداد، يُمنع فيها فتح التلفاز، فذهبت معه إلى منزله، لكي أتمكن من مشاهدة تطورات الأحداث على جهاز التلفاز الخاص بهم.

لم أكن أحب مبارك، ولم أكن أكرهه، ولكني تعاطفت معه عندما شاهدت المصائب التي تقع على أيدي هؤلاء العملاء المُموّلين، ولما رأيت جنود الداخلية يرشونهم بالمياه، تمنيت لو أن الماء الخارج من تلك الخراطيم، هو ماء نار يحرقهم حتى تذوب جلودهم، فنستريح منهم وتهدأ الأوضاع، بعد أن ينالوا جزاءهم. يجدر بهؤلاء "العيال" أن يوجهوا غضبهم ذلك ناحية الصهاينة، ولكن كيف يحدث ذلك، والصهاينة هم من يموّلونهم؟

قبل انصرافي من بيت صديقي، علمت منه أن صديقنا الثالث "محمد أمين"، موجود منذ أول يوم داخل ميدان التحرير، وأنه علم بتلك المظاهرات عن طريق الإنترنت، وقد حاول جاهدًا تجنيد شباب القرية، ليذهبوا معه للمطالبة بحقوقهم المزعومة، ولما باءت محاولاته بالفشل، ذهب بمفرده!

في طريقي من منزل صديقي إلى منزلي، حدثت نفسي: أيعقل أن يكون "محمد أمين" قد أصبح عميلا هو الآخر؟ وكيف تم تجنيده؟

كنت قد علمت من أبي، رحمه الله، أن "محمد" هو الوحيد بالقرية الذي يتعامل مع الإنترنت.. إذن، فقد تم تجنيده من خلال الفيس بوك. ولكن لو كان الأمر كذلك.. فلِمَ جندوه وتركوني وأنا أيضًا من مستخدمي الإنترنت! أيكونون قد جندوه في الفترة التي انشغلت فيها بمرض أبي ثم وفاته؟ فأنا في تلك الأثناء لم استخدم اللاب توب مطلقًا. هذا التفسير هو الأقرب للمنطق، لقد أصبح "محمد أمين" عميلًا لإسرائيل وإيران كما يقول الإعلاميون..

إسرائيل وإيران! كيف؟

رزقت بعقل يستطيع أن يصدق خروج الشمس من المغرب - فقد صدّق قصة تعويذة إحياء الموتى- لكن أن تجمع بين إسرائيل وإيران، مصلحة واحدة، هذا أمر غير قابل للتصديق!

ما هذا العبث؟ أيعقل أن يكذب الإعلاميون؟

فماذا عن الضيوف؟ أيكذبون أيضًا؟

أخرجت هاتفي واتصلت بـ "محمد أمين"، وما أن انتهت محادثتنا السريعة، حتى تغيرت قناعاتي تمامًا. كيف تحول "محمد أمين" من الشاب الفلاح المراهق، إلى ذلك الشخص الواعي الذي تحدث معي قبل قليل؟ لولا عشرتنا التي جعلتني قادرًا على تمييز صوته، لشككت أن محدثي شخص غيره. كنت فخورًا بما وصل إليه صديقي، فرحًا بذلك التغيير الذي جعل من عقله المراهق عقل بطل، ولكن كانت في قلبي غصة لأنني ما زلت "محلك سر".

علمت من "محمد" أنه ورفاقه يحشدون غدًا لمظاهرات تتحرك من جميع ميادين مصر، عقب صلاة الجمعة.. فقررت أن أصلي الجمعة في دمنهور، وأشارك "محمد" ورفاقه حلمهم، من ميدان الساعة.

لما وصلت إلى المنزل، دخلت حجرة والدتي لأطمئن عليها، فوجدتها قد فرغت لتوها من الصلاة، وجلست على "المصلية" تدعو لي بالستر والرضا، وأن يجعل الله لي في كل خطوة سلامة. قبّلت يدها ورأسها، ثم ذهبت إلى حجرتي، فغيرت ملابسي وارتديت عباءة النوم، وفردت ظهري فوق الفراش، ناظرًا إلى سقف الحجرة، أتحايل على الأفكار التي تدور برأسي عسى أن تتركني فيأتيني النوم. كان أكثر الأسئلة إلحاحًا على عقلي، سؤال بخصوص "محمد أمين": كيف استطاع عبر مكالمة هاتفية استغرقت بضع دقائق، أن يُمحي من رأسي ما سمعته من الإعلاميين وضيوفهم في ساعات؟

## (١٩)

لا أعرف متى نمت أو كيف؟ ولا كم مر عليّ من وقت وأنا نائم؟ كل ما أعرفه هو أنني استيقظت على صوت ضجيج آتٍ من خارج المنزل. نهضت مسرعًا لأتفقد الأحوال، ولما فتحت باب المنزل، وجدت شوارع قريتنا الهادئة والمفترض أنها خالية من البشر، تعج بأناس كُثر، يقودهم "محمد أمين" وهم وراءه يهتفون!

مشيت في أثرهم مشدوهًا، حتى إني لم ألق بالًا لقدميّ الحافيتين. كانوا يسيرون خلفه مرددين وراءه ما يقول، وكان يعلم وجهته جيدًا. حاولت أن استفسر عن وجهتهم، فلم يلتفت إليّ أحد فواصلت السير خلفهم حتى وصلنا إلى مسجد القرية الكبير. توقف الاثنان اللذان يحملان "محمد أمين"، فوقفنا جميعًا، كأننا قطار، و"محمد أمين" هو محركه. التفت إلينا ببطء، ثم نظر مباشرة في عيني وتبسم. حوّل نظره تجاه مئذنة المسجد، ثم استدار وأعطانا ظهره مرة أخرى، ومضى مكملًا طريقه ونحن نتبعه.

فجأة ظهر أمامنا منزل العمدة، يلتف حوله الخفر الذين ما أن رأونا حتى أطلقوا النار علينا، فكان أول من سقط، "محمد أمين"، صريعًا، إثر طلقة رصاص اخترقت معدته. حملته على كتفي ورجعت به إلى منزلي. وضعت جسده على الأريكة داخل "المندرة"، وأخذت أبحث عن التعويذة لأنقذه، وأجربها عليه "بالمرة"، ولكني لم أجدها. وللغرابة، نسيت أين كنت أضعها. رجعت إليه فوجدته جالسًا على الأريكة يشاهد التلفاز ويضحك على كلام المذيعين وضيوفهم. أمعنت النظر فيه، فلم أجد آثارًا للدماء التي تجمعت فوق قميصه

بعد إصابته.. ولما اقتربت منه أكثر، لأتفحص موضع الجرح، قال:

-ما تخافش عليا، عمر الشقي بقي، واللي زيي مش بيموتوا، ولو ماتوا مش تعويذتك هي اللي هتصحيهم.. لا، اللي هيصحيهم إنك تجيب حقهم.. ما تسيبش حقي يا "مدحت".. ما تسيبش حقي يا صاحبي!!

تعجبت.. كيف علم بأمر التعويذة؟ وما هو حقه الذي يوصيني بألا أتركه؟ هممت أن أسأله ولكن أخرجني من حلمي، صوت رنة منبه هاتفي، فاستيقظت لأجدني غارقًا في عرقي، رغم أننا في عز الشتاء!

ما هذا الحلم العجيب؟ لم تكن تلك المرة الأولى التي أحلم فيها بالتعويذة، فمنذ أن حدثني عنها والدي، لا تكاد تمر ليلة إلا وأحلم بها. لكنها مرتي الأولى التي أرى فيها حلمًا بهذا الترتيب والتسلسل، كأنه مقتطفات من فيلم، بطله "محمد أمين"! تملكني القلق عليه، فأخرجت هاتفي لأحدثه، ولكني لم أجد أية إشارة للشبكة! تركت الهاتف، وأخذت هلعي وقلقي وذهبت إلى دورة المياه. أتممت طقوسي الصباحية التي اعتدت عليها، منذ كنت أعيش بالإسكندرية "دش ساقع حتى في فصل الشتاء، وفنجان قهوة مضبوط على صوت وردة".. وبالطبع حالت حالة الحداد، دون سماع صوت "وردة" أو أية أغنيات أخرى، فأتممت الطقوس على صوت المقرئ "علي الوكيل" المنبعث من هاتفي المحمول، ثم ارتديت ملابسي وغادرت المنزل، متجنبًا ملاقاة والدتي.

## (٢٠)

صلينا الجمعة في جامع "التوبة"، أحد أكبر مساجد دمنهور، ثم خرجنا في حشود، متجهين نحو ميداننا الصغير، ميدان الساعة. كانوا يهتفون وأنا أردد خلفهم بصوت مرتعش قلقًا وهلعًا، ثم بدأ قلبي يطمئن تدريجيًا مع توافد الناس على مسيرتنا وزيادة أعدادنا. ومع وصولنا الميدان، كان قد اختفى خوفي، ووصلت شجاعتي مداها، وبلغ صوت حنجرتي عنان السماء. فأصبح صوتنا معًا يرج الأرض تحت أقدامنا رجًا. عزلني صوت الهتاف عن العالم من حولي، حتى إني لم أسمع صوت الرصاص الذي أطلقه جنود الأمن المركزي على مسيرتنا. لم أصحو من حلم الشجاعة هذا، إلا على حركة الناس وتدافعهم من حولي.

كنت أركض مع الراكضين، وأدوس بقدمي أشلاءً آدمية وجثثًا لأناس أعرف وجوههم، حتى جثمان رفيقي الذي تعرفت عليه قبل قليل، والذي أسقطته رصاصة طائشة، بعد أن كان يركض أمامي قبل ثوانٍ، لم يسلم من صفعة قدمي. عاشوا شجعانًا وماتوا شجعانًا. أما أنا، فكنت التعريف المثالي لكلمة "جبان" كنت المادة الخام "للجبن". كانوا يبتعدون عن مرمى نيران القوات الغاشمة، ويختبئون في الحارات والشوارع الجانبية، وأنا معهم.. معهم في الابتعاد والهرب، لكن حينما يعاودون هجومهم، كنت أهرب خوفًا! لم أحتمل ادعاء الشجاعة فانسحبت عائدًا إلى قريتي، حيث الهدوء والأمان.

## (٢١)

بالطبع، كان لِما رأيته في مظاهرتي الأولى، تأثير قوي على شخصيتي. تأثير كفيل بمحو كل الشكوك التي زرعها بداخلي إعلامنا الحر!

لمّا وصلت على مشارف القرية، لاحت في الأفق تجمعات بشرية، لم أشاهد مثلها بقريتنا إلا في الأفراح أو المآتم.. وفي حلم الأمس أيضًا! على ذكر المآتم، وحلم الأمس بصديقي، جال بخاطري أنهم مجتمعون لأن خبر موته وصلهم، فهرولت إليهم. وعندما اقتربت ورأيت أن أغلب الموجودين من آل "أمين"، ارتعد قلبي، فأسرعت حتى وصلت إليهم. واطمأن قلبي قليلًا لما علمت أن سبب تجمعهم هذا هو قلقهم على نجلهم وليس موته.

جلست على الأرض مستندًا بظهري لجدار الدار أستريح، وتدريجيًا أخذت أنفاسي تنتظم حتى أصبحتُ أتنفس بشكل طبيعي، فبدأت أركز أكثر فيما يقولون. كانوا يفكرون في طريقة يصلون بها إلى "محمد".. ولما عرضت عليهم أن أسافر إليه في القاهرة، رفضوا بالإجماع، وقالوا إنهم لا يريدون المخاطرة بأي شخص آخر. ألا يكفينا غياب واحد، حتى نخاطر بالثاني؟

كانت ليلة طويلة على جميعنا، وفي الصباح عادت الشبكات للخطوط، فعادت الهواتف للعمل، فهاتفنا "محمد" وكنت أشعر بأنه لن يجيب، ولكنه رد. حدثته والدته، وكانت تبكي وهي تترجاه: "أبوس إيدك ترجع يا قلب أمك"، تبكي وهي تعنفه "إنت مضحوك عليك يا ابن بطني.. الناس في التلفزيون بيقولوا إن اللي معاك دول تبع إسرائيل وأمريكا".. "كدابين إزاي بس؟ هو فيه حد بيطلع في

التلفزيون كداب؟ وبعدين هو التلفزيون هيجيب ناس كدابين ليه!"، وتبكي وهي تمازحه "طيب تعال وهدبحلك دكرين بط يرمّوا عضمك، ويخلوك تضرب عشرين راجل من اللي بيرموا عليكم قنابل دول".

ولما انتهت المكالمة، قالت لوالده وهي لا زالت على بكائها "ابنك عاوزني أصدق إن اللي في التلفزيون ده كدب.. هو ينفع يا حاج أصدقه وأكدّب التلفزيون؟"

ضحكنا. فينا من كان يضحك على سذاجتها. ومن كان يضحك على سذاجته هو. ومن كان يضحك فرحًا بسلامة "محمد".. وانصرفنا كلٌ إلى داره. فقد كنّا في أمسّ الحاجة لبعض النوم والراحة، بعد ساعات التعب المتواصلة تلك.

## (٢٢)

أدّى تصاعد الأحداث السياسية، إلى جعلي أنسى أمر تعويذة إحياء الموتى، وبعث "صلاح الدين" وتحرير القدس... إلخ. ولما عاد "محمد أمين" منتصرًا، عقب تنحي "مبارك"، فكرت كثيرًا أن أخبره بذلك الأمر وأطلب منه مساعدتي فيما أنتوي فعله.. ولكني كنت أتراجع دائمًا في اللحظات الأخيرة، آملًا أن تنهض مصر أخيرًا وتتحد مع تونس التي حصلت على استقلالها قبلنا. حتى ليبيا دخلت في الأحداث مؤخرًا. من يدري، لعلنا نتحد سويًا دون الحاجة إلى معجزات!

كنت سعيدًا بنشوة ذلك الانتصار المفاجئ، الذي أعطاني جرعة أمل مكثفة كنت بحاجة إليها. وأصبحت أمكث معظم الوقت مع "محمد أمين" نتحدث في أمور السياسة التي أصبحت مهتمًا بشأنها، وأفهم فيها أكثر من "تركيب الدش". كنت متفائلًا بالغد، حتى إنني فكرتُ أن أتخلص من تلك التعويذة نهائيًا، إلى أن حدث ما جعلني أتراجع عن قراري.

أول جمعة من شهر مارس ٢٠١١ بعد صلاة العصر، ذهبتُ أنا و"محمد أمين" إلى بيت سيادة اللواء "حمدي العيسوي"، وهو لواء متقاعد. خرج على رتبة عقيد، وأعطوه عميدًا كرتبة شرفية، ومن باب التقدير أعطاه الناس رتبة لواء!. كنا وقتها في فترة "الجيش اللي حمى الثورة"، قبل أن يأخذ قادة الجيش، عيون شباب الثورة. وكنا نعتقد أننا بذهابنا إلى منزل سيادة اللواء، نرد جميل الجيش علينا. استقبلَنا سيادته بترحاب شديد، وأجلسنا في "التراس" المطل على حديقة منزله الريفي على أطراف قريتنا.. بدأنا بالحديث عن أخبار الأهل

والجيران، واسترسلنا في الأحاديث حتى أخذتنا الكلمات إلى التحدث عن الثورة، فقلت له:

- بس طنطاوي ده دكر يا سيادة اللوا.. ربنا يحرسه ويحميه.

فرد بكل حياد:

- إيه اللي خلاك تقول كده؟

- اللي عمله، كفاية إنه وقف في صف الثورة والثوار...

قطع حديثنا دخول ابنته وكانت تحمل صينية الشاي.. أذهلني جمالها، لم أر مثيلًا لهذا الجمال طوال حياتي، عينان بنيتان واسعتان كعيون البقر، تعلوهما نظارة رقيقة، تزيد من جمالهما، وتزيد وقارها وقارًا.. مع وجنتين حمراوين خجلًا، أو هذه طبيعتهما، وفي منتصف كل وجنة حفرت "غمازة" ظهرتا حينما ابتسمت، وأنف دقيق متناسق مع حجم فمها الصغير كأفواه الأطفال.

نسيت وجود سيادة اللواء ونسيت أنني في بيته، وركزت نظري على وجهها، مرغمًا، فقد كان وجهها كمغناطيس، جذب ننّ عيني. ولم ينقذني من سحرها سوى "محمد أمين" الذي تنحنح، ولكزني بقدمه أسفل الطاولة الموضوع عليها أكواب الشاي، فأفقت من شرودي على صوت سيادة اللواء يقول:

- كمل يا "مدحت"..

نسيت ما كنا نتحدث عنه، بل نسيت أن اسمي "مدحت"، لولا أن سيادته ذكر اسمي في جملته الأخيرة. تلعثمت، واحمرّ وجهي، ثم رددت أخيرًا:

- بس خلاص!

ابتسم، وتناول كوب الشاي من فوق المنضدة أمامه. رشف رشفة، ثم أعاده مرة أخرى إلى حيث كان، قبل أن يقول بتمهل:

– الشباب دول نزلوا يهتفوا يوم كام؟

– ٢٥ يناير.

– ومبارك اتنحى يوم كام؟

– ١١ فبراير.

– فيه كام واحد ماتوا خلال الـ ١٨ يوم دول؟

– آلاف.

– والجيش كان فين والآلاف دي بتموت؟!

صمتّ حائرًا، فاستأنف:

– الجيش كان فين ومدرعات الداخلية بتدوس المتظاهرين؟!

نفس الصمت مرة أخرى:

– سيبك من ده كله.. الجيش كان فين يوم موقعة الجمل؟! طيب فين البلطجية اللي المتظاهرين مسكوهم وسلموهم للجيش؟

رد "محمد أمين" بنفاد صبر:

– حضرتك عاوز تقول إيه يا سيادة اللوا؟

رشف رشفة أخرى من كوب الشاي وقال:

- عاوز أقولكم إن طنطاوي ابن مبارك، ولولا إنه لقى مصلحته مع الثوار، مكنش أخد صفهم، بدليل إنه فضل ١٨ يوم مش عارف ياخد قرار.. وغالبًا طنطاوي هيحكم البلد.. وبكرة - لو عشت لبكرة- هتقولوا سيادة اللوا قال!

دخل "محمد أمين" في جدال مع سيادة اللواء حول ما قاله، بينما دخلت أنا في جدال مع قلبي حول ما رأيته، وبالتالي لم أستمع إلى شيء مما قالاه -"محمد" واللواء- ولكني استنتجت، عند انتهاء الجلسة، أن اللواء هو الذي انتصر، فقد استطاع أن يقنع "محمد" برأيه ووجهة نظره، بحكم قربه من المؤسسة العسكرية، فكما يقولون: "أهل مكة أدرى بشعابها".

في الطريق إلى منازلنا، سألت "محمد" بطريقة غير مباشرة عن اسم ابنة سيادة اللواء، وعلمت منه أن اسمها "ندى"، وتدرس التاريخ في كلية الآداب، واختتم كلامه بأن نصحني أن أصرف النظر عما يدور بخلدي. وبعد أن جمعت كل المعلومات المتوافرة عند "محمد" عنها، استأذنته وانصرفت عائدًا إلى بيتي.

وجدت والدتي جالسة على عتبة الدار، تقتل الوقت بالحديث مع جارتنا المقربة لها، وكنت في حاجة ماسة لأن أختلي بنفسي لبعض الوقت، فألقيت سلامًا عابرًا على السيدتين، ودخلت حجرتي.

فتحت اللاب توب وأوصلت به سماعات الأذن الخاصة بهاتفي المحمول، كي لا يخرج صوت الأغاني في أيام الحداد، ثم وضعت في قائمة التشغيل، أغاني "كاظم وحليم وسوما ونجاة"، ووضعت السماعتين في أذنيّ، ثم أغلقت شاشة اللاب توب على لوحة مفاتيحه، وبعد أن وضعته جانبًا، استلقيت على ظهري،

مستمتعًا بصوت "حليم" وهو يقول: "مشتاق لعينيك مشتاقلك.. مشتاق وأنا لسه مقابلك". كانت الكلمات تتسلل داخلي، فتلتحم مع ذرات روحي، مكونة في النهاية، صورتها التي انطبعت داخل قلبي من النظرة الأولى.

فكرت في الطريقة الأمثل للوصول إلى قلب أميرتي، تلك التي تسكن القصور، وأنا الشاطر حسن الفقير.. الحقيقة أنا لا شاطر ولا كنت حسنًا أبدًا، فكيف أصل إليها إذن!، وأنا تعليمي متوسط، بينما هي ذات التعليم العالي.. أنا ابن الدجال وهي ابنة سيادة اللواء؟ عملية الوصول إليها تحتاج معجزة. كنت كلما ذكرتُ أو ذُكر أمامي، لفظة "معجزة" جالت بخاطري على الفور "تعويذة إحياء الموتى". ولكن كيف أستطيع باستخدام تلك التعويذة، أن أصل لهذه الأميرة التي أسرت فؤادي وسيطرت على تفكيري؟

فكرت في بيعها إلى شخص ثري، أو بيعها إلى أكثر من شخص. وذهب تفكيري إلى أبعد من ذلك كله، عندما فكرت أن أستخدمها كما أراد أن يستخدمها والدي! ولكني انتبهت لنفسي وأنا أفكر بتلك الطريقة، كيف ينقلب مجرى تفكيري رأسًا على عقب بهذا الشكل؟ أيجعلني الحب أخون مبادئي؟

حب؟! أي حب هذا الذي لم يتعد عمره دقائق؟ حتى إن كان حبًا، فكيف يجعلني الحب أخون مبادئي فأكره نفسي؟

أعيتني الحيلة وتعبت من التفكير، دون أن أصل إلى نتيجة، النتيجة الوحيدة التي توصلت إليها، هي أنه يتوجب عليّ الإبقاء على التعويذة بحوزتي. شعرت بأنني بحاجة إلى بعض النوم، فأغلقت اللاب توب، وأخرجت رواية، أهرب من الواقع بين فصولها. وظللت أقرأ فيها حتى نمت.

## (٢٣)

تواترت الأحداث المؤسفة، وتحوّل الأمل بداخلي إلى يأس، فحمدت الله أنني لازلت أحتفظ بالتعويذة. قررت ألا أستخدمها في الوصول لـ "ندى"، أو لأية مآرب شخصية أخرى. فقد حان وقت خدمة بلدي ورفعة شأن وطني.

فتحت اللاب توب، وبدأت البحث عن المكان المتواجد به قبر "صلاح الدين الأيوبي". كتبت في "جوجل" (أين يوجد قبر صلاح الدين؟) انتظرت دقائق بسبب بطء الإنترنت عندنا، وبعد ذلك ظهرت عدة نتائج، علمت منها أن جثمان "صلاح الدين" متواجد داخل المسجد الأموي بدمشق. ذهبت على الفور إلى والدتي، وأخبرتها كذبًا، أنني سأعود إلى الإسكندرية قريبًا، حيث إن عملي متعطل، ولابد أن أسافر في أقرب وقت. لم يبدُ عليها الاقتناع، لكنها لم تكن لترفض، بسبب سوء الأوضاع المادية، وحاجتي إلى الزواج -حسب تفكيرها- فوافقت على مضض.

صباح اليوم التالي، قابلت "ندى" وأنا في طريقي إلى "القرية الكبرى" التابع لها قريتنا وجاراتها من القرى الصغيرة الأخريات. كنت قاصدًا مكتب البريد، لأسحب بعض النقود لزوم مصاريف السفر، وكانت هي على ما يبدو ذاهبة إلى جامعتها وتنتظر سيارة بجوار كوبري القرية المجاورة لقريتنا، التي نمر عليها كلما أردنا ركوب سيارة. اقتربتُ منها وألقيت السلام، فتوردت وجنتاها وردت وعيناها في الأرض خجلًا. وقفت بجوارها صامتًا، حتى قدِمت سيارة "سرفيس"

- التغيير الإيجابي الوحيد الذي حدث في حياتي بعد الثورة، هو استبدال

سيارات النقل ذات "التقفيصة" الأشبه بالبوكس، بالسرفيس- فركبتُ وركبت "ندى" إلى جواري ثم أخرجتُ جنيهين ودفعتُ الأجرة لي ولها، فتمتمت بكلمات شكر بالكاد سمعتها. قبل وصولنا إلى "القرية الكبرى" ونزولنا من السيارة، سألتها عن وجهتها فقالت إن عندها محاضرة مهمة بجامعتها بدمنهور. فكذبتُ وقلتُ إنني أيضًا في طريقي إلى دمنهور.

نزلنا من السرفيس، ومررنا في طريقنا بمكتب البريد، المفترض أنني كنت سأذهب إليه، قبل أن أقابل "ندى". مشينا حتى وصلنا موقف السيارات المتجهة إلى دمنهور ولمّا ركبنا إحداها، حاولت أن أتحدث معها في أية مواضيع، لكني فشلت بسبب حيائها، فآثرتُ السكوت.

أخذت قلبي ونزلتْ قبلي، أمام مبنى "كلية الآداب"، بينما أكملت أنا الطريق مع رائحة جسدها التي خلفتها مكانها، وابتسامة بلهاء تعلو وجهي لا أقدر على محوها! وصلت إلى موقف دمنهور فركبت سيارة أخرى عائدًا إلى حيث أتيت. واتجهت إلى مكتب البريد، فسحبت كل مدخراتي، التي كانت تقترب من العشرة آلاف جنيه، ثم عرجت بعد ذلك إلى دمنهور مرة أخرى، قاصدًا مديرية الأمن، لإنهاء إجراءات الحصول على جواز السفر.

وفي اليوم التالي، خرجت في نفس الموعد، على أمل أن ألقاها مرة أخرى، ولكن ذلك لم يحدث. كنت أشتاق إليها، وأرهق قلبي الحنين، فتحججت بسفري وذهبت إلى والدها في المساء، طالبًا مساعدته في إنهاء إجراءات جواز سفري. وفي غضون عشرة أيام – قضيتها بين انتظار "ندى" على كوبري القرية المجاورة لقريتنا، وبين الذهاب لبيتها حيث حجة مساعدة والدها لي- استلمت جواز سفري. فتحججت بحجة أخرى، وطلبت من والدها مساعدتي

في إنهاء إجراءات السفر إلى سوريا، وظللت أتردد على بيتها حتى أنهى والدها الإجراءات. ترجيته ألاّ يخبر أمي بأمر سفري إلى دمشق، فوافق بعد أن عاهدته ألا تطول فترة غيابي عنها.

يوم السبت ١٩ مارس كان يوم التصويت على دستور "طنطاوي"، وفيه وضحت الرؤية تمامًا: المرحلة المقبلة، مرحلة تحالف الجيش مع الإسلاميين، للقضاء على الباقين "الليبراليين والعلمانيين" أو للقضاء على الثورة!

في اليوم التالي، وبعد ظهور نتيجة الاستفتاء مباشرة، ذهبت وحجزت تذكرة الطيران، تأهبًا للرحيل، وتحدد سفري بعد أسبوع، أي يوم الأحد الموافق ٢٧ مارس. كنت كلما اقترب موعد الرحلة، أصبحت أكثر قلقًا وتوترًا، بسبب اقتراب استخدامي لتلك التعويذة. في الحقيقة، منذ أن علمت بقصتها، وقد تغير حالي، يكفي أنه لا تمر ليلة إلا وأحلم بشيء متصل بها – التعويذة – باستثناء الفترة الأخيرة التي أعقبت ظهور "ندى"، فقد انضمت هي الأخرى إلى أحلامي بشكل شبه دوري، بعد أن تلاقينا "مصادفة" عدة مرات.

حان موعد الرحلة، فجاء الأصدقاء والجيران لتوديعي، معتقدين أنني سوف أذهب بالإسكندرية عامين، كما فعلت سابقًا. ولما انصرفوا وبقيت أنا وأمي وحدنا، أخرجت جزءًا من المبلغ المتبقي معي وتركته بحوزتها، ثم تركتها بحجة أنني أريد أن أريح جسدي، الذي ينتظره مشوار شاق غدًا. ودخلت حجرتي، فاستلقيت على فراشي أستمع إلى صوت دعائها القادم من خارج الغرفة. لم أستطع أن أنم تلك الليلة، فظللت أقرأ حتى أذّن الفجر، فقمت وتوضأت، ثم ذهبت إلى المسجد.

كانت تلك مرتي الأولى التي أصلي فيها الفجر بالمسجد، وشعرت براحة نفسية

لم أشعر بها من قبل، فقررت ألا تفوتني بعد ذلك صلاة الفجر في المسجد، إلا للظروف الطارئة.. ولم أكن أعلم وقتها أن كل الليالي، ستمر عليّ وأنا في ظروف طارئة!

رجعت إلى البيت، فوجدت والدتي في انتظاري، واتضح لي، من احمرار عينيها، أنها لم تذق طعم النوم مثلي. ألقيت عليها تحية الصباح، ودخلت حجرتي، فأخذت شنطتي على كتفي، وخرجت.. قبلت رأس أمي ويديها وطلبت أن تكثف دعاءها لي في الأيام والليالي المقبلة، ثم انصرفت مسرعًا كي لا ترى دموعي، أو أرى دموعها.

## (٢٤)

وصلت إلى دمشق مرهقًا، فأخذت سيارة "ليموزين" من أمام المطار، وطلبت من السائق أن يوصلني لأي فندق ثلاثة نجوم، بشرط أن يكون قريبًا من الجامع الأموي. حجزت الفندق، ثم صعدت إلى غرفتي، خلعت ملابسي، وأخذت حمامًا دافئًا، واستلقيت على الفراش. رغم تعبي لم أقدر أن أنام، فظللت أتطلع إلى سقف الغرفة، كما يحلو لي أن أفعل دائمًا. ولكني شعرتُ تلك المرة بالملل، فندمت على أنني لم أحضر معي العود. ولكي لا أستسلم لحالة الملل هذه، أخرجت قصاصة الورق التي سجلت عليها نطق التعويذة، وظللت أقرأ فيها حتى حفظتها، فطويت الورقة، ورددت ما فيها عن ظهر قلب، عدة مرات.. وبعد مرور نحو ساعة، ارتديت ملابس أخرى، غير التي جئت بها من مصر، وغادرت الغرفة ثم الفندق، ومشيت نحو مائة ميل، قبل أن أصل إلى المسجد الأموي.

دخلت من الباب الشرقي، والذي يفتح على صحن الجامع. علمت بعد ذلك أن للمسجد أربعة أبواب "الشرقي والغربي والشمالي، ويُفتحون ثلاثتهم على صحن الجامع، أمّا الباب الرابع، القبلي، فيُفتح على حرم المسجد". أبهرني جمال المشهد، حتى إنني وقفت عاجزًا أمام هذا الإبداع. شكل بنائه جذاب، عكس تقاليد البناء الحالية. هو في واقع الأمر نموذجٌ معماريٌ متجانسٌ، وزخارفه الإسلامية البديعة تنسجم مع البناء. هذا كله بالإضافة إلى رهبة المكان نفسه، جعلني أشعر بقشعريرة تسري في جسدي. ولما تطلعت بعيني للسماء، رأيت ثلاث مآذن. دُرت حول نفسي وأنا ما زلت ناظرًا لأعلى، فوجدت ثلاث قباب. كان المشهد من أروع المشاهد التي رأيتها في حياتي.

تفقدت أرجاء الجامع كلها، حتى وصلت إلى مبتغاي. وكان بجوار القبر المقصود، مقام، أبيض اللون، غالبًا مصنوع من الجبس، أو الخشب الأبيض، لم أتبين حقيقة ذلك، بسبب سياج مكون من سلسلة حديدية، تحيط بالمقام، حالت بيني وبين الاقتراب منه أكثر. أما القبر نفسه، فقد كان خشبيًا، مكسوًا بكسوة من القطيفة الخضراء، وموضوعًا عليه لوحة نحاسية كتب فوقها "القبر الحقيقي الذي يضم الجسد الطاهر للسلطان صلاح الدين الأيوبي" وتاريخ مولد السلطان، وتاريخ وفاته.

من المفترض بتلك الزيارة الأولى، أن تكون زيارة تفقدية، ولكني وجدت بداخلي صوتًا يحدثني بأن أقوم بتجربة التعويذة الآن. جاهدت كثيرًا حتى نجحت في إقناع نفسي بالعدول عما يعتمل بها، واستطعت أن أكبح جموح فضولي الذي كاد أن يقتلني. فغادرت المكان سريعًا، قبل أن تلعب بي الظنون مرة أخرى، ثم رجعت إلى غرفتي في الفندق.

## (٢٥)

بعد مرور أقل من أسبوع على تواجدي في دمشق.. وتحديدًا في يوم السبت ٢ إبريل ٢٠١١. استطعت أن أحدد الوقت المناسب لتنفيذ مهمتي، من خلال المعلومات التي أمدني بها أحد حراس المسجد، الذي صار صديقًا لي، بعد أن تعرفت عليه قبل أيام بسبب كثرة ترددي على المسجد. اخترت الوقت الذي يتواجد فيه أقل عدد من الناس داخل المسجد، وذهبت إلى القبر. ثم قرأت التعويذة، ولكن لم يحدث شيء! كررتها مرة أخرى فلم يحدث شيء أيضًا! ظللت أكررها أكثر من مرة، وكانت النتيجة، في كل مرة، سلبية! شعرت بالإحباط، فقفلت عائدًا إلى الفندق، وجلست في غرفتي أفكر فيما حدث.

كان لابد من التفكير بطريقة عملية، فوضعت جميع الاحتمالات أمامي، وبدأت أبحث فيها عن نسب الخطأ والصواب. وانتهيت أخيرًا إلى ثلاثة احتمالات فأخرجت ورقة وصرت أدوّن فيها:

١. أن يكون نطقي للكلمات فيه خطأ ما، من حيث التشكيل والتنوين.

٢. أن أكون قد أخطأت ونسيت حرفًا أو كلمة أو أكثر من ذلك، حينما كنت أقوم بنقل التعويذة من الكتاب الذي أورثني إياه والدي إلى قصاصة الورق التي معي.

٣. أن يكون والدي يمزح معي، ولا توجد تعويذة بل كلها خزعبلات من خياله.

ثم أمسكت الاحتمالات كلّ على حدة:

١. أن يكون نطقي للكلمات فيه خطأ ما، من حيث التشكيل والتنوين: هذا الخطأ

نسبة الوقوع فيه واردة، لكنها ضعيفة جدًا، خصوصًا أن والدي جلس معي عدة مرات وقرأ على مسامعي النطق الصحيح لكل كلمة حتى أتقنت نطقها كنطقي لاسمي.

٢.أن أكون قد أخطأت ونسيت حرفًا أو كلمة أو أكثر، حينما كنت أقوم بنقل التعويذة من الكتاب الذي أورثني إياه والدي، إلى تلك القصاصة: هذا الاحتمال وارد حدوثه بنسبة كبيرة، ولكن التأكد من ذلك، يتطلب مني العودة إلى مصر، ومطابقة التعويذة الأصلية، على المنسوخة في القصاصة. فقررت تأجيل ذلك الاحتمال، حتى الانتهاء من الثالث.

٣.أن يكون والدي يمزح معي، ولا توجد تعويذة بل كلها خزعبلات من خياله: إن كان الأمر كذلك، ولا أستبعد حدوث مثل ذلك من أبي، فما الدافع الذي يجعل والدي يأتي إليّ خصيصًا لكي يخبرني بكذبة؟

لكي تقبل أن تعود معه يا "مدحت"..!

ولكني كنت سأعود إذا طلب مني ذلك مباشرة.. كنت سأعود حتى إذا لم يخبرني بقصة مرضه، ثم ماذا عن قصة "كالفن" و"لازار"؟ ماذا عن كتاب قرية ظالمة؟ والدي لم يكن ليهتم أبدًا بمثل تلك الأمور، هذا الاحتمال مستبعد كالاحتمال الأول.

فلنعد إذن إلى الاحتمال الثاني: أن أكون قد أخطأت ونسيت حرفًا أو كلمة أو أكثر من ذلك، حينما كنت أقوم بنقل التعويذة من الكتاب الذي أورثني إياه والدي إلى قصاصة الورق، إذا كان هذا صحيحًا، فما معي من مال لا يكفي نفقات الذهاب إلى القاهرة ثم العودة إلى دمشق مرة أخرى، ناهيك عن عودة أخرى

من دمشق إلى القاهرة، سواء نجحت في محاولتي أو حتى فشلت. ولكن كيف لي أن أعرف إذا كان ما في هذه القصاصة يطابق ما هو مدوّن بالتعويذة الأصلية الموجودة في بيتي، دون أن أعود إلى مصر؟ هل أهاتف والدتي، وأطلب منها أن تقرأ التعويذة الأصلية. ولكن هذا يعني أن تدخل والدتي طرفًا في الموضوع، وهذا ما لا أرضاه!

فكرت في "محمد أمين"، فهو صديق طفولتي، ويحمل نفس طموحي وأحلامي، كما أنني كنت سأخبره بأمر التعويذة دون الحاجة إلى ذلك، فما الذي يضيرني إن طلبت مساعدته الآن؟ ولكنه ليس من صلب "الحي"، وماذا فعل من هم من صلب "الحي" بالتعويذة؟ لا شيء غير أنهم عاشوا بضع سنوات إضافية لم يستحقوها. سوف أحدث "محمد أمين". ولم العجلة؟ تريث وفكر في حل آخر.. حسنًا، لكن إذا لم أجد حلًا آخر، لن أصبر.

أغمضت عيني كي أفكر بشكل أفضل.. وبعد موجة عصف ذهني استمرت بضع ساعات، دون الوصول إلى نتيجة. لم يعد أمامي سوى خيارين: إما أن أسافر إلى مصر وأتأكد بنفسي، أو أن يعلم "محمد أمين" بالأمر كله.. خياران أحلاهما مر!

فتحت اللاب توب الذي أتيت به من مصر، ومن متصفح "فايرفوكس"، فتحت موقع "فيس بوك" لكي أقوم بجس نبض "محمد". ولكن بعد أن فتحت الدردشة معه، ترددتُ وتراجعت وذهبت بعلامة الماوس إلى لوجو "فايرفوكس"، في شريط الأدوات، لكي أغلقه. ضغطت على الزر الأيمن للماوس وذهبت بمؤشره إلى قائمة الإغلاق، وقبل أن أقوم بغلق المتصفح، لفت نظري وجود كلمات من التعويذة، ضمن الروابط التي كانت مفتوحة سابقًا، وحفظها المتصفح بشكل

أوتوماتيكي! تذكرت أنني، قبل سفري، جربت كتابة التعويذة في موقع "جوجل"، ولم يسفر البحث عن أي شيء يذكر. ولما رأيت تلك الكلمات في "فايرفوكس"، شعرت بأنها إشارة من ربي لكي لا يتملكني اليأس، فأعزف عن عمل الخير الذي سافرت دمشق من أجله. ضغطت سريعًا على تلك الجملة. فظهرت، في جزء من الثانية، التعويذة المسجلة مسبقًا على موقع "جوجل". قارنت بينها وبين تلك المدونة في المقصوصة، فاكتشفت أنني نسيت سطرًا كاملًا.. إحدى عشرة كلمة! أعدت كتابة التعويذة الكاملة، وذهبت في اليوم التالي لكي أكمل مهمتي.

## (٢٦)

لما وصلت وجهتي، وجدت بالقرب من القبر، مجموعة من السياح يقودهم مرشد شامي، يحدثهم عن الجامع وأبرز معالمه، وعن "صلاح الدين الأيوبي". فانتظرت حتى انتهى من شرح قصة حياة السلطان، واختتم حديثه قائلًا بالإنجليزية "وتوفي السلطان صلاح الدين فجر يوم الأربعاء ٤ مارس ١١٩٣". قادهم بعد ذلك وذهبوا جميعًا إلى مكان رفات "يوحنا المعمدان". أصبح المكان خاليًا تمامًا، فانتهزت فرصتي، واقتربت من القبر، وألقيت الكلمات الكاملة للتعويذة. دقائق مرت ثم حدثت هزة في السقف الخشبي للقبر، وخرج "صلاح الدين" مترب الوجه، ذو لحية طويلة ناعمة، وشعر طويل أيضًا، عريض المنكبين، له حضور قوي، ونظرة ثاقبة، يوضحان كم كان قوي الشكيمة.

نظرنا إلى وجوه بعضنا البعض طويلًا، ولم ينطق أحدنا. شعرت بنظراته تتخللني، فحولت نظري - رغمًا عني - بعيدًا عن عينيه، واكتشفت المأساة حينما وقعت عيناي على جسده. إذ كان السلطان عارٍ كيوم ولدته أمه! ولما رآني أسلط نظري تلقائيًا على عورته، نظر بالتالي إليها، ولما اكتشف ما اكتشفته، أسقط في يده، فدارى عورته بيديه مرتبكًا! خلعت بنطالي الجينز، فقد كنت أرتدي تحته سروالًا صوفيًا "كلسون"، بسبب برودة الطقس. ولكن صلاح الدين كان ضخم الجثة، ولم أستطع أن أجعله يرتدي ذلك البنطال، فعبرت السلسلة الحديدية، وتواريت خلف القبر، ثم خلعت البنطال الصوف وارتديت أنا الجينز، وعدت إلى "صلاح الدين" الثابت في مكانه، متسمرًا كأنه تمثال. ساعدته في ارتداء البنطال الصوف، ونجحت أخيرًا بسبب قابلية تلك القماشة على التمدد.

-أين أنا؟

قالها "صلاح الدين" بصوت جهور، عميق، تردد صداه في أرجاء المسجد، ففرحت لأنه تكلم، وقلت:

-في الجامع الأموي.

رد متعجبًا:

-ولكني لا أذكر أنني أتيت إلى الجامع الأموي، ما أذكره أني كنت مريضًا ولازمت فراش حجرتي، فكيف جئت إلى هنا إذن؟

-دي حكاية طويلة.. هقولك عليها بعدين، المهم دلوقتي ياللا بينا بسرعة قبل ما حد يشوفنا.

اتسعت عيناه من الدهشة حين سمع جملتي السابقة، وقال:

-ماذا قلت؟

-إنت ماكنتش نايم، إنت كنت ميّت. هنمشي دلوقتي وهحكيلك القصة كلها لما نوصل الفندق.

فتح فمه ببلاهة:

-أنا لا أفهم أكثر من نصف كلامك.. ما هذه اللغة المختلطة التي تحدثني بها؟

علمت أنه لا يفهم العامية المصرية، فحاولت أن أحدثه بالفصحى:

-أنت الآن هتيجي معـ.. أنت الآن سوف تيجي معي، يوووووه، أريد منك أن تـ تـ تـ come with me.. يا دي النيلة، بسم الله الرحمن الرحيم.. بص يا

أستاذ صلاح، أريدك أن تأتي، أيوه هي تأتي دي، أريدك أن تأتي معي، وسأحكي لك كل شيء عندما نصل!

ارتخت قسمات وجهه بعدما اطمأن إلى إمكانية التواصل معي، وقال:

-موافق، ولكنني أريد أن أشرب، فأنا أشعر بعطش شديد، كأنني لم أشرب منذ أسبوع.

-أسبوع! أنت ماشربتش بقالك ٨ قرون يا عم!

-ماذا تقول؟

-ما تحطش في بالك.

نظر لي بريبة، فقلت موضحًا:

-لا تضع في بالك.

تركته متسمرًا في مكانه، ودخلت لأرتب الفوضى التي أحدثها بعثه.. أعدت الأشياء كما كانت، كلّ إلى مكانه، وغادرت متجهًا نحو الفندق وهو في أثري.

اسمح لي أن أكتفي بهذا القدر، وآخذ استراحة لمدة لن تزيد على نصف ساعة، أقضي خلالها حاجتي وأسير بضع دقائق داخل الغرفة، لأنني أحتاج أن أحرك قدمي ولو قليلًا بعد ذلك الجلوس الطويل.

## (٢٧)

كان شكل "صلاح الدين" غريبًا، وملفتًا للأنظار، ولما خرجنا من المسجد، التفتُ نحوه فوجدته متسمرًا في مكانه، يتمتم بذعر "سلّم يا الله" ثم أخذ يستعذ بالله من الشيطان الرجيم، ويحدق في شيء ما، وتعلو قسمات وجهه علامات الدهشة.. لا ليست الدهشة بل علامات الصدمة! استدرت ناظرًا للمكان الذي يحدق به، فإذا بسيارة قادمة نحونا من الشارع المقابل للبوابة الشرقية للجامع.. التفتُ مرة أخرى نحو "صلاح الدين" الذي استدار نحو المسجد، وأخذ يركض عائدًا إلى الداخل! ركضتُ خلفه فجذبنا أنظار الناس إلينا.

كان من الواضح أنه يخشى السيارات، ولم أكن بضامن رد فعله حينما أوقف سيارة أجرة، وأطلب منه أن يركبها، فاضطررت لأن أعود إلى الفندق سيرًا على الأقدام. وكان "صلاح الدين" يسير متلفتًا للمحيطات من حوله بدهشة، وغير منتبه إلى موضع قدميه، وتعثر في سيره كثيرًا، فكان يستند على ذراعي مرة، ويسقط على وجهه مرات، فيضحك الناس على ذلك الرجل، شبه العاري، ذي الشعر الطويل كشعر النساء، والذي لا يستطيع المشي!

أخيرًا وصلنا إلى حجرتي بالفندق، قدمت له كوبًا من الماء، وخفت أن أفقده إذا تجرعه دفعة واحدة، فبللت شفاهه أولًا، وأعطيته رشفة واحدة، ثم تبعتها بأخرى بعد دقيقة أو أقل، ولما تأفف وامتعض ناولته الباقي في الكوب فتجرعه وطلب المزيد، فأعطيته، إلى أن أشبعه الكوب الرابع. دخلته الحمام، وملأت حوض الاستحمام بالماء والصابون المعطر، وطلبت منه أن يخلع ملابسه وينام فيه..

ولا أعرف بالطبع ما دار في عزلته بالحمام، ولكني استنتجت إصابته بشيء من الهوس، مثلما نرى في أفلام الفانتازيا.

بعد مرور نحو نصف ساعة، طرقت الباب عليه، فخرج مرتديًا الباشكير بالعكس، من الأمام للخلف، فذكرني شكله بالمجانين، حين يرتدون ذلك القميص الأبيض. ظل يردد "سلّم يا الله.. سلّم يا الله.. سلّم يا الله"، فيما كنت جالسًا على حافة الفراش الوحيد الموجود بالحجرة، فوقف "صلاح الدين" أمامي، وقال:

-أعتقد أنك مدين لي بتفسير!

-أعتقد ذلك، ولكن اجلس أولًا.

-لن أجلس إلا إذا فهمت!

-اقعد يا عم "صلاح".. اقعد يا حبيبي.. ناكل بس وبعدين هفهمك كل حاجة من طأطأ لسلامو عليكو!

نظر إليّ بعدم فهم، فأعدت جملتي بالفصحى، وأضفت إليها:

-سوف آكل بيتزا، أتأكل معي، أم تريد شيئًا آخر؟

-ما هي البيتزا؟

أنا لا أعرف ما هي البيتزا بالعامية، فكيف سأصفها له بالفصحى؟! رتبت أفكاري وزفرت قائلًا:

-هممم إنها عبارة عن مخبوز على شكل دائرة، يوضع عليه قطع جبن مبشورة، أو لحم مفروم، أو قطع دجاج أو.... وات إيفر يعني.. يدخل الفرن، ثم حينما

يخرج، نأكله.

أنهيت شرحي لمعنى "البيتزا" ومكوناتها، ثم قلت:

-أنا سآخذ بيتزا بالجبن، فماذا ستأكل أنت؟

-أعتقد أني أريد أن أجرب البيتزا بالوات إيفر يعني!

## (٢٨)

-ما رأيك في البيتزا بطعم "الوات إيفر يعني" يا عم "صلاح"؟

-رغم غرابة طعمها، إلا أنها شهية.

-بألف ألف هنا.

-لماذا قلت ألف ألف ولم تقل مليونًا؟!

أخذت بعض الوقت لكي أجيبه على ذلك السؤال غير المتوقع:

-لا أعلم ولكني أعتقد أنه "ألف" واحد، والتكرار هنا للتأكيد ليس إلا.

هز رأسه، وعلت شفتيه شبح ابتسامة، وهو يقول:

-إنه حقًا لأمر عجيب!

سكتُ، فأردف:

-أعتقد آن الأوان لأفهم!

كنت خائفًا من مواجهته بالحقيقة الصادمة، فقررت أن آخذ الحديث إلى منطقة أخرى، لذا سألته:

-لماذا تبدأ كلامك دائمًا بكلمة "أعتقد" أهي متلازمة كلامية؟

رد بتلقائية:

-أعتقد أني لا أعرف.

ضحكتْ حتى أدمعتْ عيناي، بينما اكتفى "صلاح الدين" بابتسامة حينما فطن لتكراره نفس الكلمة، وقال بخجل:

-أعتقد أن عندي تفسير لما يحدث معي.

تغلبت على ضحكي وقلت ساخرًا منه:

-أعتقد أني أريد أن أعرف تفسيرك لما يحدث معك.

قال متجاهلًا سخريتي:

-أعتق.... هذا حلم. نعم لابد أن يكون كذلك. أشعر بأنني نمت طويلًا. في بداية نومي حلمت بأشياء أغرب من تلك التي تحدث الآن!

-وما هي هذه الأشياء؟

-أعتقد أنني رأيت فيما يرى النائم، أني أرقد داخل مكان ضيق، كأنني في قبر.

-ما إنت كنت في قبر فعلًا.

لم يبدُ عليه أنه سمع جملتي، إذ تجاهلها وأكمل حديثه:

-وفجأة وجدتني جالسًا أمام شخصين، لم أر مثيلًا لهما من قبل و....

قاطعته:

-منكر ونكير.

رد مستفهمًا:

-تقصد الملكين؟!

-نعم.

ألجمت الصدمة لسانه وشتتت فكره، أكثر مما هو مشتت، فقلت موضحًا:

-هذا لم يكن حلمًا، ولا الذي يحدث معك الآن بحلم.

-إن لم يكن حلمًا، فماذا عساه يكون؟

-خليني الأول أحكيلك الموضوع من أوله عشان تفهم.

-أعتقد أنك عدت مجددًا إلى تلك اللغة الغريبة التي لا أفقه أكثر من نصف كلماتها!

-أسف. كنت أقول: دعني أولًا أحكي لك القصة من بدايتها..

أومأ برأسه أن "انجز" فأردفت:

-لقد أورثني والدي تعويذة. وهي عبارة عن بضع كلمات، بمجرد ترديدها على أي قبر، يبعث صاحبه من الموت في الحال.

بُهت.. شعر بأنني أمازحه، أو أعبث بعقله، فقال:

-كيف يحدث ذلك، ولا يقدر على إحياء الموتى إلا الله جلّ وعلى؟! فذلك أمر لا يمكن حدوثه بيد البشر!

كنت قد أعددت العدة لتلك الأسئلة، فأسرعت قائلًا:

-ولكن سيدنا عيسى، كان من ضمن معجزاته، أنه يستطيع إحياء الموتى!

ردّ ردًا شبه قاطع:

-بإذن من الله.. كان المسيح يحيي الموتى بإذن من الله.. أعتقد بدعاء أو ما شابه.

رددت بمكر:

-ومن قال لك إن تلك التعويذة التي بحوزتي، ليست بدعاء؟ ومن قال لك إنها تحيي الموتى بغير إذن من الله؟

فصمت مفكرًا، ثم قال:

-أعتقد أن اسمها "تعويذة" هو ما دفعني لقول ذلك!

-هذه كلها شكليات ليس إلا، مسميات أطلقها عليها السابقون، ونحن توارثناها.. يمكن من الآن أن نطلق عليها "دعاء إحياء الموتى"، أو "تعويذة إحياء الموتى بإذن الله".

لم يبدُ أنه اقتنع، فأضفت:

-دعني أحكي لك قصة التعويذة وبعدها سأترك الحكم لك.

# (٢٩)

حكيت له ملخصًا لقصة التعويذة، كما حكيتها لك في بداية مراسلاتنا.. وبعد أن انتهيت نظرتُ إلى وجهه فوجدته شاحبًا، مصفرًا، انسحب الدم منه.. مرت بضع دقائق كان فيها يجمع شتات نفسه، وقال أخيرًا:

-أعتقد أن قدمي لن تستطيعا أن تحملاني أكثر من ذلك.

ثم ردد الآية القرآنية:

- "وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا".

اكتشفت أنه واقف أمامي منذ خروجه من الحمام.. نظرت إلى المكان الخالي، على طرف الفراش بجواري، وأشرت إليه أن يجلس، ففعل.. ثم بعد فترة صمت أخرى، أردف:

-صدقًا "وما أوتيتم من العلم إلاّ قليلا"، صدقت يا الله.. لو لم أكن قد رأيت بأم عيني، كل تلك الأشياء الغريبة، لاعتقدت أنك مجنون يهزأ بي، ولكن مهلًا، لماذا اخترتني أنا بالذات؟

تنهدت في ارتياح، وقلت:

-إن اختياري لك، جاء بعد رحلة بحث طويلة في تاريخنا.. كنت خلالها أبحث عن شخص استطاع أن يوّحد أمتنا تحت رايته.. أبحث عن قائد يقودنا نحو رفعتنا، ويجعلنا – كعرب – أقوياء كما كنا في عهده، ولم أجد خيرًا منك للقيام بتلك المهمة، فإن لك باعًا طويلًا في تلك الأمور.

-أية أمور؟

فكرت لثوانٍ، قبل أن أقول:

-تحرير القدس مثلًا.. نريدك أن تحرر القدس.

قال متعجبًا:

-القدس! ولكني حررتها بالفعل.

-كان ذلك قبل أن تموت.

زفر بحنق:

-هل استولى عليها الصليبيون مرة أخرى بعد وفاتي؟

-بل استولى عليها اليهود.. لا يوجد صليبيون الآن.

-وماذا يفعل السلطان إذن؟

-لا يوجد سلطان أيضًا.

-لا يوجد سلطان! كيف ذلك؟!

لم أكن في حالة تسمح لي بأن أشرح له التغيرات التي حدثت بالعالم بعد وفاته، ولم أجد ما أرد به عليه، فآثرت السكوت، ولكنه استطرد:

-فماذا يفعل من يحل محل السلطان؟

لابد أن أضع نهاية لهذا العبث:

-اسمع يا عم "صلاح".. الآن تغيّر الزمان، لم يعد هناك سلاطين أو ملوك،

والوطن العربي الذي كان يخضع لإمرتك قديمًا، أصبح الآن مقسمًا إلى دويلات صغيرة وأوطان كثيرة، وكل بلد منه يحكمه رئيس من شعبه، أو ملك إذا كانت مملكة.

-وكيف ترضون بهذا الانشقاق.. وإذا رضيتم به، كيف تتركون إخوانكم الفلسطينيون تحت سطوة الاحتلال؟

لم أجد ردًا فآثرت الصمت مرة أخرى، ولكنه ألحّ.. فأجبرني أن أقص عليه كل الأحداث التي مررنا بها أثناء فترة غيابه، وكل الأحداث الكبرى التي شهدها العالم من بعده. واستعنت بـ "ويكيبديا" لأحدثه عن الدول التي تناوبت احتلال مصر، وأجيبه عن الأسئلة التي لا أعرفها. لما فتحت "اللاب توب" كي أتصفح "ويكيبديا" نظر إلى شاشته المضيئة ثم قال "ويخلق ما لا تعلمون". تجاهلته وحدثته مباشرة عن ثورات الربيع العربي، وكيف أنها فرصة لابد أن نستغلها لتوحيد راية العرب، مرة أخرى، تحت لواء القائد المبجل "صلاح الدين الأيوبي". حدثته كثيرًا عن الثورة التونسية التي ركبها المتأسلمون، وعن الثورة المصرية التي خطفها المجلس العسكري، بمساعدة من متأسلمي مصر.. حدثته عن كل شيء أعلمه، وقرأت عليه كل ما لم أكن أعلمه، ولمّا انتهيت نظر لي وقال بحنق:

-لماذا فعلت هذا بي؟

لم أفهم ماذا يقصد، فسكتُ، بينما استأنف هو:

-أعتقد أنك دمرتني!

بُهتُّ.. وتلعثمتُ، فقاطعني صارخًا:

-لقد دمرت أيامي وعمري!

كانت تلك الجملة مألوفة بالنسبة لي، تذكرت أنها من قصيدة "تقولين الهوى"، كلمات نزار قباني والتي غناها القيصر. فرددت بتلقائية، مكملًا الشطر التالي من القصيدة:

-فجفت دمعتي وانبح همسي..

نظر إليّ متعجبًا، فأكملت بالبيت الذي يليه:

-أعيديني إلى أصلي جميلًا.. فمهما كنتِ أجمل منكِ نفسي..

لا أعلم لماذا كنت أردد كلمات تلك القصيدة، بذلك الأسلوب المستفز، وكنت على وشك أن أعتذر، لولا أنه قال:

-ما هذا؟

قبل أن أجيبه، أضاف:

-أعتقد أنه من المفترض أن أكون أنا قائل هذا الكلام وليس أنت.. أنا الذي يفترض بي أن أقول: "أعدني إلى قبري جميلًا...".

## (٣٠)

في الأيام والليالي التي تلت تلك الليلة، عكفت على تعليمه بعض مصطلحات العامية المصرية، وبعض المفردات التي يكثُر استخدامها بين المصريين، حتى أصبح يفهم معظم كلماتي العامية، ولكن.. ظل النطق بها صعبًا عليه.

أوشكت النقود التي بحوزتي على النفاد، فقد كان "صلاح الدين" شرهًا، وطعامنا الحالي - بالنسبة له - لا يسمن ولا يغني من جوع، إذ كان يأكل بمتوسط خمس وجبات رئيسية يوميًا، بالإضافة إلى الأكلات الفرعية التي لا تنتهي. في كل الحالات كنت بحاجة إلى نقود إضافية، لكي أستطيع أن أتدبر طريقة عودة "صلاح الدين" إلى مصر، التي لابد ستكون طريقة غير شرعية. إما بجواز سفر "مضروب"، أو هربًا عبر البحر أو الصحراء، فلم أكن أعرف وقتها الطريقة السليمة للهروب، لأنني لا أفقه شيئًا بالجغرافيا. وكان أمر كيفية العودة من سوريا إلى مصر بـ"صلاح الدي"، هو الأمر الوحيد الذي سقط سهوًا من حساباتي. فلم أدرِ ماذا يجب عليّ أن أفعل. عصرت عقلي عصرًا، بحثًا عن أي شخص أعرفه متواجد في سوريا، فلم أجد! لماذا دفنت في سوريا يا عم صلاح؟ لماذا لم تدفن في ليبيا مثلًا أو في السعودية؟ كنت ستجعل مهمتي أسهل كثيرًا.. فكل من أعرفهم، بل كل المصريين تقريبًا، يعملون بهاتين الدولتين.

كما هي العادة، كلما ضاقت في وجهي السبل، أحتاج لجلسة مع النفس أعيد خلالها ترتيب أفكاري، بما يتناسب مع الوضع الحالي. ولكن كيف يتم ذلك، ومعي في نفس الحجرة، هذا السلطان قديمًا، المزعج حاليًا. طلبت منه، أكثر من مرة، أن يهدأ لكي أستطيع أن أفكر في طرق الخروج من تلك الأزمة. ولما

لم يهدأ، ناولته جهاز التحكم في التلفاز عن بعد، كي يشغل نفسه بشيء ما.. بينما جلست أنا أفكر. ولكن أزعجني صوت تنقله بين محطات التلفاز من محطة إلى أخرى كل نصف دقيقة، وأخرجني من تفكيري وشتت تركيزي. فتركت له الغرفة، وأغلقت بابها من الخارج عليه، ثم نزلت متجها إلى اللامكان.

وجدت في طريقي مقهى يصدح بصوت الست "أم كلثوم"، فجلست على طاولة وطلبت قهوة في كوب. احتسيتها على أغنية "حكم علينا الهوى"، ورغم شرود فكري، وانشغال عقلي بتلك المشكلة، إلا أنني وجدت صوت الست يتسلل إلى وجداني "السعد وعد يا عين والاسم نظرة عين.. وأنا وانت روح مغرمة كان حظها من السما، واتجمعوا القلبين". تذكرت "ندى" التي كانت حاضرة بقوة خلال الفترة الماضية. ولم تكن تفارق أحلامي، رغم كل ما أمر به. وكان لذكراها مع صوت الست، وهي تشدو بكلمات "حكم علينا الهوى" مفعول السحر، الذي أشعرني بصفاء ذهني ونفسي لم أشعر بمثله قبل ذلك. "الأولّة يا أنا، بنقولها تحيينا.. والتانية آه يا هنا، أحضن ليالينا.. والتالتة آه يا هوى، سلمنا ليك أمرنا، ولقينا فيك عمرنا، وأجمل أمانينا".

انتهيت من احتساء قهوتي، فجاءني النادل كي يحمل الكوب الفارغ. سألته عن جنسيته، إذ ساورني شك أنه مصري مثلي، أو أن صاحب المقهى نفسه مصري. ولكنهما لم يكونا كذلك، ولم يكن بالمقهى أية مصريين غيري، ولما أبديت تعجبي، من استماعهم إلى "أم كلثوم"، رغم عدم وجود مصريين في مقهاهم، رد أن أغاني الست ملك للعرب أجمعين وليست ملكًا للمصريين فقط! أحرجني وانصرف، فعدت إلى استمتاعي بتذكر "ندى"، على صوت الست، ولما انتهت الأغنية انصرفت من المقهى متجهًا إلى الجامع الأموي، حيث صديقي الشامي،

الذي يعمل حارسًا هناك.

كنت أثناء استماعي إلى صوت الست بالمقهى جاءتني فكرة وقررت تجربتها على الفور دون تأجيل. سأذهب إلى صديقي الشامي، الشخص الوحيد الذي أعرفه بسوريا، وأقول له إنني قد تعرضت للسرقة، وضاعت كل أوراقي ولا أعرف كيف أعود إلى بلدي، ثم سأطلب مساعدته أو يوصلني إلى شخص، يمكنه مدّ يد العون لي!

قبل أن أصل إلى الجامع الأموي، قمت بتمزيق قميصي، ثم أهلت القليل من التراب على شعري وجسدي، وأحدثت بعض الخدوش الصغيرة في ذراعي، فلما دخلت عليه ورأى منظري المزري سألني:

-شو جرالك؟

-كنت رايح أشتري شوية حاجات، لقيت عيّلين صغيرين ماسكين في خناق بعض. دخلت أحوش بينهم، لقيت راجلين زي البغال، وشهم مليان بشل، مسكوا فيا وضربوني بحجة إني بضرب ولادهم. وفي لمح البصر الكل اختفى، وما لقيتش في جيبي لا الفلوس ولا المحفظة ولا الباسبور حتى. فضلت ماشي مش عارف أعمل إيه، ما حسيتش بنفسي غير وأنا هنا، قلت أدخل أحكيلك يمكن تقدر تساعدني.

أعرف أنني حكيت له مشهدًا مكررًا في كل فيلم مصري، ولهذا دعوّت الله في سري ألا يكون من مشاهدي الأفلام المصرية. كنت أنظر تجاه الأرض كي يشعر أنني ضعيفٌ منكسر. رفعت عيني ونظرت إليه بأسى، فقال مشفقًا على حالي:

-لولا الفوضى والثورة ياللي بالبلد كنت بروح معك على المخفر، بترجع حاجاتك

بظرف ساعة. ياللي حصل ما بيرضي الشرطة السورية منوب.

علا وجهي شبح ابتسامة لابتلاعه الطعم، ولكني قتلتها مستخدمًا قناع الغضب والانكسار مرة أخرى، وقلت:

-والحل إيه؟ هرجع مصر إزاي؟

-ما في حل غير بوشك على السفارة المصرية.

رددت بسرعة وبدون تفكير:

-لأ بوشك مين وسفارة مين؟

-وليش تخاف من السفارة.. هربان من شي بمصر؟

أهداني الحل في ذلك الرد دون أن يقصد.. فقلت:

-همممم الحقيقة أنا ليا ملف في أمن الدولة المصري، ولو رحت السفارة هيعملوا تحرياتهم عني ويعرفوا إن ليا نشاط سياسي، وهرجع من سوريا على المعتقل يكهربوني ويقلعولي ضوافري ويشغلوا حنفية مية تنقط في جردل جنبي عشان ما أعرفش أنام.

لم يبدُ عليه أنه فقه شيئًا من كلامي، فقلت موضحًا:

-زي الأستاذة "نادية الجندي" في فيلم "مهمة في تل أبيب".

-للأسف ما بشوف أفلام منوب.

انتهزت الفرصة، ورحت أحكي له كل مشاهد التعذيب التي رأيتها في الأفلام العربية والأجنبية، على أنها تحدث للمعتقلين سياسيًا في مصر. كوكتيل

مشاهد تعذيب من أفلام عربية كـ "مهمة في تل أبيب"، "إحنا بتوع الأتوبيس"، و"الكرنك". وأفلام أجنبية كـ saw وmisson impossible.. وصوّرت له ضباط أمن الدولة في مصر على أنهم الفنان "ستيفين سيجال" طوال الفيلم يحافظ على تصفيفة شعره، ورابطة عنق بذته، مع مراعاة عدم تواجد أية أتربة عالقة بملابسه، رغم "شقلباظات القرود" التي يؤديها على مدار الأحداث! استرسلت في السرد والحكي، إلى أن اقتربت من أن أحكي له عن الكائنات الفضائية التي تساعد رجال أمن الدولة في تعذيبنا. لولا دموعًا رأيتها محبوسة في مقلتي عينيه، جعلتني أصمت. وبعد فترة صمت قصيرة، كفكف دموعه وقال:

-كيف بدي ساعدك؟

أخيرًا.. سألني السؤال الذي كنت أنتظره:

-مش عارف بس لو فيه حد يقدر يسفرني تهريب.. أو يعمل لي باسبور مزوّر أسافر بيه يبقى زي الفل. عرفني عليه إنت وأنا هتعامل..

فكر قليلًا ثم قال:

-للأسف ما بعرف حدا بيعمل هيك شغلات، لكن اتركني بسألك!

## (٣١)

مر يومان. وفي صباح الثالث وجدت عامل الفندق يخبرني بأن هناك شخصًا بانتظاري في بهو الاستقبال. ولما كنت لا أعرف أي شخص في سوريا سوى "آدم" حارس المسجد الأموي، فعلمت أنه هو. أسرعت الخطى إليه، فوجدته جالسًا ينظر نحو السلم مترقبًا وصولي.. وكانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها بدون زي العمل، ولما حدثته عن ذلك، رد بأنه سيتغيب اليوم عن عمله ليذهب معي حينما نقابل "موكشة"، ولما سألته عن هوية هذا "الموكشة"، رد بنفا صبر:

-هو الزلمة الوحيد اللي بيقدر يساعدك لترجع على مصر.

وظل يحدثني عن الصعوبات التي واجهته حتى يتمكن من تحديد ذلك اللقاء، بتلك السرعة. فـ"موكشة" ليس بالإنسان العادي الذي تستطيع أن تقابله بسهولة وقتما تشاء، ولكنه ذلك الشخص الاستثنائي الذي تُذلل تحت قدميه الصعاب، وتفتح أمامه الأبواب المغلقة دون أن يحرك يديه حتى ليفتحها. ظل يحدثني عن "موكشة" هذا حتى تسلل إليّ شعور أنه حفيد سوبرمان.

وصلنا أخيرًا إلى "موكشة"، ولم أعرف تحديدًا إذا كان هذا بيته أو محل عمله، لكثرة المحيطين به. انتظرنا بضع دقائق في حجرة خارجية بصحبة أحد معاونيه، كانت الحجرة خالية من الأثاث إلاّ من خمسة مقاعد جلدية جلسنا على اثنين منهما حتى سمح لنا المعاون - الذي ظل واقفًا - بالدخول أخيرًا إلى مكتب "موكشة. أتعرف الثعلب؟ لو وضعت صورة له بجوار صورة "موكشة" لن تستطيع إخراج خمسة اختلافات بين الصورتين!

كان يجلس خلف مكتب كبير، يقرأ الأوراق الموضوعة أمامه. بعد ثوانٍ رفع عينيه عن الأوراق، ولما رآني ابتسم وقام من مقعده واقترب مني. مددت يدي بالسلام فتجاهلها وفتح ذراعيه على مصراعيهما، واحتضنني كأننا أصدقاء قدامى، نلتقي بعد غياب.. أجلسني وجلس "آدم" في المقعد المقابل لي، بينما عاد هو لمقعده خلف المكتب. ثم بعد الاطمئنان على الأحوال سأل:

-هتاكل إيه؟

-لا ولا حاجة تسلم ربنا يخليك. لسه صاحي من النوم حالاً، يا دوب فطرت وجيتلك.

ضغط على زر على حافة المكتب، وهو يقول:

-خلاص نشرب حاجة لغاية ميعاد الغدا ما ييجي، هاخدك معايا البيت ونتغدى هناك.

-ما لوش لزوم والله.. ما تتعبش نفسك.

فُتح الباب، ودخل منه عامل البوفيه، في حين قال "موكشة" بابتسامته التي تبعث في النفس الراحة:

-ما لوش لزوم إزاي؟ إنت بخيل ولا إيه؟

ابتسمت أنا الآخر، وسكتُّ، فحكى لي سريعًا قصة عن بدايته في سوريا، وعن الشخص المصري الذي استقبله حينما جاء إلى هنا، وكم كان كريمًا معه وأحبه حتى إنه زوجه ابنته، من وقتها أخذ عهدًا على نفسه بأن يقدم كل ما في استطاعته لكي يساعد المغتربين، بغض النظر عمّا إذا كانوا يحملون الجنسية

المصرية من عدمه، فما بالي وأنا أول مصري يقصده في خدمة:"

-لازم تاخد واجبك تالت ومتلت، وما تقلقش الغدا ده مالوش علاقة بالخدمة بتاعتك، ده واجب ضيافة. قولي بقى تشرب إيه؟

طلبت قهوة زيادة وطلب "آدم" شاي، أما "موكشة" فطلب شاي بالنعناع. انتظر إلى أن انصرف العامل ليُلبي طلباتنا، ثم طلب مني أن أحدثه عن مصر وما يدور بها، ففعلت. ولما انتهيت دخل علينا عامل البوفيه يحمل صينية مذهبة، وضع أمام كلٍّ منا مشروبه ثم خرج. سألني "موكشة" عن الخدمة التي قصدته من أجلها، فقصصت عليه ما قصصته على "آدم" من تعرضي للسرقة وضياع كل أوراق إثبات هويتي. نظر إلى عيني مباشرة فغضضت بصري ناظرًا نحو الأرض، وهُيئ إليّ أنه يبتسم. ولكنني أكملت وعيني على الأرض كما هي، ثم اختتمت كلامي بأنني أريده أن يساعدني في العودة إلى مصر بطريقة غير شرعية. انتظر بضع ثوانٍ قبل أن ينهض من على المقعد خلف مكتبه، ثم طلب من "آدم" الانصراف، وأمر حارسه – الموجود معنا بالمكتب هو الآخر – أن يوصله وينتظر بالخارج، ولا يسمح بدخول أحد علينا.. لما أصبحنا وحدنا قال:

-تعرف إن فيه مقولة بتقول: إن الشخص اللي بيكذب ما بيقدرش يبص في عين اللي قدامه؟

تلعثمت، وتوترت، وتصبب جبيني عرقًا، ولكني تغلبت على توتري وقلت:

-طيب وانت بتقول لي كده ليه؟

صمت لحظات مرت كأنها دهر، وأجاب ولم تفارق البسمة شفتيه:

-بأديك معلومة مش أكتر!

لم نظر إلى عيني مرة أخرى، فجاهدت كي لا أحوّل نظري عنه، ولكني لم أستطع.. فما هي إلا ثوانٍ حتى شعرت بعينيه تتخللني، فغضضت بصري مرة أخرى:

-أيوه كده.. قولي بقى تاني: عاوز تسافر مصر "هروب" ليه؟

عجز لساني عن النطق.

أسقط في يدي..

شُل تفكيري..

ارتبكت..

كلها مفردات جيدة تصلح لوصف حالتي، لكنها ليست دقيقة، بالقدر الكافي لنصف ما كان يدور بداخلي وقتها. لا يمكن أن أقول له الحقيقة، فعلى أقل تقدير سيعتبرني مختلًا ويودعني مستشفى الأمراض العقلية. وبالطبع لا يمكن أن أستمر في هذه الكذبة أمام شخص بهذا الدهاء، ولا أضمن رد فعله إذا تركته الآن وانصرفتُ عائدًا إلى غرفتي في الفندق. فمن المؤكد أنه سيبحث خلفي إلى أن يجد ما يرضي فضوله.. وهذا ما لا أقبل بحدوثه أبدًا.

الحل إذن أن أفصح عن جزء من الحقيقة وأنا أنظر في عينيه، حتى لا يشك في أمري. وأواري الجزء المتعلق بهوية الشخص المراد عودته إلى مصر؟ فإن سأل عن اسمه، سوف أعطيه الاسم الحقيقي للسلطان "يوسف بن نجم الدين بن أيوب". هذا الاسم الذي لا يعرفه أحد، وبهذا أكون قد قلت له الحقيقة وتمكنت من إقناعه بالنظر في عينيه، لكنها أيضًا ليست الحقيقة.

استجمعت شجاعتي وقلت له إن جواز سفري بحوزتي ولا توجد مشكلة من عودتي إلى مصر بطريقة قانونية وقتما أرغب. ولكن المشكلة تخص صديقًا سوريًا يريدني أن آخذه معي إلى مصر، ويخاف إن سافر معي، أن يُقبض عليه في مطار دمشق، ويرجع إلى المعتقل الذي هرب منه إبان قيام الثورة السورية.

كنت أتحدث بثقة، وعيني لم تفارقا عينيه أبدًا، حتى إنه هو الذي كان يحوّل نظره عني. ثم سألني عن اسم هذا الصديق السوري، فقلت على الفور "يوسف نجم الدين أيوب". سألني إذا كان ذلك الاسم الحقيقي أم الاسم الذي أريده مكتوبًا في جواز السفر المضروب؟ فابتسمت وهدأت حينما قرأت من كلامه أنه قرر مساعدتي، وقلت، إن "يوسف نجم الدين أيوب" هو اسمه، وطلبت إليه مازحًا أن يكف عن الأسئلة. فابتسم وطلب مني أن أقابله غدًا ومعي ٦ صور شخصية للمذكور والاسم المراد كتابته في الباسبور ومبلغ خمسة آلاف دولار. كل الفرحة التي شعرت بها حينما وافق على مساعدتي، تحولت إلى حزن ويأس حينما سمعت الجملة التي اختتم بها حديثه: "خمسة آلاف دولار". وأخذني التفكير بعيدًا، حتى إنني لم أسمع كلمة أخرى بعد كلمة "دولار" تلك. أفقت من شرودي على يد "موكشة" تلكزني في كتفي الأيمن القريب منه، ثم لما نظرت إليه قال:

-إيييييييه روحت فين؟

-الفلوس اللي معايا هنا وحتى اللي في مصر، ما تكملش خمستلاف جنيه مش دولار كمان!

-وانت تدفع ليه؟ ما تخلي صاحب الشأن يدفع.

-صاحب الشأن هربان من السجن، وبيكح تراب، وبعدين أنا جايلك عشان

ساعدني مش تقفلها في وشي.

-ما أنا عاوز أساعدك والله، بس مفيش بإيدي حاجة أعملها؟

حاولت أن أذكره بما قاله لي سابقًا، فقلت:

-هزها شوية، أومال إيه اللي "عهد قطعته على نفسي.. وهساعدك عشان إنت مصري" والأفلام دي!

-هو أنت فاكر إنى هاخد الفلوس دي لنفسي؟ والله أبدًا، دي للراجل اللي هيضرب الباسبور.

زفرت بحنق ونظرت إلى الأعلى وضغطت بيدي على جبيني مفكرًا، عسى أن يشعر بحالتي فيساعدني بشكل أكبر:

-يعنيماينفعش تهزها شوية مع الراجل ده؟

-مش هيرضى.

ثم استأنف بسرعة، كمن تذكر شيئًا:

-بص أنا هزق معاكم بألف دولار جدعنة مني، وانت ويوسف عليكم الأربعة الباقيين.

-"يوسف" مين؟

قال بشك:

-"يوسف" صاحبك اللي عاوز تهربه لمصر!

ثم نظر في عيني وأردف:

-مش اسمه "يوسف" برضه؟

ارتبكت، وتلعثمت، ولم أستطع النظر في عينيه، فوقفت مستأذنًا إياه بالانصراف لكي أبحث عن طريقة لجلب ذلك المبلغ، لكنه ذكرني بالغداء الذي حان موعده، فتوجهنا سويًا إلى منزله.

تجنبت - طوال جلستنا معًا - التطرق في الحديث إلى ذلك الموضوع مرة أخرى، ولما انتهينا أصر أن يرسل معي سائقه الخاص ليوصلني إلى الفندق. وعندما وصلت كان النهار قد انقضى وحل المساء، وانتبهت إلى أنني تركت "صلاح الدين" بمفرده ما يقرب من سبع ساعات!

## (٣٢)

فتحت باب الغرفة، وليتني ما فعلت. وجدت مكيف الهواء يعمل على النظام البارد رغم برودة الجو التي جعلت "صلاح الدين" يتلحف بالبطانية. كما جعلت صوت اصطكاك أسنانه أعلى من صوت صنبور المياه المفتوح في حوض الوجه بالحمام. ثم ماذا تفعل الوسادة أسفل السرير؟! ولماذا وضع معجون الأسنان والصابونة داخل الثلاجة!

دخلت الحمام كي أغلق صنبور المياه، فوجدت التلفاز بالداخل! وحين سألته عن سبب ذلك، رد بأنه كان يشاهد شيئًا مهمًا في التلفاز وألحّ عليه نداء الطبيعة، ففكر أن يقضي حاجاته بالتزامن مع عملية المشاهدة تلك. ثم أضاف أنه حاول كثيرًا أن يحرك ذلك المقعد - وأشار إلى "الكومبنيشن" - الموجود في الحمام، ليضعه أمام التلفاز ولكنه فشل في ذلك، فهداه عقله إلى نقل التلفاز للحمام!

تركت كل شيء على ما هو عليه، وأغلقت الباب من الخارج كما كان، قبل أن أغادر الفندق، متجهًا للمقهى القريب، لعلّ صوت الست يساعدني مرة أخرى، فأجد طريقة للحصول على النقود. في طريقي إلى المقهى، وقبل أن أصل وجهتي، سمعت صراخًا قادمًا من إحدى نوافذ طابق ما في مبنى على يساري. وتبع الصراخ ضجة أحدثتها تجمعات بشرية بدأت صغيرة، ثم ازدادت كثافتها بعد مرور دقائق. دفعني فضولي فصعدت مع من صعدوا حيث مصدر الصراخ. وجدت رجلًا في بداية العقد الخامس من عمره أو نهاية الرابع، مستلقى على ظهره في فراشه، وكل من حوله يبكي، فعلمت أنه ميّت وقررّت الانصراف

لكن استوقفني حديث جانبي بين شاب يبكي بحرقة، علمت فيما بعد أنه نجل المتوفى، وبين رجل آخر في عمر الميت أو أكبر قليلًا. وكان الرجل يقول للشاب مهدئًا من روعه:

-إنت بتعرف إنك مثل ولادي، إذا بتحتاج شي، عمّك يعقوب ما بيتأخر عنك بنوب.

شكره الشاب فأخرج العم من جيب سترته مبلغًا نقديًا، ومد به يده تجاه الشاب وهو يقول:

-خد هادول المصاري خليهم معك.

رفض الشاب أن يأخذ النقود من الرجل قائلًا:

-يا عمي المصاري كتير، لكن مابتسوي شي في وجع الفراق.

بدا على العم التأثر، وانحدرت على وجنتيه دمعتان، تسللتا خارج عينيه في غفلة منه، بينما أضاف الشاب باكيًا:

-عم بدفع كنوز الدنيا من شان اسمع ضحكة أبي مرة تانية.

انهار تماسك الرجل الهش، فبكى، وازداد معه بكاء الشاب. أما أنا، فكانت تتردد في عقلي جملة "عم بدفع كنوز الدنيا من شان أسمع ضحكة أبي مرة تانية".. لن أطلب "كنوز الدنيا" فقط أربعة آلاف دولارا والمقابل لن يكون سماع ضحكة "أبيك" فقط، بل سماع ضحكة "أبيك" وكلام "أبيك" والجلوس والسير مع "أبيك" والنوم في حضن "أبيك" إذا شئت ذلك.

## (٣٣)

منذ أيام عثرت – مصادفة – على التعويذة كاملة على متصفح "فايرفوكس". وقتها شعرت بأن الله يقف بجانبي.. اليوم ومع هذا الموقف تأكدت من صدق شعوري.

انتظرت تحت المبنى الموجودة به شقة الميت، إلى أن تأكدتُ أن الشقة قد خلت من الناس، بعد أن انصرفت الجموع ولم يتبق إلا المقربون. صعدت السلم في خوف تغلبت عليه بأن قرعت الباب مباشرة لكي أضع نفسي أمام الأمر الواقع. انتظرت ثواني كنت خلالها أقدم قدمًا وأؤخر أخرى، حتى فُتح الباب، فوجدتني وجهًا لوجه مع ابن المتوفى الذي لا زال يبكي. نظر لي مستفسرًا بعيون أدماها البكاء، فتحدثت بالفصحى لكي أعوّض نقص الوقار الذي سيجلبه حديثي القادم. قلت إنني أريد أن أسأله سؤالًا واحدًا، فهز رأسه أن "اسأل". فسألته إن كان يعني ما ذكره، حين قال "عم بدفع كنوز الدنيا من شان أسمع ضحكة أبي مرة تانية"؟ فأبدى تعجبه ولم يرد.

استجمعت شجاعتي وقلت له مباشرة، إنني أريد أن أنفرد بوالده لبضع دقائق فقط، وبعدها سيجده حيًا. ثم تقهقرت خطوتين تحسبًا لرد فعله، وقبل أن يفيق من ذهوله فيشكك في قواي العقلية، ذكرته أنه لن يدفع كنوز الدنيا كما قال، ولكنني سآخذ منه فقط خمسة آلاف دولار. وقبل أن يعترض أو يتهمني بالنصب استأنفت:

-بعد أن تتأكد بنفسك أن والدك حي.

سألني بعد فترة صمت كان يتفحصني خلالها:

-مين بتكون إنت؟!

-ليس مهمًا من أنا المهم ما أستطيع فعله.

نظرت إليه لأرى وقع الكلمات عليه، فوجدته حائرًا، فكرت أن أستغل حيرته تلك وأطرق على الحديد وهو ساخن، فقلت:

-اتركني دقائق مع والدك وسوف تجده حيًا قبل أن أغادر..

قاطعني:

-ولو لقيته ميّت مثل ما تركته.. شو بعمل فيك بوقتها؟

-افعل بي ما يحلو لك، ولكن إذا نجحت لن أتخلى عن دولار واحد من الخمسة آلاف المتفق عليها.

عقدت الاتفاق ثم دخلت الحجرة، حيث جثمان المرحوم، وأغلقت الباب خلفي جيدًا قبل أن أقرأ تعويذتي.

بعد دقائق تجشأ الأب - الذي كان مرحومًا قبل قليل- فأجلسته وأسندت ظهره على ظهر السرير الخشبي، ثم فتحت الباب لنجله. ما أن دخل الفتى حتى أغشي عليه لمّا وجد والده على قيد الحياة. هرعت إلى زجاجة مياه بجوار سرير الأب، وصببتُ منها داخل كف يدي ومسحت بها على وجهه حتى أفاق وجرى ناحية أبيه فأحتضنه وبكى، بينما كان الأب في حالة ذهول مما أصاب ولده. لكزته في كتفه، مذكرا إياه باتفاقنا، فالتفت إليّ، وقال بضع كلمات عن معجزة كمعجزات موسى، وعن يهوا وأشياء أخرى لم أعرها اهتمامًا وقتها لأنها لم تكن تعنيني.

فتركني مع والده الذي سألني:

-إنت و "ليشع" أصدقاء؟

-"ليشع " مين؟

-"ليشعط ابنى يا زلمة..!

"ليشع"؟!!!!

خرجت مسرعًا دون أن أرد على سؤاله، فلاحظت وجود شمعدان سداسي موضوع في ركن الصالة. أسقط في يدي حينما رأيته، ولم أدرِ ماذا أفعل؟!

قابلت "ليشع" في الصالة وفي يده النقود، قال لي إن هذا المبلغ يعادل الخمسة آلاف دولار ولكن بالعملة السورية وإذا أردت المبلغ بالدولار، فيجب عليّ أن أنتظر للغد، سيحولها من المصرف.. أو أعطيه رقم حسابي المصرفي، وعمه سيحوّل المبلغ كاملًا إلى رصيدي. ثم مد يده بالنقود وهو يضيف إن عمه رجل أعمال كبير في إسرائيل! كنت على وشك أن أسأله عن ديانته، التي بدأت تتضح هويتها من اسمه "ليشع" والشمعدان السداسي، ولكن جاء ذكر عمل عمه بإسرائيل، لينهي أية شكوك.

التقطت المبلغ من يده متحاشيًا أن ألمسه كأنني أخاف أن تنتقل إلى جسدي عدوى ما.. وغادرت مسرعًا دون حتى أن أقوم بعدّ النقود.

## (٣٤)

كالعادة سيطرت على عقلي الأسئلة أهم حقًا يهود؟ نعم، هم كذلك وإلا فما سبب تواجد الشمعدان السداسي في شقتهم، بالإضافة إلى عمه الذي يعمل بإسرائيل!

طيب.. ما الذي جاء بهؤلاء اليهود إلى سوريا؟ لا أعرف، ولكن يبدو أنهم يسكنون هذا المنزل منذ زمن، يبدو من لهجتهم أنهم سوريون أصلًا. أيوجد يهود سوريون يعيشون في سوريا ويحملون جنسيتها؟

عرفت لما وصلت الفندق، من خلال الإنترنت، أن سوريا يوجد بها ٣٣ مواطنًا يهوديًا:

-ومن بختي المايل اتكعبلت أنا في واحد منهم! ضاقت بيا دونًا عن كل الناس أستخدم تعويذتي على واحد يهودي!

جافاني النوم تلك الليلة، وحين أشرقت الشمس أيقظت "صلاح الدين" من نومه، ثم هذبت لحيته وشعره بماكينة حلاقتي الشخصية.. ثم جعلته يقف أمام حائط الغرفة الخالي، أبيض اللون، والتقطت له عدة صور بهاتفي المحمول، ثم انصرفت، ولم أنسَ أن أغلق باب الحجرة عليه.

انتظرت سيارة أجرة أمام مدخل الفندق، فلاحت واحدة قادمة من بعيد. أوقفتها وطلبت من السائق أن يقلني إلى أقرب "استوديو تصوير"، فنبهني السائق إلى أن الوقت مبكرًا جدًا لذلك، وأن استوديوهات التصوير تبدأ عملها عادة بعد الثانية عشرة ظهرًا. نظرت في ساعتي فوجدتها السابعة والثلث صباحًا. فشكرت

السائق بإيماءة من رأسي واستدرت عائدًا إلى الفندق. أثناء دوراني لفت نظري وجه مألوف يقف على الناصية المواجهة للفندق، ناظرًا تجاهي، رجعت برأسي مرة أخرى، فوجدته "ليشع"! كان يسير باتجاهي، فانتظرته حتى وصل، وسألته بالفصحى:

-ماذا تفعل هنا؟!

رد ساخرًا:

-كنت مفكرك ملاك، لاحقتك ليلة امبارح لحتى دخلت هالفندق. وقتها عرفت إني كنت غلطان لأن ما في ملايكة بتنزل بفنادق!

تجاهلت مزاحه ثقيل الظل، وحدثت نفسي: "وهو يعني فيه ملايكة بتاخد فلوس من الناس يا أهبل؟" ثم سألته:

-ولم تبعتني؟ ماذا تريد؟

-بدي أفهم!

زفرت بنفاد صبر، فاستأنف:

-بدي أفهم كيف سويت هادي الشّغلة، كيف بعثت أبي من الموت؟

صمتُ ثواني أتأمله فيها، ولما وجدته مرتبكًا وخائفًا نظرت إلى عينيه وقلت بنبرة تهديد:

-وإن لم أفعل؟

سكت متوترًا، فأردفت:

-إذا كنت منزعجًا لأن والدك حيّ فدعني أراك مرة أخرى، وستجده في عداد الأموات كما كان.. وقد تذهب معه.

رجع بضع خطوات للخلف خائفًا، فصرخت فيه:

-والآن أغرب عن وجهي.

مضى في لمح البصر، فابتسمت وعدت إلى بهو الفندق أتناول إفطاري وأحتسي قهوتي في استمتاع حقيقي، لم يفسده سوى بطء مرور الوقت.

في التاسعة صباحًا شعرت ببعض الملل، فصعدت إلى حجرتي، ولما وجدت "صلاح الدين" يصلي، أخذت كتابًا ثم عدت إلى بهو الفندق مرة أخرى. جلست أقتل الوقت بالقراءة، كنت أمر على الكلمات بعيني ولكن عقلي كان مشتتًا، مشغولًا بالتفكير فيما قد يحدث في الغد القريب، سواء في مخاطر رحلة العودة من دمشق إلى القاهرة، أو في الرحلة الأصعب: رحلة توحيد راية العرب تحت لواء السلطان "صلاح الدين".

سرحت بخيالي إلى أن حكمت العالم أنا وهو، ولما عدت للواقع نظرت في ساعتي فوجدتها تقترب من الحادية عشرة، فخرجت أتمشى وأسأل الناس على أقرب استوديو تصوير، إلى أن عثرت على واحد قريب نوعًا ما من الفندق. أخرجت كارت الذاكرة من الهاتف، وناولته للمصوّر، ثم انتظرته حتى طبع الصورة، فنقدته ما طلب، وانصرفت. وفي الطريق هاتفت "موكشة" فتعجب من سرعة إحضاري النقود، ولكنه لم يطلب تفسيرًا عن كيفية حصولي عليها، فأعفاني من حرج كذبة كان ولابد كاشفها.. اتفقنا على أن نلتقي في المساء، فأسلمه الصور والنقود، وخلال بضعة أيام يسلمني جواز السفر.

وقد كان.. ما أن مرت بضعة أيام، حتى قابلته وأعطاني جواز السفر، وقال لي إنني وصديقي محظوظان، لأن الأوضاع في سوريا مشتعلة وأغلبية المصريين الموجودين بها يعودون إلى مصر في هذه الأيام، غير أن أمن المطار في حالة تراخٍ، الأمر الذي سيقلل نسبة اكتشاف جواز السفر المزور.. شكرته وذهبت على الفور لكي أحجز تذكرتين عودة إلى القاهرة.

كنا يوم الخميس، وتمكنت من حجز التذكرتين يوم الاثنين ١٨ إبريل ٢٠١١، وجاهدت طوال تلك الأيام، حتى استطعت إخراج "صلاح الدين" من عزلته، وجعلته يختلط بالناس ليعتاد وجودهم.. حدثته عن الطائرات وجعلته يشاهد حلقات عنها على اليوتيوب، لكي أكسر حاجز الخوف والرهبة داخله من ركوبها. وأكدت عليه مرارًا أن ينسى اسم "صلاح الدين الأيوبي" هذا، فمن الآن سنستخدم اسمه الحقيقي "يوسف" أمام الجهات الرسمية والحكومية، سواء هنا في سوريا أو مصر. وفي المطار جلست أعيد عليه تلك التعليمات إلى أن تأكدت تمامًا أنه حفظها. ورغم ذلك لم يغادرني القلق إلا عندما خرجنا من مطار القاهرة الدولي.

بعد وصولنا مصر بأسبوع بالتمام والكمال، وتحديدًا يوم الاثنين الموافق ٢٥ إبريل ٢٠١١، أطلق الجيش السوري عمليات عسكرية واسعة أدت إلى مقتل العشرات.. فاشتعلت الأحداث في سوريا، فتأكدت أنني فعلًا شخص محظوظ كما قال "موكشة"، وتأكدت لي حقيقة أن الله معي، فلو كنا تأخرنا أسبوعًا آخر لما استطعنا أن نعود إلى مصر بهذه السهولة!

## (٣٥)

قدمته إلى أمي، وأصدقائي وأهل القرية، بصفته الحج يوسف رئيسي في العمل الذي خسر كل أمواله بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية بمصر عقب ثورة يناير، وسوف يقيم عندنا إلى أن يفرجها الله عليه.

وسريعا اعتاد "صلاح الدين" على أهل القرية، وأصبح يتعامل معهم مباشرة دون الحاجة اليّ، فأصبحت أقضي معظم الوقت ماكثاً في منزل اللواء "حمدي"، الذي توطدت علاقتي به وأصبح مرجعي في كل ما يُستعصي عليّ فهمه. أستطيع أن أقول إنني أحببته، ليس حبًا في ابنته - التي بالفعل كانت سببًا رئيسًا في اقترابي من والدها - بل حبًا لشخص تمنيت لو كان أبي مثله.

أصبحت لا أرى "صلاح الدين" كثيرًا، فكنت أعرف أخباره من والدتي أو عمي. قالا لي إنه دائم المكوث أمام التلفاز، لا يغادر المنزل إلا ذهابًا إلى المسجد للصلاة، ثم يعود إلى التلفاز ثانيةً، فيستمع إلى ما تيّسر من القرآن الكريم ثم يشاهد بعض الخطب على القنوات الإسلامية.

ولما تقابلنا يومًا بعد صلاة الجمعة، لاحظت أنه قد بدأ يطلق لحيته إلى أن عادت كما كانت، ولكنه قص شاربه على طريقة شيوخ تلك القنوات التي يشاهدها. قلقت عليه، فراقبته فوجدتُ أن فترة مكوثه في المسجد بدأت تطول، أحيانا كان يقضي الفترة من صلاة الظهر حتى صلاة العصر كلها بالمسجد، وأحيانًا أخرى من العصر إلى المغرب، وعندما يعود ليلًا يجلس أمام نفس القنوات الإسلامية التي أصبحت تتحدث في السياسة.

كان عام ٢٠١١ غنيًا بالمسيرات والمظاهرات والتحركات الثورية، فلم يكد يمر يوم جمعة إلا وتجد مظاهرة هنا أو مسيرة هناك. وبعد دستور مارس، بدأت تقوى شوكة المجلس العسكري الذي اتخذ من إجماع الناس للتصويت بـ "نعم" على الدستور، شرعية له. فأصبح يسحل ويضرب معارضيه، تحت غطاء ديني من الجماعات الإسلامية وغطاء سياسي من أنصاف فلول نظام مبارك، الذين ركبوا الموجة الثورية لما نجحت الثورة، وكذلك غطاء شعبي وَفَرَه أشباه الإعلاميين الذين غيّروا مواقفهم، بعد نجاح الثورة، كما تُغيّر الأفعى جلدها. كانت كل الأحداث تصب في مصلحة نظام مبارك كما قال اللواء "حمدي" من قبل. ويومًا بعد يوم يزداد القمع والسحل، فنعود رويدًا رويدًا إلى الدولة البوليسية التي كانت عليها مصر قبل الثورة.

تملكني اليأس، فجلست مع "صلاح الدين"، وحاولت أن أذكره بمهمتنا وسبب بعثه. ولكنه طلب إليّ أن أصبر عليه حتى يصبح مُلمًّا بكل أمور السياسة الحديثة والدين. أعجبني تفكيره، رغم أنّ القلق ساورني أيضًا. فمن يريد أن يتعلم السياسة لا يجلس طوال الوقت في المسجد، أو أمام قنوات دينية! ولكني آثرت السكوت، ثقةً في رجاحة عقل رجل كان سلطانًا يومًا ما، حتى حدث أول صدام بيننا لما سمعت تعليقه على "مذبحة ماسبيرو"، التي وقعت في التاسع من أكتوبر عام ٢٠١١ ووجدته فخورًا بما فعله السلفيون ضد الأقباط، ويردد كلام الإعلام. حاولت كثيرًا أن أجعله يرى الأمر من وجهة نظر أخرى، ولكنه لم يكن ليصغي إلى "كافر" مثلي. نعم.. هكذا وصفني.

لم يكن هذا كلام "صلاح الدين" الذي أعرفه، كلمة "كافر" تلك جديدة على أذني، غير أني بدأت ألحظ تغيرًا على شخصيته، بدأ طفيفًا ولكنه يزداد

تدريجيًا. حاولت أن أعرف منه سبب ذلك التغير لكنه لم يبح، فلم أضغط عليه، وقررت أن أترك الأمر للأيام، فهي – وحدها – كفيلة بأن تثبت صحة حدسي من عدمه.

## (٣٦)

يوم ١٩ نوفمبر كانت أحداث "محمد محمود" ، وكنتُ يومها عائدًا إلى المنزل، بعد أحد المشاوير التي ألتقي فيها بـ"ندى" صدفة. جلست بجوار "صلاح الدين" العائد لتوّه من صلاة ما، لا أعرف إن كانت ظهرًا أم عصرًا. فتحت التلفاز وجلست أتابع الأحداث على قناة "التحرير". مرت دقائق قبل أن يمسك بجهاز التحكم عن بعد، ويغيّر المحطة إلى قناة "الناس" ويجلس مستمتعًا يشاهد الشيوخ وهم يكفّرون من في التحرير الآن، ويتهمونهم بالعمالة لصالح دول أجنبية ما.

كنت قد اتفقت مع "محمد أمين" على أن نذهب إلى "التحرير" في اليوم التالي، لكي نشارك في الأحداث كما تعودنا أن نفعل مؤخرًا. فطلبت من "صلاح الدين" أن يرافقنا لكي أثبت له – عمليًا – كذب الإعلاميين جميعًا، بمن فيهم شيوخه المبجلون، فرفض متعللاً بأنه مريض وسوف يلازم الفراش! وكنت أتوقع ذلك الرفض، فذهبنا –أنا و"محمد" – وحدنا.

في التاسعة من صباح العشرين من نوفمبر، كنا في موقف السيارات بدمنهور. ركبنا ميكروباص بسبب توقف حركة القطارات التي تأثرت بالاحتجاجات، فوصلنا إلى موقف "عبود" بالقاهرة في الثانية عشرة ظهرًا تقريبًا. ركبنا سيارة أجرة كي نصل ميدان "التحرير" بسرعة.

كانت الأعداد غفيرة.. المسيرات تتحرك في كل الشوارع وتصب في قلب الميدان. وقفت مع "محمد أمين" على بداية شارع "محمد محمود" من ناحية

"التحرير"، ظهرانا للمستشفى الميداني في منتصف الميدان، وأعيننا ناظرة إلى نهاية الشارع حيث قنابل الغاز الملقاة من قوات الأمن على الثوار الذين يردون على قنابلهم بالحجارة.

تقدمنا باتجاه الأحداث ببطء كأننا نشاهد فيلمًا سينمائيًا يعرض مشهدًا بالتصوير البطيء. كل شيء أمام عيني يمر ببطء كأنني أحلم باستثناء بعض الشباب راكبي الدراجات البخارية، كانوا يمرون بجوارنا مسرعين، يذهبون إلى الاشتباكات خالين، ويعودون حاملين - فوق دراجاتهم - جثامين المصابين والمغشى عليهم، وأحيانًا الموتى. مرت بجواري دراجة بخارية يقودها شاب في العشرين من العمر أو أكبر قليلًا. يضع أمامه فوق "تانك" الوقود جثمان شاب آخر، لم أعرف وقتها إذا كان ميتًا أو حَيًّا لكنه بدا مغشيًا عليه، وخلفه يقبع ثالث ركبته دامية ويتلوى من الألم. كان ممسكًا ركبته بيد وبالأخرى متشبثًا بالمقعد الحديدي الموجود وراءه، ويبدو أنه نسي أنه فوق دراجة بخارية، فقد ترك المقعد ولفّ ذراعيه حول ركبته فاختل توازنه، وأوشك على السقوط، وانتقل هذا الاختلال إلى السائق فاهتزت الدراجة البخارية ليسقط من عليها جثمان الشاب المغشي عليه. هرولت ناحيته أنا و"محمد"، فحملناه وجرينا به إلى المستشفى الميداني. وضعناه في إحدى الخيام، فطلب منا أحد الأطباء المتطوعين أن نحضر له "خميرة"، لأن هذا الشاب قد استنشق الكثير من الغاز، وللأسف سخونة الأحداث أدت إلى زيادة أعداد المصابين، وأوشكت الخميرة التي كانت بحوزتهم على النفاد.

كنت غريبًا عن القاهرة، ولم أكن أعرف أين أذهب بالضبط للحصول على الخميرة، فوَصف لي الطبيب شارعًا - لست متذكرًا اسمه الآن - متفرعًا من

الشارع الموازي لـ "محمد محمود"، في آخره موجود "فرن بلدي" من المؤكد أنهم بيبيعونها هناك. ثم أخرج من جيب قميصه العلوي ورقة مالية من فئة العشرين جنيهًا، ومد يده بها ناحيتي. رفضت أن آخذها، لكنه أصر فأخذتها، ثم استدرت متجهًا إلى حيث أشار، قبل أن تستوقفني يد أخرى، بعشرين جنيهًا أخرى، ويد ثالثة بعشرة جنيهات ورابعة بخمسة وخامسة وسادسة، إلى أن أصبح معي ما يقرب من المائتي جنيه دون أن أضيف إليها ما سأدفعه أنا و"محمد أمين". رجعت إلى الطبيب مرة أخرى، وقلت له:

-دلوقتي أنا معايا ٢٠٠ جنيه، غير اللي هدفعه أنا والراجل ده، يعني قول ٢٥٠ أو ٣٠٠ ومش معقول هشتري خميرة بـ ٣٠٠ جنيه يعني، إحنا لو هنخبز عيش يوّكل كل الثوار مش هنحتاج بـ "٢٠ جنيه" خميرة أصلا

ضحك ثم قال:

-خلاص استنى أكتبلك حاجات تشتريها من الصيدلية.

كتب في ورقة صغيرة، شاش وقطن طبي، ومطهر، وبعض المضادات الحيوية، ثم مد يده بالورقة إليّ وطلب مني أن أذهب للخيام المجاورة لأرى إذا كان ينقصهم شيء فأحضره معي. في إحدى الخيام وجدت الشاب ذا الركبة الدامية. ضمد له الطبيب ركبته ولفها بالشاش، ثم وقف متأهبًا للمغادرة. سألته، عن اسمه فقال "أحمد"، فسألته:

-طيب مش عاوز أي مساعدة يا "أحمد"؟

-لا تسلم ربنا يخليك.

-أسندك حتى لغاية بره الميدان وأوقفلك تاكسي؟

ردد كلامي متعجبًا:

-بره الميدان! مين قالك إني هخرج من الميدان؟!

-أومال إنت رايح فين؟

-راجع أطلّع ميـ... ولاد الكلب دول.

وأشار ناحية الاشتباكات، فأشرت ناحية ركبته وقلت:

-يا ابني هو إنت قادر تتحرك؟ أقعد يا حبيبي أقعد وبطل هبل، ولا أقولك تعال أروّحك أحسن.

-ما هنا بيتي!

أضفت الطلبات القليلة التي جمعتها من الخيام المجاورة إلى ورقة طلبات الطبيب الأول، وانطلقت أنا و"محمد" إلى حيث أقرب فرن أو مكان تُباع فيه الخميرة. لم نجدها في الفرن، ولكن العاملين به أرسلونا إلى منزل سيدة تدعى "أم وائل" فمشينا حسب وصفهم حتى وصلنا.. طرقنا الباب فخرجت لنا امرأة هرمة، محنية الظهر، سألتها إذا كانت تعرف أم وائل، فأجابت أنها هي:

-طيب عندك خميرة يا حاجة؟

تفحصتنا مليًا قبل أن تسأل:

-عاوزين قد إيه؟

-كرتونة.

بعد دقائق عادت تحمل كرتونة خميرة صغيرة، ولما وجدتها تمشي ببطء كأنها سجين يرسف في قيده، تقدمت إليها، وحملت عنها حملها فشكرتني وقالت:

-١٢٠ جنيهًا يا ابني.

صدمني الرقم فعلى حد علمي أن أسعار الخميرة أقل من هذا المبلغ بكثير، قلت:

-الكلام ده يا حاجة تقوليه للناس اللي هتاخد الخميرة دي تتاجر بيها، تبيعها، أو صاحب فرن هيخبز بيها ويكسب. لكن إحنا غلابة وربنا يعلم إني لامم الفلوس دي من جيوب الثوار في "التحرير" عشان ننقذ العيال الغلابة اللي بتموت من غاز الداخلية.

تغيرت ملامح وجهها فجأة، وتبدلت الوداعة بالغضب، والطيبة في عينيها أضحت مكرًا، ثم قالت:

-طالما ثوار يبقى هاخد ١٢٠ دورال!

-إيه دورال ده؟

-اللي بتقبضوه من أمريكا وإسرائيل يا عملا يا مخربين.

تدخل "محمد" محاولًا أن يوضح لها حقيقة ما يحدث في الميدان، فأوقفته بإشارة من يدي ومددت الأخرى بالمبلغ المطلوب "مائة وعشرون جنيهًا" ولكنها رفضت أن تأخذها وأصرت على زيادة المبلغ "طالما ثوار يبقى تدفعولي أكتر، يا مفيش خميرة. مش كفاية إني هشارك في خراب البلد!"، ولم يكن أمامنا سوى الرضوخ، فدفعت مائة وخمسون جنيهًا وأخذنا كرتونة الخميرة وغادرنا وفي قرارة أنفسنا نعلم أن الثورة في طريقها نحو الموت.

لما رجعنا إلى الميدان استقبلنا الناس بابتسامات حرجة، ثم قال الطبيب موضحًا، أنهم بسبب تأخرنا، اعتقدوا أننا أخذنا النقود وهربنا.. حكيت لهم ما لاقيناه من "الهرمة أم وائل" فضحكوا.

طلبت من الطبيب أن يستخدم الخميرة كي نطمئن على ذلك الشاب الذي سقط من فوق الدراجة البخارية، والمغشي عليه داخل الخيمة. فقال إن هذا الشاب أفاق، وعاد مرة أخرى إلى الاشتباكات. تعجبت، فحدثني عن أن هذا الأمر طبيعي جدًا، وقد مر عليه حالات أغرب من تلك بكثير.

قال:

-فيه واحد اتصاب برصاص مطاطي في ذراعه، ولما جالي نضفتله الجرح وربطهوله. قام سابني وراح في أول الاشتباكات تاني.. ساعة ورجعلي تاني إيده التانية محروقة بسبب قنبلة غاز اترمت عليهم قدام منه، قام شالها ورماها تاني على العساكر.

قلت بمرارة:

-وبعد ده كله الإعلاميين يقولوا إننا عملاء وخونة!

-خليهم يقولوه اللي يقولوه. قولي كده "عكاشة" ياخد كام دولار ويقبل تتقلع عينه زي "أحمد حرارة"؟ ياخد كام دولار مقابل طلقة خرطوش في جسمه؟

ذهبت إلى موقع اشتعال الأحداث بالقرب من وزارة الداخلية، فوجدت "أحمد" في الصفوف الأمامية للمتظاهرين، في المواجهة مباشرة، غير عابئ بالإصابة في ركبته. ما الذي يدفع هذا الصبي لمثل ذلك الجنون؟ ومن أجل أي شيء قد

يضحي الإنسان بروحه؟ ما حجم الظلم الواقع عليه - وهو لم يتخط العشرين عامًا - لكي يجعله يقف أعزل كأسد جسور، في مواجهة عدو مسلح؟

قطع سيل تساؤلاتي، نافورة دماء تخرج من رأسه جراء إصابته بفارغة قنبلة غاز مسيل للدموع أطلقها جندي ينفذ أوامر قائده الذي من المحتمل أن يكون غير راضٍ عنها. سقطت فارغة قنبلة الغاز على رأس "أحمد"، فشجت رأسه وسقط صريعًا. هرولت ناحيته وأنا أهتف باسمه، اعتقد المحيطون به أنني صديقه، فتركوني أحمله. جريت به نحو الميدان ولاحقني بعضهم.. وفي المستشفى الميداني علمت أن "أحمد" مات.

على الفور تطرق عقلي لفكرة استخدام تعويذة إحياء الموتى عليه، ولكن ازدحام الميدان بالبشر ووجود "محمد أمين" ملاصقًا لي جعلني أتراجع عن ذلك التفكير، ولو بشكل مؤقت.

ليتك سمعت كلامي يا "أحمد".. ليتك غادرت حينما قلت لك.

انهمرت الدموع من عيني بغزارة، حتى والدي لم أبكِ عليه هكذا.. وظل "محمد أمين" يواسيني في صمت، ويربت بيده على كتفي وعيناه تذرفان الدموع مثل عيني أو أكثر.

بعد فترة قطع الصمت رنين هاتفي، وكانت والدتي تتصل لتخبرني عن حُمى أصابت الحج "يوسف" - "صلاح الدين" - ورفعت درجة حرارته حتى أصبح يهذي بكلام غير مفهوم عن بعث وحياة وموت وبرزخ وأشياء أخرى لم تستطع فهمها، وأنها وحدها في المنزل ولا تعرف كيف تتصرف. طلبت منها أن تبلغ عمي حتى أصل، وقررت أن أترك "أحمد" يواجه مصيره وموته دون تدخل مني،

فلو بعثت كل شهداء المظاهرات، سأحتاج عمرًا على عمري!

أخذت "محمد" وخرجنا من الميدان.. ثم أوقفنا سيارة أجرة بصعوبة، وقلنا للسائق أن يقلنا إلى موقف السيارات بـ"عبود" .. وفي الطريق، فكرت أنني ظلمت "صلاح الدين"، حينما اعتقدت أنه يدعي المرض ليتهرب من المجيء معنا إلى "التحرير" .. لم يكن يتمارض.. كان مريضًا بالفعل:

-إنتوا كنتوا فين كده يا بهوات؟

كان ذلك سائق "التاكسي"، فرد عليه "محمد":

-في ميدان "التحرير" يا أسطى.

-الله يخرب بيت ميدان "التحرير" على الثورة على اللي عملوها في ساعة واحدة.. أنا مش فاهم والله العيال دول عاوزين إيه تاني أكتر من كده. مش كفاية خربوا البلد؟

صحت به:

-عاوزين إيه تاني إزاي يا أسطى؟ هما كانوا أخدوا حاجة أولاني عشان يعوزوا تاني؟!

نظر في المرآة، فرأى بقع الدم على قميصي، ثم قال:

-عدم اللامؤاخذة يعني، أخدوا حاجة إزاي؟ إنت ماشوفتش الأستاذة لميس وهي بتعلن عن حجم التمويل الأجنبي اللي أخدوه العيال بتوع الثورة ولاّ إيه؟

واستدار ليواجهني، تاركًا السيارة تمشي بمفردها:

-على فكرة إنت بتكلم واحد فاهم، سواق تاكسي آه بس مثقف وبقرا جرانين كتير.

قررت أن أتوقف عن مناقشته، فهذا ومن هم على شاكلته، من أتباع الإعلام، لا جدوى من الحديث معهم لأنهم يقدسون كل من يطل عليهم عبر التلفاز. إذا عشت لآخر الزمان، وكنت من المؤمنين الذين رأوا كلمة "كافر" المكتوبة على جبين "المسيخ الدجال" هل تستطيع أن تقنع من لا يراها بوجودها؟ إذا كنت تعتقد أنك قادر بكلامك أن تجعله يؤمن بوجودها.. أن تجعله يصدقك ويكذب "المسيخ الدجال" إذن.. فلتناقش أتباع الإعلام - مسيخ دجال العصر الحالي - ولن تقدر أن تقنعهم أنهم على خطأ.

دخل "محمد" في نقاش مع السائق، بينما شغلت نفسي عنهم بالتفكير في "ندى"، حتى داس السائق مكابح سيارته بقوة، فخرجت عن شرودي وعدت إلى أرض الواقع على صوت صرخات العجلات احتجاجًا على احتكاكها بالأسفلت، قبل أن تتوقف السيارة، وتندفع أجسادنا داخلها، متخبطة.. صاح السائق فينا:

-يالله ياض إنت وهو انزلوا، وشوفولكم حاجة تانية تركبوها، ولا كلموا أمريكا تبعت حد يوصلكم يا خونة ياللي دم العساكر لسه ما نشفش من على هدومكم!

وأشار ناحية قميصي، حيث بقعة الدم التي أحدثتها إصابة "أحمد".

رفض "محمد" النزول، وبدا لي أنه ينوي الشجار مع السائق، ليس بسبب رفضه إكمال توصيلنا، ولكني أعتقد أن "محمد" كان يبحث عن أي شخص ليصب عليه جام غضبه والسلام، بغض النظر عن هوية هذا الشخص. فتح السائق باب سيارته الأمامي، ونزل. اعتقدت أنه سيجذبنا من التاكسي ويلقي بنا في

الشارع، ولكنه صاح بالمارة قائلًا إنه كان يقلنا من ميدان "التحرير"، ثم ادعى أننا عملاء وأنه رآنا ونحن نقتسم الأموال التي تحصلنا عليها من الأمريكان قبل أن نركب معه، وأضاف أنه رأى بنفسه الدولارات بحوزتنا.. التف الناس حول التاكسي ومنعوا خروجنا، واقترح أحدهم أن يضربونا حتى يظهر لنا أصحاب، فرد آخر بأنه يتوجب عليهم تسليمنا للشرطة، وثالث اقترح أن يسلمونا للجيش وشرطته العسكرية. وتوالت الاقتراحات التي لا تبشر بالخير فارتعدت أوصالنا خوفًا مما نسمع، حتى قال رجل ذو "بشلة" إن العقاب الأمثل لنا، أن يأخذوا الدولارات منا ويتركونا لنعيش بذنب خيانة الوطن دون مقابل. فقال "محمد" إنه موافق على هذا الاقتراح، ولكن ماذا لو ثبت كذب السائق، ولم يجدوا معنا أية نقود بعملات غير مصرية؟ همهم القوم، فتدخلت أنا وقلت، يتم تسليم السائق إلى الشرطة وتتركونا نرحل في سلام.

تنفسنا الصعداء ونحن نبتعد سيرًا تجاه أقرب سيارة متجهة إلى "عبود"، ومن خلفنا الجموع ملتفة حول السائق الذي كان الرجل ذا "البشلة" يكيل له اللكمات والسباب.

وصلنا إلى الموقف، وركبنا سيارة "بيجو" موديل ما قبل ثورة ١٩ على ما يبدو. جلسنا في الكنبة الخلفية، وانتظرنا بضع دقائق حتى اكتمل عدد الركاب، فأدار السائق السيارة ومعها الراديو وكانت إذاعة إسلامية على ما أذكر، إذ إننا استمعنا إلى بضعة أحاديث نبوية وفتاوى دينية قبل أن نستمع إلى البيان التالي:

-أعزائي المستمعين معنا الآن مراسلنا "ذكر اسم مراسل ما، ونسيته"، من شارع "محمد محمود".. إيه الأخبار عندك؟

-الأوضاع هنا مشتعلة بين أفراد الشرطة الذين يدافعون عن وزارتهم من الهجوم الذي تتعرض له من قبل من يطلقون على أنفسهم "ثوار"، وما هم بذلك.. إنهم مستمرون في إلقاء زجاجات المولوتوف ناحية الجنود العُزّل.

-وهل توجد إصابات أو حالات وفاة؟

-توجد إصابات بالطبع.. إصابات كثيرة جدًا معظمها من أفراد الداخلية، جراء إلقاء المولوتوف عليهم من المتظاهرين.. أما عن حالات الوفاة فقد استشهد خمسة جنود، وضابطان، اليوم فقط.

-شكراً أخي/ .... - أعتقد أني تذكرت اسم المراسل الآن، فبعد هذا الكلام لابد أن يكون المراسل هو تامر من غمرة - على هذا المجهود. هذا وقد أصدر وزير الداخلية بيانًا اليوم يناشد فيه رجاله باتخاذ أقصى درجات الصبر وضبط النفس، وعدم استخدام أية أسلحة ضد الثوار.. كما حذر سيادته الثوار من وجود عناصر بينهم، تريد هدم هذا الوطن واحداث الفرقة بين...

همّ "محمد" بالحديث مع السائق - الذي بدا عليه الأسى من هول ما سمع، وبدأ يسب الثوار والثورة - ولكنني همست في أذنه:

-إحنا المرة اللي فاتت ربنا نجانا بمعجزة، والحمد لله إننا كنا في وسط البلد، لكن السواق ده لو قرر ينزلنا على الزراعي هنا، يبقى بعون الله هناخدها الدمنهور مشي، وأنا ماليش نفس أمشي الحقيقة، فَلِم الدور أحسن.

## (٣٧)

وصلنا القرية بعد صلاة العشاء بقليل فافترقنا كل إلى داره. توجهت مباشرة إلى الغرفة المقيم بها "صلاح الدين"، فوجدت الحجرة ممتلئة بأصحاب اللحى والشوارب الحليقة، ذوي الجلابيب القصيرة والابتسامات السمجة، يفترشون الأرض بجوار سرير "صلاح الدين".. لم أستطع أن أعرف عددهم.. فبسبب تشابههم، خيّل إلى أنهم شخص واحد مصنوع منه أكثر من نسخة.

ألقيت السلام، فردوه بالفصحى بصوت أجش.. مددت يدي أسلم بها عليهم، وكنت أردد "خطوة عزيزة"، وأنا أُمعن النظر في الوجوه، فيأتيني الرد "ألف سلامة على الشيخ يوسف"، وهكذا حتى وصلت إلى آخر الجالسين، فوجدته "الشيخ إبراهيم" صافحني بحرارة، وضمني إليه كأننا أصدقاء قدامى - ولم نكن يومًا كذلك- ولما انتبه إلى الدم على قميصي تغيرت ملامحه، وتجهم وجهه، وكساه الغضب. فاستأذنتهم أن أذهب لأغيّر ملابسي.

لما عدتُ وجدتهم انصرفوا جميعا باستثناء الشيخ "إبراهيم" الذي مكث ليقنعني أن أنضم إليهم حتى أكسب الدنيا عن طريق وقوف الجماعة في ظهري ومساعدتي. وأكسب الآخرة، عن طريق رضا الله. وما إلى ذلك من الممتلئة بالهراء مضافًا إليها "قال الله وقال الرسول"، كي يزيدها - ذكر الله ورسوله - ثقلًا.

تتساءل الآن: إذا كنت قد اقتنعت بكلام الشيخ "إبراهيم"؟

حسنًا.. سأجيبك، بعد أن أحكي لك قصتي معه وكيف عرفته؟!

## (٣٨)

كنا في أواخر عام ٢٠٠٧ حين جاءني جاري الشيخ "محمود" السلفي، لنذهب سويًا إلى منزل "أخ" في قرية مجاورة لقريتنا، كي أقوم بتركيب "دش" له. وفي الطريق من قريتنا إلى الأخرى حدثني جاري عن ضيق حال ذلك الأخ، وكيف أن الأخوة هم من ساعدوه، بـ "فَرشَة" أمام جامع "الهدايا" بدمنهور، عليها بعض زجاجات العطور وعيدان المسك وشرائط الكاسيت الدينية، والكتيبات التي تتحدث عن عذاب القبر وأهوال القيامة... إلخ. ولما بدأت أموره المادية تتحسن زوجوه لأخت صالحة من أسرة ملتزمة، عملًا بحديث سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام: "من استطاع منكم الباءة، فليتزوّج".

وصلنا إلى منزل هذا الأخ، وقدمنا لبعضنا الشيخ "محمود"، فأشار إليّ وقال:

-هذا "مدحت" اللي هيقوم بتظبيط الدش بإذن الله تعالى.

وأشار إلى الشيخ وأضاف:

-وهذا الأخ "إبراهيم" يا "مدحت" اللي حدثتك عنه.

أومأت برأسي أن "أهلًا"، في حين اتسعت ابتسامته، وحيّاني بصوت أجش "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته".

منذ الوهلة الأولى لم أكن مرتاحًا له، ولا لابتسامته السمجة تلك، عكس شعوري تجاه جاري الشيخ "محمود"، رغم تشابه مظهرهما الخارجي - جلباب قصير، لحية طويلة وشارب مهذب، مع زبيبة صلاة تحتل منتصف الجبهة، وأخيرًا

ابتسامة لا تفارق وجهيهما - هذه المؤهلات المفترض حصولك عليها إذا أردت لقب "شيخ" أو "أخ".

بعد أن فرغت من تركيب "الدش" ونزلنا إلى "المندرة"، حيث وضع التلفاز، الذي قمت بتوصيل الريسيفر عليه، وجلست أرتب قنواته. التفتُ يمينًا ويسارًا باحثًا عن الشيخ "إبراهيم" لأسأله عن التصوّر الذي يريدني أن أرتب القنوات به فلم أجده. سألت الشيخ "محمود" عنه، فقال إنه ذهب لإحضار الشاي، فانتظرته.

كان التلفاز في منتصف مكتبة خشبية، ممتلئة بكتب كبيرة قتلت وقت انتظاري في قراءة عناوينها، فوجدتها "فتح الباري" و"رياض الفاتحين" و"مداد الدين"، بالإضافة إلى مجموعة كتب أخرى لم أتبين أسماءها من موضع جلوسي، كانت تلك الكتب سوداء ومرقمة من ١ إلى ١٢ ومرصوصة جنبًا إلى جنب، حسب الترتيب الأبجدي.

دخل علينا الشيخ "إبراهيم" يحمل في يده صينية كبيرة عليها أكل، وضعها أمامنا، وجلس. تقدم الشيخ "محمود"، بينما ظللت أنا في مكاني محرجًا، وتحججت بأنني لست جوعانًا، فقام الشيخ "إبراهيم" بجذبي حتى اقتربت من صينية الأكل، وأكلت.

فرغنا من تناول الطعام، فحمل الشيخ "إبراهيم" الصينية إلى خارج الغرفة، ثم عاد بالشاي، وسألني:

-خلصت يا أخ مدحت بإذن الله؟

إلى الآن لا أعرف إذا كانت جملة "بإذن الله" تلك، عائدة على الانتهاء من

"الدش" بإذن الله، أم كان يقصد أنه يريدني أن أصبح "أخًا" بإذن الله؟! أجبت:

-لا لسه يا شيخ، كنت مستنيك تقولي عاوز ترتيب القنوات يبقى إزاي؟

-اللي الشيخ "محمود" يشوفه، هو أقدم مني وأكيد يعرف أكتر مني!

إلى الآن أيضًا لا أعرف إذا كان يقصد بجملة "هو أقدم مني" أقدمية في الجماعة، أم أقدمية في "الدش"؟! نظرت إلى الشيخ "محمود" الذي قال:

-ما تحطش قنوات خالص، هما الـ ١٧ قناة الإسلامية وكفى!

ومع آخر رشفة من كوب الشاي كنت قد انتهيت من حذف القنوات، فوقفت استعدادًا للانصراف ووقف من بعدي الشيخ "محمود".. نزل معنا الشيخ "إبراهيم"، حتى وصلنا إلى آخر الشارع الواقع فيه منزله، فاستوقفه الشيخ "محمود" طالبًا منه أن يعود.. اقترب مني الشيخ "إبراهيم" وأخرج مبلغًا لم أتبين قيمته، ووضعه في جيبي، فأخرجته وأعدته إليه رافضًا بشدة أن أتقاضى أية نقود عن هذا العمل، يكفي "كرم" ضيافته لنا.

كان ذلك هو اللقاء الأول، أما اللقاء الثاني فكان في اليوم التالي مباشرة، حين هاتفني متحججًا بأنه يريد إعادة ترتيب بضع قنوات أخرى، وحين ذهبت إليه لم أجد شيئًا من ذلك، ولكني وجدته يحاول التقرب إليّ، فبدأ يحدثني عن ماضيه قبل أن يهديه الله "هكذا قال". حكى لي عن عمله "مبيّض محارة"، وكيف أنه وصل لمرحلة متقدمة جدًا في تلك الصنعة، رغم حداثة سنه، حتى إنه أصبح يأخذ شغل مقاولات من المهندسين، وأحيانًا الشركات الصغرى، لحسابه، لكنه ضحى بذلك المال كله، في سبيل الله. سألته كيف ذلك؟ فرد بأنه بعد أن هداه الله، وأطلق لحيته، قلّ تعامل الناس معه، فأصبحت الشركات تخشى

فضول قوي للتأكد من صحتها، فأصبحت أجلس معه في المعرض كلما أتيح لي ذلك.. وبعد شهر متابعة لاحظت أن معظم زبائنه من "الأخوة" أمثاله وأمثال الشيخ "محمود" جاري. كما لاحظت أيضًا أنهم لا يفاصلون معه في السعر كما يفعل معظم الفلاحين مع الباعة أصحاب المحلات، وإذا حدث ذلك - وقلما يحدث - يكون المشتري غير ملتح، ووقتها يشير الشيخ إلى ذقنه قائلًا:

-الدقن دي مش مربيها عيرة، واللي في قورتي دي علامة صلاة مش حاكك راسي في الحيطة عشان تطلع!

فيصدقه المشتري الساذج، ويفرح بمزاحه وابتسامته السمجة.

كل ذلك يحدث في حالات البيع نقدًا، أما عن التقسيط فحدث ولا حرج. كان يأتي للمعرض يوميًا زبائن "أب وأم" في حاجة لتجهيز ابنتهما وليس معهما مالًا كافيًا، فيأخذ الشيخ منهما ما بحوزتهما من مال، ويعطيهما ما يطلبان من بضاعة، ثم يضرب المبلغ المتبقي في اثنين، ويعلمهما بقيمته. مثلًا إذا أخذ المشتري كشوفات بمبلغ خمسين ألفًا، دفع منهم عشرة آلاف وتبقى أربعون، فيقول لهم الشيخ إن المبلغ المتبقي هو ثمانون ألفًا، لا تسألني كيف يقبل المشتري بذلك، لأنني لا أعلم.

لم أستطع صبرًا على ذلك فحدثته بما يعتمل بداخلي، ثم قلت له إن ما يفعله حرام ولا يمت للإسلام - الذي يدعي العمل به - بصلة. وكنت أعرف بعد هذا الحديث أن تلك هي نهاية عملي معه، فأخرجت كل ما في جعبتي من غضب ثم تركته وذهبت إلى المحل الصغير لأجمع أشيائي وأنصرف بلا عودة. فجاء خلفي يحثني على عدم تركه في الوقت الحالي، ويطلب مني الانتظار حتى يجد

شخصًا يحل محلي. ثم تركني أفكر في كلامه وانصرف عائدًا إلى المعرض.. ولن أخفي عليك، فقد كنت أميل إلى الاستمرار في العمل معه حتى أجد عملًا آخر.

قطع استرسال أفكاري دخول "كاشا" عليّ، و"كاشا" هو بلطجي المركز كله، وصديقي أيضًا. لا تسألني كيف أصادق "كاشا" وأعمل مع الشيخ "إبراهيم" في الوقت ذاته.

دخل "كاشا" المحل، وسلّم عليّ واحتضنني، ثم قال:

-عاوز عدة حلوة.

ابتسمت على استخدامه لفظ "عدة" الذي انقرض منذ أيام الهاتف الأرضي، وقلت:

-اختار اللي يعجبك، المحل تحت أمرك.

نظر إلى الفاترينة لبرهة، ثم عاد قائلًا:

-نقيلي حاجة على مزاجك يا حيّ.

-عاوز حاجة في حدود كام طيب؟

أخرج من جيب بنطاله رُزمة نقود، ثم ألقاها أمامي على المكتب وهو يقول:

-مش مهم الفلوس يا شقيق، خير ربُنا كتير.

ضحكت بشدة على كلمة "ربُنا" بضم الباء وقلت محاكيًا طريقته:

-ربُنا يزيدك يا معلم.

ثم اتجهت إلى الفاترينة وأخرجت هاتفًا، ناولته إياه:

-ده حلو وهيستحملك.

-طيب بكام ده؟

-خليها عليا خالص.

-لا يا أسطى حقك ولازم تاخده.

وقبل أن أقول السعر دخل الشيخ "إبراهيم"، فأشرت ناحيته وقلت لـ"كاشا":

-كويس الشيخ صاحب المحل جه أهو اتصرف معاه بقى.

نظر "كاشا" مكان إشارتي، واتسعت عيناه من الدهشة ثم سأل:

-مين؟ هيما..! إيه ياض يا هيما اللي إنت عامله في نفسك ده؟

تململ الشيخ "إبراهيم" وعاد أدراجه دون أن يجيبه، فتعجبت وسألت "كاشا":

-إنت تعرف الشيخ "إبراهيم"؟

فقال بدهشة أكبر:

-هو بقى شيخ؟ هيما زميل الترابيزة بقى شيخ!

-ترابيزة إيه؟

-ترابيزة الجمعيات.

هززت رأسي بعدم فهم، فأردف موضحًا:

-أصل إحنا مكناش بنفوّت أي جمعية غير لما نروحها، نتفرج على نِمَر، ونظبط

دماغنا بسوجارتين الحشيش التمام، وفيه جمعيات أوقات بيكون فيها ميّة "يقصد خمور"، دي بقى بتبقى ليالي ولا ألف ليلة وليلة!

حمدت الله وشعرت بأنه أرسل لي "كاشا" ليساعدني على حسم قراري بشأن ترك العمل مع هذا الشيء.. مع هذا الدجال.. ولكن أليس غريبًا أن يرسل الله رسائله مع أُناس مثل "كاشا". المهم، أنها كانت المرة الأخيرة التي أرى فيها الشيخ "إبراهيم"، ولكنها لم تكن المرة الأخيرة التي أسمع فيها أخباره، فقبل أن أنتقل إلى الإسكندرية بعد خلافي مع والدي، في منتصف عام ٢٠٠٨، علمت مصادفة من جاري الشيخ "محمود" أن "إبراهيم الكذاب" - هكذا وصفه جاري- حلق لحيته وترك الجماعة، بعد أن جرى المال بين يديه.

ولمّا عُدتُ إلى القرية، مع نهاية شهر أغسطس من العام ٢٠١٠ بعد حديثي عن التعويذة مع والدي، علمت أن "إبراهيم" قد أصبح مقربًا من أعضاء مجلس الشعب ومحافظ البحيرة شخصيًا، وأنه أصبح يقضي خدمات الناس مقابل مبالغ مادية هائلة. فبدءًا من تراخيص البناء على الأراضي الزراعية، مرورًا بتوظيف الشباب، حتى الحصول على الإعفاء من التجنيد، كل تلك الأمور وأكثر، علمت حين عودتي أن "إبراهيم" يفعلها مقابل مبالغ تدفع على حسب نوع الخدمة المقدمة.

وبعد أن نجحت ثورة يناير، تبرأ "إبراهيم" من الحزب الوطني وأطلق "إبراهيم" لحيته مرة أخرى، فاستعاد بذلك لقب الشيخ، ولكن هذه المرة لم ينضم إلى السلفيين، بل إلى الإخوان المسلمين! وبناءً عليه.. فزيارته "صلاح الدين" اليوم، لا تبشر بالخير، وتؤكد مما لا شك فيه أنه يسعى لضمه إلى الجماعة،

ويبدو أنه نجح في ذلك، فالتغيرات التي طرأت على سلوك "صلاح الدين" تشير إلى أنه أصبح مقتنعًا بتفكيرهم.

والآن.. أعتقد أنك بت تعلم أن الشيخ "إبراهيم" فشل في ضمي للإخوان.. ولكن هل نجح في ضم "صلاح الدين" للإخوان فعلاً؟

سأجيبك عن ذلك السؤال في السطور التالية.. لكن اسمح لي الآن أن أريح يديّ من الكتابة، وأعد لنفسي فنجان قهوة آخر، ثم أعود إليك.

## (٤٠)

لم أتحدث إلى "صلاح الدين" فيما يشغلني لأني قررت التمهل قليلًا ريثما تحسن صحته. وعلى فراشي في ذات الليلة راودتني أحلام يقظة كثيرة كنت فيها أنقذ حياة "أحمد" من الموت. رأيتني أجري ناحيته فأبعده من أمام فارغة قنبلة الغاز المسيل للدموع وأستقبلها أنا بدلًا منه.. أو أتفاداها أنا الآخر، فمسألة موتي بهذا الشكل ليست لطيفة على الإطلاق، خصوصًا بعد ما مررت به من مغامرات.. رأيتني ألقي بكلمات تعويذتي على جثمان "أحمد" الذي أحمله بين يديّ، فيلتئم جرح رأسه، ويحيا مرة أخرى.. رأيتني أرسل "محمد أمين" بمفرده كي يأتي بالخميرة، بينما مكثت أنا لأجبر "أحمد" على العودة إلى بيته الحقيقي، ولا يظل بالبيت الافتراضي "الميدان" .. رأيتني أضرب سائق التاكسي.. رأيتني أقتله كما قَتل "أحمد"، وأقتل السيدة الهرمة بائعة الخميرة، وأقتل مذيع الراديو وإعلاميّ التلفاز وكل الأفّاكين الدجالين. رأيتني ألتقط قنبلة غاز من التي تُلقى علينا وأعيدها إلى أحضان الجنود، لعلهم لمّا يستنشقوا الغاز وتبكي عيونهم حرقة وألمًا، يشعرون بما نشعر به نحن.

رأيتني ورأيتني ورأيتني.. حتى غلبني النوم، فرأيتني أقف وحيدًا في "الجرن" حاملًا لافتة كُتب عليها بخط عريض "ارحل"، ثم صغُر حجم الخط وكُتب مطلب ثانٍ "عيش، حرية، عدالة اجتماعية"، ثم صغر حجم الخط للمرة الثالثة، وأضيف للافتة مطلب آخر "الشعب يريد إسقاط النظام"، ثم "يا نجيب حقهم يا نموت زيهم".. ثم "يسقط يسقط حكم العسكر"، ثم وثم وثم.. ألف ثم

بألف مطلب صنعوا كلمات كثيرة، لم أعد أتبين فحواها. ألقيت اللافتة أرضًا، وهتفت فخرج صوتي من حلقي، ضعيفًا بالكاد يُسمع. نظرت إلى جواري عسى أن أجد من يهتف معي، فوجدتني لازلت وحدي. استدرت في يأس كي أغادر الجرن وأعود إلى منزلي، فاستوقفتني يد "أحمد" الذي انبثق من العدم. مال على الأرض والتقط اللافتة، ثم مسح كل ما عليها، ومد سبابة يده اليمنى إلى شعر رأسه الملوث بالدم، حيث موضع فارغة قنبلة الغاز التي قتلته صباح اليوم، ثم خَطّ بسبابته على اللافتة كلمة واحدة، خطها بدمائه ثم أعطاني اللافتة، واختفى فجأة كما ظهر. نظرت إلى الكلمة الموجودة على اللوحة، فوجدتها "حرية" يسيل دم "أحمد" منسابًا من أحرفها. وتدريجيًا انتقل سيل الدماء من اللوحة إلى عيني، فأصبحت أبكي الدم بغزارة حتى تحولت كل الأشياء إلى اللون الأحمر. اختفى "أحمد"، واختفى الجرن واختفت الرؤية نفسها تمامًا، فصرختُ واستيقظت وأنا أصرخ!

فتحت عيني لأتأكد من أنني ما زلت أرى، وحمدت الله لمّا رأيت محتويات الغرفة على أشعة ضوء النهار المتسللة من خوص النافذة. لم أسلم عقلي كثيرًا لما رأيته في ذلك الحلم، فنهضت مباشرة وتوجهت إلى الحمام.. سألتني والدتي بريبة عن سبب وجود دماء على ملابسي التي كنت أرتديها بالأمس، فتجاهلت سؤالها، وسألتها عن الشيخ "يوسف"، مصمصت شفتيها في حسرة وقالت إنه يجلس أمام التلفاز منذ عودته من صلاة الفجر. توجهت إليه، فوجدته جالسًا فوق الأريكة، فجلست بجواره واغتصبت ابتسامة من فم القلق، ثم قلت:

-صباح الفل يا سيد السلاطين.

كنت أمازحه لكي أخفف من حدة الموضوع الشائك الذي سنتحدث فيه بعد

قليل، لكنه رد بجدية:

-وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

لم أعقب، فأردف:

-هذه تحية الإسلام يا "مدحت".

تنهدتُ وأنا أقول:

-كويس إنك قولت كده عشان تقصر عليا الكلام، وأدخل في الموضوع من غير لف ودوران.

نظر لي منتظرًا أن أكمل، فسألته مباشرة:

-إيه علاقتك بـ"إبراهيم"؟

-أولًا: اسمه الشيخ "إبراهيم"، ثانيًا: علاقتي به لا تزيد على كونها صداقة وأخوة، وتقاربًا في الأفكار والخوف من الله.

-طيب ولو قولتلك إنك فاهم غلط بخصوص "أولا" وإنه مش شيخ ولا حاجة ولا يستاهل اللقب ده أصلًا، وده هيوديني لإثبات إن "ثانيًا" برضه إنت فاهمها غلط، لأن "إبراهيم" واللي زيه مش بيخافوا ربنا، ودقنهم دي لأغراض دنيوية بحتة، بيتاجروا بيها بالدين...

قاطعني صارخًا:

-كفى افتراءً على الإخوة، أتلقي الناس بالباطل وأنت لا تصلي حتى؟

تجاهلت طريقته رغم أنها آلمتني، وحكيت له حكايتي مع "إبراهيم"، فهز رأسه

باستهزاء من لا يعنيه شيئًا مما أقول، ولما انتهيت قال:

-بص سوف أتحدث معك بالعامية لعلك تعي - بشكل أفضل- ما يحدث معي.

حاول التحدث بالعامية فتلعثم، ثم قال:

-أنا إلى الآن مش مصدق ما يحدث لي.. أحيانًا أشعر أنني في حلم، لا لا مش حلم، إنه كابوس سوف أستيقظ منه لأجد نفسي نائمًا في فراشي بالشام. وأحيانًا أخرى أشعر أن الله أعادني إلى هذا الزمن، إما عقابًا لي عن ذنب اقترفته في حياتي، أو لهدف وغاية لا يعلمها إلا هو! ولكنني معظم الوقت أشعر.. لا ليس شعورًا فقط، فأنا واثق أن هذه التي تحيونها وتسمونها حياة ليست حياة، أو بمعنى أصح هي حياة ولكنها ليست الحياة الدنيا التي تعتقدون. إنها حياة البرزخ، أو حياة في عالم ما بين الموت والحساب، وتلك التي استدعيتها بتعويذتك هي روحي ولست أنا. فكما قلت لك سابقًا إن إحياء الموتى بيد الله وحده، وهذا يفسر ما يحدث.. لذا فأنا واثق أننا كلنا أموات ننتظر أن يُنفخ في السور فتحين لحظة حسابنا. باختصار.. جميعنا أموات ننتظر يوم القيامة.

كيف يصل به التفكير إلى هذا الحد؟ تغلبت على دهشتي ومازحته مرة أخرى:

-أومال فين العامية اللي قولت هتكلمني بيها؟!

نظر إليّ بحدة غضبًا من مزاحي، فأردفت:

-خلاص ما تزعلشي، وبعدين أنا مش فاهم برضه إيه علاقة اعتقادك ده بقربك من الشيوخ دول؟

قال:

-كما تعلم، فأنا أقضي معظم وقتي في التقرب إلى الله، وأمكث في المسجد طويلًا عسى أن يتقبل مني عملي فيغفر لي ذنوبي التي اقترفتها في حياتي، فأقابله بوجه كريم.. وهؤلاء الشيوخ هم من اقتربوا مني، وجمع بيننا لقاءات المسجد للصلاة أو لقراءة القرآن. ولن أخفي عليك، فأنا أرتاح لهم، وأسعد بقربهم من الله في ظل هذه الأوضاع، حيث كثرت الملهيات وانتشرت الفاحشة، وأصبحت المعصية سهلة وفي متناول يد الجميع، ورغم ذلك لا يزال هؤلاء متمسكين بدينهم وبربهم.

-بعد كل اللي قولتهولك عنهم؟

هز رأسه مؤكدًا:

-نعم بعد كل ما قلته عنهم، فأنا تعودت أن أصدق ما تراه عيناي فقط، لذا فقد اتفقت مع الشيخ "إبراهيم" على أن أعمل معه في المعرض الذي يملكه، وأنتقل أيضًا للسكن هناك، إلى أن يجد لي مسكنًا!!!

نزلت كلماته على أذني كصاعقة، بعد فترة صمت تخللها صوت القرآن المنبعث من التلفاز، تمالكت نفسي واستدعيت أحبالي الصوتية من بين براثن الصدمة، وسألته:

-طيب واللي اتفقنا عليه؟

رد بهدوء:

-أنا لم أتفق معك على شيء، أنت من وضعني في هذا المأزق رُغمًا عني، وإذا كنت سألتني قبل أن تجرب تعويذتك عليّ، كنت سأرفض أن ألقي بنفسي في هذا

الجحيم.

صرخت فيه مهددًا:

-لا يا معلم إنت هتساعدني هتساعدني، ذوق عافية هتساعدني، فخليها تيجي بمزاجك أحسن ما أقول للناس إنك "صلاح الدين الأيوبي"!

نظر إليّ نظرة فهمت معناها، لو أنني قمت بنشر الحقيقة كما أهدد، سيكون مكاني في اليوم التالي "مستشفى الأمراض العقلية" على أقل تقدير.

قال أخيرًا:

-تعقّل يا فتى، واجعل الكلام يمر على عقلك قبل أن يخرجه لسانك.

حزنت للحال التي وصلنا إليها، وحزنت أكثر للطريقة التي تحدث بها معي لأول مرة، ويبدو أنه شعر بحزني إذ قال مخففًا:

-يمكنك المضي قدمًا في طريقك وفعل ما تنوي فعله بدوني عن طريق استدعاء روح أي بطل غيري.

وأردف مطمئنًا إياي:

-ولا تقلق لن أفشي سرّك.

وهكذا خرج "صلاح الدين" من بيتي ومن حياتي كلها، وعدت كما كنت قبل سفري إلى دمشق.. عدت إلى التفكير فيمن يصلح لتلك المهمة!

## (٤١)

توالت المفاجآت.. فبعد انضمام "صلاح الدين" إلى الإخوان مباشرة وجدت صورته معلقة على جميع حوائط المنازل في قريتنا والقرى المجاورة. وفوق الصورة كتب اسمه "يوسف أيوب"، وتحتها مباشرة كُتبت عبارة "نحمل الخير لمصر"، وكُتب على يسار الصورة رمزه ورقمه في كشوف الناخبين.

كيف تم ذلك؟ كيف تقدم بطلب الترشح، وهو لا يحمل أية أوراق هوية؟ حتى جواز السفر الذي يحمله مزوّر!

مما لا شك فيه أن الشيخ "إبراهيم" استخدم علاقاته بمحافظين، لاستخراج بطاقة هوية لـ"صلاح الدين" وبشكل رسمي. ولكن لِمَ يكلف الإخوان أنفسهم عناء الرهان على "صلاح الدين" دونًا عن غيره؟ وهو الغريب الذي لا يعرفه أحد إلا منذ شهر إبريل الماضي، أي قرابة سبعة أشهر! أيدفع الإخوان بحصان "أعرج" في مضمار مهم كمضمار الانتخابات البرلمانية؟ الإخوان - كما عهدتهم - لا يراهنون مطلقًا على أحصنة خاسرة، وإن كان ذلك الحصان ابن مرشدهم لتبرأوا منه.

تحريّت عن الأمر، فوجدت ما أذهلني: أصبح للشيخ "يوسف" مريدون في غضون السبعة أشهر الفائتة، واتسعت شعبيته منذ أول شهر لتصل - ليس للقرية والقرى المجاورة فقط - بل للمحافظة كلها تقريبًا! هي شعبيته إذن من جذبت أنظار الإخوان نحوه.

ثم كانت المفاجأة الأخرى، حينما اكتسح الإخوان معظم مقاعد انتخابات

المرحلة الثانية، التي انطلقت جولتها الأولى يومي الأربعاء والخميس ١٤ و١٥ من شهر ديسمبر.. سحقوا، حزب النور، غريمهم الوحيد آنذاك، وأصبح فجأة الشيخ "يوسف" عضوا في مجلس الشعب المصري الأول بعد الثورة.. أصبح "صلاح الدين الأيوبي" عضوا في البرلمان المصري! ألا يضحكك هذا الأمر؟ أنا عن نفسي يضحكني حد البكاء.

كان اكتساح تيار الإسلام السياسي للانتخابات بمثابة صدمة أخرى لي، وقعت عليّ وقع الصاعقة، ولم يخففها سوى سخرية القدر مني بوجود "صلاح الدين الأيوبي" ضمن نوابه.

قررت أن أنظر لنصف الكوب المليان، وهو أن الشعب أخيرًا أصبح له نواب يمثلونه، وأن دور المجلس العسكري سيتقلص، وكذلك دور الحكومة، التي سيحاسبها المجلس إن أخطأت، وهكذا... ولكن عندما انعقدت أولى الجلسات، وشاهدت المهازل التي وقعت، بداية من مهزلة "حلف اليمين، بما يخالف شرع الله"، كما قال عضو ذو خلفية إسلامية، مرورًا بمهزلة "بونبوني الكتاتني"، حتى المهزلة الكبرى حينما قام مرشح حزب النور برفع الأذان داخل المجلس!

ثار الناس وسخر معظمهم من تلك التصرفات الصبيانية، التي إن دلت على شيء فهي تدل على الخواء الفكري لهؤلاء النواب، المفترض بهم محاسبة الحكومة والمجلس العسكري، بل ومحاسبة الرئيس القادم نفسه. وكنت الوحيد تقريبًا المتفائل، أو فلنقل لم يكن أمامي سوى التفاؤل. فقلت لنفسي "يالله.. أحسن من مفيش". ولم أكد أفرح بالـ "أحسن من مفيش"، حتى حدثت موقعة استاد بورسعيد. واختصارًا للوقت لن أقص عليك ما حدث في تلك الواقعة، رغم علمي أنك لا تعلم عنها شيئًا، فقد كنت في غيبوبتك وقت حدوثها.. لكن يمكنك

الرجوع إلى الإنترنت لكي تشاهد الفيديوهات وتقرأ عنها باستفاضة.

في اليوم التالي لتلك الحادثة جاءني "صلاح الدين"، وكان عبوسًا متجهمًا، كأنه يحمل هموم الدنيا فوق كتفيه. أبديت تعجبي من تلك الزيارة غير المتوقعة، فقال:

-وأنا الذي كنت أعتقد أنك ستسعد لرؤيتي؟

خرجت الكلمات من فمي، كما تخرج الحمم من فوهة البركان، بركان من غضب انفجر في وجهه:

-أسعد برؤيتك ليه إن شاء الله؟ أسعد برؤية واحد باعني ونسي القضية اللي اخترته علشانها بأمارة إيه؟

ابتلعت ريقي واستأنفت:

-إنت مش مكسوف من نفسك وانت بتكذب على الناس الطيبين اللي مصدقينك وفرحانين بكلامك اللي مش فاهمين نصه، بس بياكل معاهم عشان أول مرة يشوفوا واحد عايش وسطيهم بيتكلم فصحى؟

ثم تقمصت دور الناصح الحزين عليه:

-أوعى تكون فاكر إن الاخوان والشيخ "إبراهيم" ملايكة وبيحبوك، هما اختاروك بس عشان شعبيتك وجمهورك اللي هينضاف ليهم، رمولك طُعم البرلمان والشهرة وانت بلعته!

قال بهدوئه المعتاد:

-دعني أسألك عن أمر ما؟

أومأت برأسي، فسأل:

-لماذا استدعيّتني من رُقادي؟

-ما إنت عارف!

-أريد أن أسمعها منك مرة أخرى، الآن.

-كان عندي أمل إنك تجمعنا كعرب، وتحرر القدس زي ما حررتها قبل كده أيام الصليبيين.

صمتُ لبرهه وأكملت:

-بس شكلي كنت غلطان.

قال بنفس النبرة الهادئة، رغم سخريتي:

-نعم.. أنت كذلك، أنت مخطئ لأنك تعتقد أنه يوجد على وجه الأرض من يستطيع أن يوّحد بينكم كعرب.. كيف يحدث ذلك؟

وبدأ صوته يعلو:

-كيف يحدث ذلك وأنتم منقسمون فيما بينكم؟ ليس فقط انقسامًا بين مسلم ومسيحي. لا.. الإسلام نفسه انقسم على أيديكم، شيعي وسُني وعلوي. والمسيحية كذلك "كاثوليك وأرثوذكس". أما بالنسبة للانقسام السياسي، فحدث ولا حرج: هذا إخواني وهذا سلفي.. هذا يساري وهذا اشتراكي.. هذا ثورجي، وهذا فلول... إلخ.

لم أستطع أن أنظر إليه، فنظرت نحو الأرض خجلًا. بينما أخذت نبرة صوته تعلو

حتى وصلت مستوى الصراخ وهو يسأل:

- كيف تريد لم شمل العرب وكل فرد يشكل جماعة وحده؟! لا يوجد منزل واحد جميع من فيه متفقون على أمر واحد! ألا تلاحظ ذلك؟ ألا تلاحظ أنكم تقتلون بعضكم البعض من أجل "لعبة"؟

كان يقصد ما حدث في مباراة الأمس.. رغمًا عني بكيت، ورفعت عيني عساه يرى دموعي فَيَكُف، ولكنه أكمل صارخًا:

- كيف خُيِّل إليك أنني - أو أي إنسان على وجه البسيطة - قادر على لم شمل العرب كما تقول؟

صمت، ثم بعد فترة ربت على كتفي، وقال بنبرة حانية:

- أنت عزيزٌ على قلبي لأنني أعلم طيبة نواياك.. ولهذا سأقول لك شيئًا وأرجو منك أن تفكر فيه.

نظرت إليه متسائلًا، فقال:

- إذا أردت أن توحد العرب، فعليك أن توحد طوائف كل بلد على حدة أولًا، وقتها فقط سيصبح بإمكانك أن تفعل "ثانيًا"، وهي توحيد البلدان العربية كل بلد مع الأخرى!

## (٤٢)

أعرف أن الحقيقة مؤلمة.. لكنها في تلك المرة كانت قاتلة.. عندما سمعت هذا الكلام من فم "صلاح الدين" شعرت كأنه قد طعنني بخنجر مسموم، رغم أنه لم يقل غير الحقيقة التي نعرفها جميعًا.

أثرت كلماته على حالتي النفسية، فقلّ كلامي وخروجي من المنزل، وامتنعت عن الطعام، إلا ما يقيم صلبي. انعزلت عن العالم نحو خمسين يومًا، لم أكن خلالها أفعل شيئًا سوى، اللعب على أوتار العود والشرود فيما حدث، عن طريق التفكير في كل حرف قاله: "إذا أردت أن توحد العرب، فعليك أن توحد طوائف كل بلد على حدة أولا" . ترى.. من يستطع فعل ذلك؟ إنها مهمة شبه مستحيلة، صدق "صلاح الدين" ، حينما قال إن كل منزل في مصر لا يوجد به شخصان متفقان على الأمر نفسه.

عدت للتفكير بالشكل المنهجي الذي أفضل أن أستخدمه، فوضعت أمامي الخيارات التاريخية مرة أخرى:

"إخناتون" الذي حارب الكهنة وجمع الناس على عبادة الإله الواحد، لا أعتقد أنه يصلح لتلك المهمة، ناهيك عن صعوبة البحث عن جثمانه، وتعليمه اللغة العربية باللهجة المصرية، وحتى إن وقعت معجزة وحدث ذلك فإخناتون أصلًا غير مناسب للمهمة.

"أحمس" لسنا في حاجة إلى بطل حربي حاليًا، إننا نريد شخصًا يوحد بين طوائفنا.. يوحد المصريين.

وعلى ذكر "يوحد المصريين" جال في خاطري على الفور "موحد القطرين".. "مينا"..

فتحت اللاب توب وتصفحت "جوجل" بحثًا عن كل ما يتعلق به. لم أجد معلومات كثيرة عن "مينا"، على عكس "صلاح الدين".. ولم أكن مهتمًا بجمع معلومات حوله، ولكن انصبّ اهتمامي جله على مكان جثمانه، أو مومياءه، أو أيًا كان. لم أكن أعرف إذا كانت جثته محنطة ومعروضة في متحف داخل مصر أم خارجها، ولم أكن أعرف حتى إذا كانوا قد وجدوا جثمانه من الأساس.. لم أكن أعرف أي شيء عنه سوى أن اسمه "مينا"، وأنه "موحد القطرين" لم أكن أعرف حتى ما هما هذان "القطرين" الذي وحدهما "مينا"!

تبًا للنظام التعليمي القائم على الحفظ لا الفهم، لقد تعلمت مما قرأت على الإنترنت في ساعات، أضعاف ما درسته طوال سنوات عمري في كتب وزارة التربية والتعليم.

هل كنت تعلم أن "مينا" اسمه "نعرمر" أو "نارمر"؟

طيب.. هل كنت تعلم أن بعض العلماء قاموا بتقديم أدلة تفيد أن "مينا" لم يوحد القطرين؟

هل تعلم أن "مينا" لكي يوحد القطرين، بدأ أولًا بتوحيد القبائل الصغرى، فيصنع من بضع قبائل قرية، ويجعل لكل مجموعة قرى مدينة رئيسية.. وهكذا وعندما انتهى وجد لديه قطرين، شمالًا وجنوبًا فوحّد بينهما بالحرب.. ألا يذكرك ذلك بشيء؟ نعم بالضبط، هذا الذي فعله "مينا" هو تحديدًا ما قاله "صلاح الدين".

ركزت بحثي حول وفاته ومكان رفاته، فعلمت من "ويكيبيديا" أنه إلى الآن لم يعثر على جثمانه، ولكنهم وجدوا مقبرته "بسوهاج" – وتحديدًا في "أبيدوس".. وماذا سأفعل بمقبرته إذا كانت خالية؟ أنا أريد جثة كي ألقي عليها "تعويذتي"، لا مقبرة فارغة!

حدثتني نفسي أن أذهب إلى المقبرة وألقي التعويذة، فلابد من أن تكون جثة "مينا" بالقرب من مقبرته، وإلا فلماذا بنى تلك المقبرة؟! ولكن علماء الآثار وخبراء التنقيب لم يجدوها، فكيف سأجدها؟ وهل كان لدى علماء التنقيب تعويذة كالتي لديّ؟ كل ما أحتاجه هو رحلة إلى "سوهاج"، فزيارة للمقبرة، ثم إلقاء التعويذة، مع استخدام اسم "مينا" أو "نارمر" أو "نعرمر"، وإن كانت الجثة موجودة في محيط المقبرة، فستنهض من جراء نفسها. وإن لم تنهض سأعود لأبدأ بحثًا جديدًا حول الشخص الذي يصلح لكي يحل محل "مينا". ولن أخسر شيئًا، بالعكس، سأستمتع بزيارة أماكن أثرية تاريخية، كان من المستحيل أن تطأها قدماي لو ما وقعت تعويذة إحياء الموتى بين يديّ.

ولكن أولًا يجب أن أتأكد من صحة المعلومات التي لديّ قبل أن أتحرك، فبدأت رحلة البحث عن شخص مهتم بالتاريخ الفرعوني وعلم الآثار، ويُفضّل أن يكون "سوهاجي". وهكذا تعرفت على صديقي "إسلام" الباحث السوهاجي خفيف الظل الذي ساعدني في كل ما طلبته.

كنتّ قد كونت قاعدة جماهيرية مقبولة إلى حد ما على الفيس بوك، بسبب آرائي السياسية التي تحوز على إعجاب معظم رواده. وبمجرد أن كتبت أنني بحاجة إلى عالم آثار أو باحث صعيدي، حتى توالت التعليقات، التي لم يخل معظمها من

سخرية، أحدهم كتب "أنا عالم آثار بس مش هقبل بأقل من نص اللّقية"، في محاولة منه ليكون خفيف الظل وفطن في آن واحد، إذ توصّل بذكائه الخارق، أنني عثرت على مقبرة ما وأحتاج إلى عالم آثار لكي يساعدني في "تصريفها". وآخر كتب "لو مفيش عالم آثار صعيدي، تاخد خبير أجنبي؟" أما أظرف تعليق جاءني فكان صاحبه يكرر نص الرسالة المرسلة إلى كل هواتف المحمول في مصر "يا "محمد" تعال بسرعة.. أبوك لقى تماثيل دهب وحجارة وكتاب، شوف حد أمين يصرفهم"، الوحيد الذي جاء تعليقه مختلفًا كان "إسلام"، إذ أجاب بكلمتين "تحت أمرك" فحذفت المنشور وحدثته على الشات، كما أفعل معك الآن. قلت له إنني أريد معلومات عن "مينا"، وعن مكان رفاته إن أمكن، وسألته إن كانت المقبرة الموجودة بأبيدوس ترجع إليه حقًا؟ فرد بالإيجاب على سؤالي ثم سألني عن السبب وراء اهتمامي هذا بـ "مينا"، فقلت إنني أكتب عملًا روائيًا يتضمن في بعض أجزائه قصة الملك "مينا"، وحدثته عن رغبتي في زيارة مقبرته.. رحب "إسلام" بي أيمّا ترحيب ولبى طلباتي، وكان التالي هو ملخص إجابته عن كيفية موت "مينا".

## (٤٣)

كان الملك في إحدى زياراته لمدينة "منف"، فانتهز الفرصة وعزم على قضاء بعض الوقت في ممارسة هوايته المفضلة، وهي صيد الطيور والوحوش والأسماك في أحراش الدلتا القريبة من "منف"، وفي أحد الأيام اصطحب بعض حرسه الخاص ونخبة من أصدقائه المقربين، وخرج للصيد والقنص كعادته، وأغراهم كثرة الصيد فتوغلوا في الأحراش، وظل "مينا" يتبع أحد أفراس البحر المفترسة حتى ابتعد عن رفاقه وأصبح وحيدًا، وكان جسورًا شجاعًا رغم كبر سنه، فأخذ يقترب من الفريسة شاهرًا رمحه محاولاً قتلها، ولكنه أخطأ الهدف فهجم عليه الفرس بوحشية وضراوة فقتله بعد أن صرخ الملك صرخة مروعة تجاوبت أصداؤها بين جوانب الحرس فأسرعوا إليه وتبعهم الأصدقاء إلى مكان الحادث، ولكنهم وصلوا بعد أن فات الأوان.

قام الحرس بقتل فرس البحر ثم نقلوا جثة الملك إلى قصره في مدينة "منف"، حيث قام الكهنة بتحنيط الجثة وتكفينها. وقد استغرقت هذه العملية أكثر من سبعين يومًا، قاموا بعدها بوضع الجثة داخل تابوت حجري نقل في احتفال مهيب إلى إحدى السفن الراسية في الميناء، والتي أبحرت به من فورها إلى عاصمة الملك في الجنوب.

وعندما وصلت الجثة إلى المدينة حملها الكهنة إلى المعبد، حيث اجتمع الشعب الحزين ليودع الملك المحبوب والبطل العظيم الوداع الأخير. ثم نقلت الجثة في تابوتها الحجري على زحافة ملكية إلى الجبانة بالقرب من العاصمة عند

"أبيدوس"، حيث وُضعت في القبر الذي أعده الملك لنفسه من قبل. وتم الدفن بين تراتيل الكهنة وعويل النساء وحزن الشعب الذي فقد بموته بطلًا مظفرًا لن يُعوّض وحاكمًا عظيمًا أعاد للبلاد وحدتها وللأمة عزتها ونشر بين أرجائها الأمن والسلام.

وبهذا فمن المفترض أن تكون رفات "مينا" موجودة بـ"أبيدوس"، ولكن أحدًا لم يجدها حتى الآن رغم بعثات البحث عنها والتنقيب المستمر منذ قرون.

## (٤٤)

وجدت رواية "إسلام" مشابهة لما قرأته في عدة مواقع على الإنترنت، وبما أن معظم الأبحاث والمعلومات تؤكد أن "مينا" تم دفنه في "أبيدوس"، فاتفقت مع "إسلام" على أن يصبح دليلي خلال رحلتي إلى "سوهاج" فأخذت رقم هاتفه، وأعطيته رقمي، وبعدها خرجت من عزلتي فرحًا بما أنجزتهُ. وكافأت نفسي بمقابلة "صدفة" لحبيبة قلبي "ندى"، عند كوبري "العشاق" كما أصبحتُ أطلق عليه.

كنت لا أطمع في أكثر من أن أراها عن بُعد، فتهدأ لوعة قلبي المعذب بسبب مرور شهرين دون رؤياها. ولعل القدر يبتسم لي، فأظفر بنظرة من عينيها تتورد بعدها وجنتاها خجلًا.

ومن يدري لعلها تقول لي بصوتها العذب "إزيك يا مدحت" كما فعلت سابقًا.

كنت أنوي أن يمر هذا اللقاء كما اللقاءات السابقة، ولكني لما رأيتها وجدتُ بها شيئًا مختلفًا، كأنها ازدادت جمالًا على جمالها الأخّاذ. ولكني في كل مرة أراها تكون فيها أجمل من سابقتها.. فما المختلف إذن فيها؟

أتكون نظرة العتاب التي رمقتني بها، زادتها حُسنًا..؟ ولكن لمَ العتاب؟!

اقتربت منها وألقيت السلام، فردت باقتضاب، كأننا رفيقان متخاصمان، مما زاد من حيرتي! وهنا خطر ببالي أنها قد تكون غاضبة بسبب اختفائي شهرين كاملين عنها. ولكن إذا كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنها تحبني! أيعقل هذا؟!

لم أطق صبرًا فقررت أن أُحدثها بما يُعتمِل بداخلي، وأعطتني عيناها بعض

الشجاعة التي كنت أفتقر لها.. نعم.. سأنهي فترة الصمت التي بيننا في أقرب فرصة.

بالطبع لم يكن من الممكن أن أتحدث معها على الكوبري، لأن الناس يعرفونني ويعرفونها، وأنا أخشى غضب سيادة اللواء إذا نمى إلى علمه أنني أحب ابنته. فقررت أن أنتظر حتى نصل إلى دمنهور.

في السيارة، رسمت في خيالي جميع السيناريوهات، بدءًا من رفض حبي وانتهاءً بتبادل الأحضان كما الأفلام.. رتبت كلماتي، سأبدأ حديثي بكذا، وإن ردت بكذا سأقول كذا.. وهكذا، أخذتني أفكاري بعيدًا، ولما عدت وجدتها تتحدث مع صديقة لها ظهرت من العدم، كي تهدم كل ما بنيت من سيناريوهات. كنّا على وشك الوصول إلى دمنهور، وأصبح أمامي خياران: إما أن أعود كما أتيت، أو أن أمضي قدمًا منفذًا ما قررت فعله، بغض النظر عن العواقب. واخترت الخيار الثاني، رغم وجود هذه الصديقة السمراء، قبيحة المظهر.

نزلتا من السيارة ونزلت بعدهما، مشيتا باتجاه بوابة دخول الجامعة فتبعتهما، وقبل أن تصلان ناديتها:

- "ندى".

توقفتا والتفتتا نحوي، ونظرت "ندى" في عيني، ثم حوّلت عينيها إلى الأرض في خجل، انتظرت حتى تغلبت على خجلها، ورفعت عينيها نحوي مستفسرة. فقلت:

-ممكن آخد من وقتك دقيقتين؟

أعادت "ندى" عينيها إلى الأرض مرة أخرى ولم تجب، بينما قالت صديقتها السوداء:

-عاوز منها إيه؟

تجاهلت صديقتها وأكملت وعيناي مسلطة على وجهها، وقلت موجهًا حديثي لها:

-عاوز أتكلم معاكي.

تمسكت "ندى" بصمتها في حين ردت أنثى "الغراب" نيابة عنها، وبلهجة "فلاحي" قالت:

-إيييوة عاوز إيه برضك؟

تجاهلتها للمرة الثانية، ودققت النظر في وجه ملاكي، فرقص قلبي طربًا حينما لمحت شبح ابتسامة على وجهها الخجلان.. لاحظت صديقتها سوداء الوجه والقلب ذلك فقالت لي:

-بصلي هنا وبطل سهوكة.

نظرت لها فأضافت:

-بجولك عاوز منها إيه؟

حولت نظري عنها ونظرت نحو "ندى" واستجمعت شجاعتي وقلت:

-عاوز أقولك إني بحبك!

أريد أن أحدثك عن شعوري وقتها، عن الأحاسيس والمشاعر الجياشة التي تملكتني حينما نطقت "بحبك"، ولكني مهما قلت، لن يكفيني كلام العالم كله. فرحت أكثر لما شعرت أنها تبادلني نفس المشاعر، وكانت على وشك أن تقول شيئًا لولا أن قالت صديقتها متسائلة:

-وبعد الحب ده إيه؟

ما هذا الكائن المستفز؟ ما هذا الشيء اللزج؟ أخرجتني أنثى الغراب من أحلى أحلامي فصرخت بها:

-وإنتي مالك؟

-أنا صاحبيتها.

جذب وجه "ندى" عيني كما يجذب المغناطيس الحديد، فقلت وأنا أنظر إلى وجه ملاكي:

-صاحبتها بس! مش المحامي بتاعها يعني؟

ابتسمت "ندى" بينما اشتعلت صديقتها غضبًا من تجاهلي:

-لأ، صاحبتها وخايفة عليها منك!

مازحتها قائلًا:

-خايفة عليها مني ليه؟ هو أنا عفريت يا ولية!

ضحكت محبوبتي فقفزت من على الأرض فرحًا، وقررت أن أستكمل وصلة "القلش" على صديقتها لعلّي أحظى بضحكة أخرى:

-على فكرة أنا كنت مستغرب موقفك من بدري ومكنتش فاهمه، بس بعد ما اتكلمت معاكي عرفت إنتي عاوزة إيه؟!

نظرتا تجاهي بعيون مستفسرة، فأكملت:

-إنتي عاوزة نص متر صنفرة ١٠٠.. لا دي هتكون ناعمة، خليها صنفرة ١٥٠ من

اللي بيستخدموها في الحيطان الخشنة دي..

قالت بجدية:

-ودي أعمل بيها إي؟

قلت بنفس الجدية:

-هتديها لنقاش يصنفر بيها وشك لغاية ما يشيل طبقة الصدا اللي عليه دي.

بهت، وجحدتني "ندى" بنظرة عتاب، فلم ألتفت لها وأكملت:

-يا مصدية!

انصرفت "المصدية" غاضبة، وتبعتها "ندى" قبل أن تطفئ نار حيرتي. تركتني ببساطة وذهبت دون أن تقول شيئًا. قلت لها أحبك، فابتسمت ومضت في طريقها، كأن شيئًا لم يكن.. أيعني هذا أنها ترفضني بكياسة؟ ولكنها بدت سعيدة؟

في كل الاحتمالات كانت حالتي ستكون أفضل مما هي عليه الآن. إذا وافقتي سأكون أسعد مخلوق على وجه الأرض، وإذا رفضتي سوف أتناسى حبك، على الأقل لن أعلق قلبي في "حبال دايبة" أكثر من ذلك. وإن حتى طلبتي مهلة لتفكري في عرضي، وهو ما كنت أتوقعه وأتمناه، فهذا يعني أن حيرتي ستنتهي في غضون أيام، عندما يأتيني ردك.. أي رد منك بالتأكيد سيكون أفضل من تركك لي هكذا لا أعرف مصير حبي لك.

## (٤٥)

يوم الأحد الأول من إبريل عام ٢٠١٢ الساعة التاسعة صباحًا كنت أستقل القطار المنطلق من محطة "دمنهور" باتجاه "القاهرة"، وكنت قد وصلت إلى المحطة متأخرًا فلم أستطع أن ألحق بقطاري في الثامنة والربع صباحًا، فقفزت في قطار التاسعة ووقفت في غرفة التدخين، بين عربتيّ درجة أولى ممتاز مع بعض الأناس المتأخرين مثلي. منهم من ركب معي من دمنهور، ومنهم من أتى مع القطار من الإسكندرية.. وبعد دقائق وصل المحصل:

-تذاكر يا بهوات.

ثم توجه بحديثه إلى الشخص الأقرب إليه:

-تذكرتك يا أستاذ؟

رد عليه بلا مبالاة:

-لا معاييش.

أخرج المحصل دفتره وبدأ يستعد لملء التذكرة وهو يقول:

-طيب ٤٠ جنيهًا يا فندم.

رد الأستاذ بجملة واحدة:

-شرطة.

ثم أخرج من جيب قميصه شيئًا ما، بطاقة أو كارنيه.. لا أعرف، فلم أتبين

فحواه من موقعي.. وانصرف المحصل دون حتى أن يكلف نفسه عناء النظر إلى ذلك الكارنيه. وبدا أن الشخص التالي لا يملك الأربعين جنيهًا ثمن التذكرة، إذ قام بتأخير نفسه وقدم الذي يليه، فأخرج الأربعين جنيهًا وأخذ تذكرته. وهكذا حتى وصل المحصل إلى الشخص الواقف أمامي، لم يعطه نقودًا، بل كرر نفس محادثة "الرجل الشرطة" باختلاف أنه لم يكن "شرطة" كان "قوات مسلحة"، ولم يقم حتى بإخراج إثبات الهوية وتقديمه للمحصل كما فعل "الرجل الشرطة"، والغريب أن المحصل لم يسأله عن ذلك!

لما حان دوري، مددت يدي في جيبي الخلفي، وأخرجت من محفظتي بطاقة وقدمتها للمحصل قائلًا:

- "مدحت الحي"، تركيب دش.

نظر لها، وكانت بطاقة عمل قديمة طبعتها إبان عملي بالإسكندرية مدون عليها "مدحت الحي، فني تركيب دش وضبط وبرمجة الريسيفر".. اختفت نظرة التعجب من على ملامحه لتحل محلها ابتسامة تتحول تدريجيًا إلى ضحكات هستيرية، وسرعان ما انتقلت عدوى الضحك إلى الرفاق المجاورين. ولمّا انتهى المحصل من الضحك، أخرجت له الأربعين جنيهًا، فرفض أن يأخذها قائلًا:

-هما يعني أحسن منك؟ على الأقل إنت ضحكتني مش زيهم، بنركبهم ببلاش وما بنشوفش منهم غير الوش الخشب.

وصلت "محطة رمسيس" بالقاهرة في الحادية عشرة والربع، وكان القطار المتجه إلى سوهاج يتأهب للانطلاق فذهبت إلى شباك التذاكر وقطعت تذكرة نحو وجهتي. كنت أتضور جوعًا ولكني خفت إذا ذهبت لشراء الطعام أن يفوتني

القطار فعدلت عن الفكرة، ثم اتجهت إلى مقعدي وجلست.

تحرك القطار في تمام الثانية عشرة، والمفترض أن القطار "السريع" الذي أستقله سيستغرق ست ساعات، ولكني وصلت سوهاج في الثامنة مساءً، أي بعد مرور ثماني ساعات قضيتها ما بين نوم تحتل فيه "ندى" أحلامي، ويقظة تسيطر فيها "ندى" على أفكاري، وصداع كاد يفتك برأسي، سبّبه الجوع وكثرة التفكير فيها. فمنذ موقعة صديقتها "المصدية" لم أرها، أو أحاول حتى، قررت أن أعاقبها على عدم ردها عليّ فوجدتُني أعاقب نفسي. ورغم ذلك فقد استطعتُ التغلب على قلبي ولم أرضخ لإلحاحه.. وبعد انقطاعي عن زيارة منزلهم لخمسة أيام متواصلة، هاتفني والدها، فتوّترتُ واحترتُ في مسألة الرد عليه من عدمه، ولما كنت أخشى أن يكون قد علم بما فعلته، لم أجب. وفكرت بعدها كثيرًا أن أهاتفه ولكن لم أجد بداخلي الشجاعة الكافية لفعل ذلك، فقررت أن أبتعد قليلًا ريثما أهدأ، فحدّثت "إسلام" وسافرت.

عندما وصلت وجدت "إسلام" في انتظاري على رصيف القطار داخل "محطة سوهاج".. كنت في عجلة من أمري وأتلهف شوقًا لأرى مقبرة "مينا" فطلبت منه أن نأكل شيئًا في أي مطعم يقدم وجبات سريعة ثم نتوجه مباشرة إلى "أبيدوس"، لكنه قال إن "أبيدوس" تبعد عن "سوهاج" نحو ثلاث ساعات، ولذا سوف نؤجل زيارتها ليوم غد. طلبت منه أن يذهب بي إلى الفندق الذي قام بحجز حجرة باسمي فيه، فابتسم وقال إنه لم يفعل، ثم أخذني إلى بيته وأدخلني حجرته، حيث قمت بتغيير ملابسي، ولما انتهيت وضع أمامي طاولة عليها ما لذ وطاب من الطعام. أكلنا سويًا وخلدت إلى النوم ورغم تصارع الأفكار داخل عقلي بسبب سرعة وتصاعد الأحداث، إلّا أنني غلبني النعاس فور أن وضعت

رأسي على الوسادة.. فاستيقظت قبل شروق الشمس بسبب نومي مبكرًا، وظللت راقدًا على فراشي حتى استيقظ "إسلام" - النائم بجواري- بعدي بنحو ساعة.

رفضتُ طلب "إسلام" بشأن تناول الإفطار في منزله متحججًا بضيق وقتي، وتمسكت برفضي إلى أن رضخ فانطلقنا إلى موقف "سوهاج القبلي" واستقلينا سيارة أجرة متجهة إلى "البلينا" ومن "البلينا" ركبنا سيارة أخرى حتى وصلنا "العرابة".

مررنا بعدة نقاط تفتيش قبل أن نصل إلى نهاية الخط، حيث يقع معبدا "رمسيس الثاني" و"سيتي الأول"، الذي يقع خلفه مباشرة "الأزوريون"، وهو عبارة عن حوض مستطيل كحمام سباحة بدائي الصنع كان الكهنة قديمًا يستخدمونه في الطهارة أو الوضوء، كما قال "إسلام". وكانت منطقة المقابر تقع خلف المعبد بعد "الأزوريون" بمسافة خمسمائة متر تقريبًا أو يزيد. ولما طلبت منه أن نذهب مباشرة إلى هناك حيث مقبرة "مينا"، قال إن زيارة المقابر ممنوعة وأننا نحتاج إلى مساعدة من أحد مفتشي الآثار، حتى نتمكن من ذلك، أو ننتظر حتى يحل المساء فنتسلل من طريق لا يعرفه إلا أهالي قرية "العرابة" وبعض باحثي الآثار في أسيوط. لاحظ "إسلام" امتعاضي وتعجلي فقام بإجراء مكالمة هاتفية بصديق له يعمل مفتشًا للآثار.. وقضينا ساعات انتظار هذا الصديق نتجول في أرجاء القرية والمعابد المفتوحة، فمضى وقت يقارب الأربع ساعات دون أن أشعر، حتى وصل المفتش.

في طريقنا إلى مقبرة الملك "مينا" طلبت من "إسلام" أن يريني الطريق السري الذي حدثني عنه، فقال إن هذا الأمر مستحيل في وضح النهار! فطلبت منه على الأقل أن يصفه لي، هز رأسه موافقًا وعندما وصلنا قرب صخرة ما،

أشار باتجاهها وقال إن هنا بداية ذلك الطريق السري، ثم وصف الباقي ولم يكن وعرًا.

وصلنا ثلاثتنا إلى المقبرة أخيرًا فوجدتها عبارة عن غرفتين، إحداهما أكبر من الأخرى، تزينهما رسوم نقشت على الجدران، لن أسهب في وصف المقبرتين اختصارًا للوقت.. المهم أنني حاولت كثيرًا أن أختلي بنفسي بعيدًا عن مرافقيّ ولم أستطع. فقررت أن أعود إلى المقبرة متسللًا عندما يأتي المساء.

## (٤٦)

انصرفنا من المقبرة في الرابعة عصرًا فاستضافنا مفتش الآثار في بيته القريب، وبعدما تناولنا وجبة الغداء هَمَّ "إسلام" بالانصراف ونظر لي كي أتبعه، ولكنني قلت له إني أفضل المبيت هنا الليلة، لأنني لم أنهي ما أتيت من أجله ومن غير المعقول أن أعود إلى محافظة البحيرة بعد سفر ١٢ ساعة دون أن أنهيه. سألني للمرة الأولى عما أبحث عنه.. فأجبته بالكذبة التي أخبرته بها سابقًا وهي أنني أعكف حاليًا على كتابة رواية تاريخية تدور أحداثها داخل "أبيدوس"، وأريد أن أتجول في المكان ليرسخ داخل عقلي جغرافيًا.. فاقتنع بكذبتي وتركني في معيّة صديقه - الذي رحب بمبيتي معه - وانصرف بعد أن أوصاه عليّ ووعدني بالعودة في الصباح الباكر.

كان منزل مفتش الآثار رحبًا كمنازلنا نحن الفلاحين، وكان هذا من حسن حظي إذ يَسّرتْ إقامتي في غرفة مستقلة دون مشاركة أحد، من صعوبة مهمتي التي قررت أن أبدأها وقتما ينام الجميع. وساعدني أيضًا اتساع المنزل في التحرك بحرية أكبر دون أن يلفت صوت حركتي انتباه النيام إليّ.

قرب الثانية صباحًا تركت ورقة أخبر فيها مفتش الآثار أنني اضطررت إلى العودة إلى دمنهور لظروف طارئة وانصرفت مبكرًا فلم أشأ أن أزعجه. ثم انطلقت حسب الوصف الذي رسمه "إسلام" لي، ولما وصلت عند الصخرة "نقطة البداية" تركتُ حقيبتي التي وضعت فيها مع ملابسي "قفطان"، والذي ليرتديه "مينا" إن وُفقت في مهمتي.

رجعت في أقل من نصف ساعة أن أصل إلى حجرتيّ المقبرة، وقررت البدء بالأكبر حجمًا فوقفت في منتصفها ثم استرجعت في مخيلتي كلمات التعويذة وذكرت نفسي أنني لا أملك سوى فرصة واحدة، إن فشلت سيكون من الصعب أن أتحجج بحجج أخرى للمبيت هنا دون أن أكون مثيرًا للريبة وتحوم حولي الشكوك. فاستجمعت ما تبقى من شجاعتي وتلوت تعويذتي باسم "مينا" ثم انتظرت دقائق لم يحدث خلالها أي شيء.. فكررت المحاولة مستخدما اسم "نارمر"، ولكن لم يحدث شيء أيضًا! تمهلت قليلًا كي أهدأ وأتذكر الاسم الثالث، حتى تذكرته أخيرًا "نعرمر" فكررت المحاولة مرة أخرى فمرت كما مرت سابقتاها!

وفي الحجرة الصغرى كررت نفس المحاولات السابقة، ولما حصلت على نفس النتائج تحوّل الأمل بداخلي إلى يأس وإحباط تمكنا مني. فقررت أن أعود إلى منزل مفتش الآثار وأمزق الرسالة التي تركتها له، ثم أرقد في فراشي حتى الصباح، فانصرف إلى حيث أتيت كأن شيئًا لم يكن. وسيطر عليّ شعور عارم بخيبة الأمل، فمشيت مطأطأ الرأس أُسلي نفسي بركل حصى الأرض.

في منتصف الطريق بين المقابر والصخرة سمعتُ صوتًا لم أتبين ماهيته كان آتيًا عن يساري. التفتُّ ناحية الاتجاه القادم منه الصوت فرأيت على ضوء القمر رجلًا يجري تجاهي وهو يصرخ! أطلقت العنان لساقيّ وفكرت أنه بالتأكيد أحد الخفر الذين يحرسون منطقة المقابر ويمنعون الأغراب من زيارتها، وإن قُبض عليّ ستكون وصمة عار فوق جبين عائلة الحي بأكملها. وكنت كلما تعمقت في التفكير بشكل أكبر هرولت بشكل أسرع حتى تعثرتُ وسقطتُ فوق الأرض في المنطقة بين الصخرة التي وضعت بجوارها حقيبتي، و"الأزوريون". نهضتُ

مسرعًا وأنا أنظر تجاه الخفير المهرول خلفي فخيّل إليّ أنه عارٍ! أعدتُ النظر مرة أخرى وأنا مستمر في الجري فتأكدتُ أنه عارٍ بالفعل وأن الذي رأيته ليس خيالًا! على حد علمي، لا يوجد خفير عارٍ! لا يوجد صعيدي يخرج من منزله بهذا الشكل أساسًا، حتى وإن كان الليل يسدل ستاره؟! إذن فمن هذا الشخص؟ ولماذا يصرخ؟ دفعني فضولي لأن أتوقف وأستكشف الأمر.. ففعلت.

اقترب مني الرجل فوجدته كيوم ولدته أمه، وارتعدتُ خوفًا حين رأيت نورًا يشع من رأسه! ولما اقترب أكثر أمعنت النظر فيه، فوجدت أن أشعة القمر المنعكسة على صلعته، تجعلها تبدو مضيئة.. ابتسمت خجلًا من نفسي بسبب الخوف الذي تسلل إليّ لوهلة: يظهر لي "مارد" ذو رأس مشع، وسط صحراء "أبيدوس"! طردت هذا الخاطر المضحك واستعدتُ جديتي ورباطة جأشي وقلت مستفسرًا:

-إنت مين يا عم إنت؟

فرد بلهجة صعيدية:

-وين آني؟

نظرت له متعجبًا ولم أجبه، فاستأنف بنفس اللهجة:

-كيف بجدر أمشي؟

أحقًا يتساءل كيف يستطيع السير؟ هذا الرجل مجنون:

-رد عليا، إنت مين؟

تخلى عن اللهجة الصعيدية، وقال بلهجة تشبه لهجتي:

-أنا الملك، إنت اللي مين؟

تعجبت من رده "أنا الملك"، كما تعجبت من قدرته على تغيير لهجته بهذا الشكل محاكيًا طريقتي في الحديث، فقلت مازحًا:

ملك ولا طابية؟

لم يُعجب ويبدو أنه لم يفهم الإفيه، فسألته:

اسمك إيه؟

بحدة وغضب رد:

أنا الملك "نارمر".

## (٤٧)

فغرتُ فاهي وخرجت مني كلمتي المعتادة التي أصبحت أرددها حين أسمع كلامًا لا يعقل:

-Shit.

رد بإنجليزية سليمة:

-Fuck.

تمالكت نفسي وقلت بسخرية:

-تصدق Fuck دي أقنعتني إنك ملك فعلًا.

تهللت أساريره بينما استأنفت أنا:

-أقنعتني إنك ملك، بس مش الملك "نارمر". لا.. إنت ملك في Lord Of The Rings.

لم يعقب فقلت:

-إنت هتستعبط؟ الملك "نارمر" إزاي وبتتكلم مصري بلهجاته وإنجليزي كمان؟

-وأعرف فرنساوي برضه!

أفلتت مني سبة بينما استكمل هو موضحًا:

-أنا بقالي سنين مدفون تحت الأرض ومش بقدر أتحرك.. وزي أي حد ميت

مستني أتبعت في الحياة الأخرى - اللي إحنا فيها دي - كنت بتسلى في فترة سباتي بإني أسمع الكلام اللي بيتقال حوالين مني وأحفظه.. ومر عليا أشكال وألوان لغاية ما عرفت لغات كتير ولهجات. بس كل ما آجي أتكلم مع حد صوتي ما كانش بيخرج!

تساءلت في نفسي، أهذا هو "مينا" حقًا؟:

-حتى الناس اللي كانوا بيدوّروا عليا هنا بعد ما لقيوا مقبرتي حاولت كتير أعرفهم مكاني بس ما عرفتش. لا صوتي بيخرج من شفايفي ولا قادر حتى أتحرك عشان أدلهم على مكاني.. كان إحساس وحش أوي.

أخرستني الصدمة، فأومأت برأسي ليستكمل:

-ومن شوية صغيرين لقيتني قادر أتحرك، فعرفت إن ميعاد بعثي حان. ولما سقف المقبرة اللي كنت محبوس فيها اتشرخ ووقع منه تراب عليا، اتأكدت فعلًا إن "الإله حورس" أحياني أخيرًا.

حدثت نفسي: "الإله حورس" مالك قلبت "سامح أبو عرايس" كده ليه يا "مينا"؟ بينما أكمل وهو يحرك يده في الهواء:

-روحت نافض التراب بإيدي وقومت واقف منفض نفسي، وخرجت من المقبرة وفضلت ماشي لغاية ما شوفتك.

لم يبدُ عليّ التصديق فقال:

-لو مش مصدقني تعال معايا أوريك المقبرة.

أراني إياها ولم تكن تختلف كثيرًا عن المقبرة الأولى المكونة من حجرتين، والتي

قرأت تعويذتي بداخلها.. ثم عدنا إلى الصخرة حيث وضعت حقيبتي فأخرجت جلباب والدي وجعلت "مينا" يرتديه، ثم أخذته إلى القاهرة.

الشخص الغبي هو من يكرر نفس الخطأ مرتين.. وأنا أخطأت حينما صارحت "صلاح الدين" بالحقيقة السوداء كاملة؟ لذا قررت ألا أكرر هذا الخطأ مع "مينا". سأقول له عكس ما قلته لـ"صلاح الدين".. سأقول له إننا حافظنا على تقدمنا عن باقي دول العالم، تقدُمنا الذي توارثناه عن الفراعنة "أجدادنا". سأحدثه عن كل الاختراعات الحديثة وأقنعه أنها من صنع "بلاد طيبة" سابقًا "مصر" حاليًا. فتلك السيارة صنع في مصر.. وهذا الموبايل صنع في مصر.. وذلك القطار صنع في مصر.. كل شيء صنع في مصر.. سأكذب عليه كي لا يقلقه سواد الحقيقة. فالكذب أحيانًا يكون الفعل الصواب، كأن تكذب على زوجتك فتخبرها بأنها أجمل من "هيفاء وهبي". أو أن تكذب على العدو كما يفعل قادتنا معنا، باعتبارنا أعداءهم! أو أن تكذب على الملك "مينا" لكي تحرر الوطن العربي وتُوحد بين أطيافه.. وساعدني هو في كذبي لما وجدته مقتنعًا بأن تلك الحياة هي الحياة بعد الموت التي كان القدماء المصريون يعتقدون بوجودها. فأعفاني بذلك من اختلاق القصص حول طريقة بعثه والتعويذة.. إلخ.

في الطريق من سوهاج إلى القاهرة فكرت أنه سيكون من الصعب أن آخذ "مينا" إلى القرية مباشرة، لابد أولًا أن يختلط بالناس حتى يصبح سلوكه طبيعيًا. هذا بالإضافة إلى أنني كنت بحاجة لمزيد من الوقت حتى أفكر في كذبة أرد بها على أهلي وأهل قريتي حينما يسألون عن سبب إقامته معنا. فقررت أن أحجز فندقًا بالقاهرة نقيم به.

## (٤٨)

لما وصلنا الفندق شاهد "مينا" لأول مرة صنبور المياه فقال:

-إيه ده؟

قلت وأنا أفتح الصنبور:

-دي حنفية بتلفها كده تنزل ميّة، تلفها العكس تقطع الميّة!

سألني فزعًا:

-يعني مفيش نيل؟

ضحكت:

-فيه نيل طبعًا، ما هي الميّة دي بتيجي منه.

ثم شرحت له فكرة مبسطة عن كيفية وصول المياه من النيل إلى الصنبور. جاءني بعد يومين وقال لي مهللاً عقب أن فرغ لتوه من الاستحمام:

-حلو اختراع الحنفية ده قوي.

اكتفيت بابتسامة فسأل:

-الاختراع ده مصري برضه؟

-آه طبعًا.

-طيب ليه أوقات بلاقي الميّة ريحتها غريبة كده ولونها أصفر؟!

باغتني سؤاله فارتبكت لوهلة ثم أهداني عقلي الحل فقلت:

-دي ما بتبقاش مية يا "مينا" ده عصير "مانجا".. الحكومة بترفه بيه على الشعب.

بعد عشرة أيام كان "مينا" قد اعتاد على زحام القاهرة، وأصبح يحب الاختلاط بالبشر.. كان يسأل عن كل شيء وأي شيء، وكنت أجيبه بكل صدق في كل مرة، باستثناء بعض الكذب عن أن كل الأشياء العظيمة صنعت في مصر. وقررت أن آخذه إلى الأهرامات وأبو الهول، أصابه ذهول عندما رأى الأهرامات وأبو الهول وتعجبت حينما وجدته لا يعرف عنهم أي شيء، فقد كنت أعتقد أنه قد زارهم في حياته السابقة، ولكنني علمت أنهم شُيّدوا بعد وفاته. طلب مني بعدها أن أحدثه عن أهم الأحداث التي وقعت بعد موته. من شيّد تلك الأهرامات، ومن نحت هذا الأسد ذا الوجه البشري، وعما إذا كان هناك أشياء أخرى يستطيع أن يراها أم لا. وكالعادة إستعنت بويكيبيديا لألعب دور المرشد السياحي بإتقان.. وكنت كلما حدثته عن أثر، طلب مني أن يراه.. فجعلته يرى كل الآثار القريبة ووعدته بأن نقوم بزيارة الآثار البعيدة يومًا ما. وفي إحدى جولاتنا بأحد متاحف القاهرة، سألني بعد أن قطعنا التذاكر ودخلنا:

-هي إيه الفلوس اللي بتدفعوها في كل حتة دي؟

رفعت التذكرة أمام عينيه وأنا أقول:

-دي تمن التذكرة، عشان تتفرج لازم تدفع.

صمت فترة ثم قال:

-والفلوس دي بتروح فين؟

-بتروح للحكومة.

سألني سؤالًا وقفت عاجزًا أمامه:

-والحكومة بتعمل بيها إيه؟

أعفاني من الرد حينما حدث نفسه قائلًا:

-أكيد دي تمن عصير "المانجا" اللي الحكومة بتحطه في الحنفيات بدال المية.

فرح "مينا" أيما فرح بما سجله التاريخ عنه فأصبح يقضي كل وقته بين المعابد والمتاحف. ولما مللت أنا من كثرة زيارة تلك الأماكن تركته يذهب إليها بمفرده. في البدء كان يتملكني القلق عليه، فراقبته عن بُعد دون أن يدري ولما وجدته يتصرف بشكل طبيعي قررت تركه والعودة إلى القرية كي أمهد الطريق لوصوله، وأهتم ببعض الشؤون.. فقلت له وأنا أستعد للرحيل:

-هسيبك يومين وأنزل العزبة عشان أخلي واحد صاحبي يطلعلك بطاقة و..

قاطعني:

-يعني إيه بطاقة؟!

كثير الأسئلة هو! أخرجت بطاقتي من محفظتي ثم أشرت إليها وأنا أقول شارحًا:

-حاجة زي دي كده فيها صورتك ومكتوب جنبها اسمك وعنوانك ورقمك القومي اللي بتتعرف بيه عند الحكومة.

أومأ برأسه دليلًا على الفهم فقلت:

-شوف بقى هتختار اسم إيه؟

صمت مفكرًا ثم انتفض فجأة كمن تذكر شيئًا قبل أن يقول:

-الملك "نعرمر" مؤسس الأسرة الفرعونية الأولى وموحد القطرين.

ضحكت ثم تمالكت نفسي وقلت:

-بقولك اسمك مش سجل إنجازاتك!

وتذكرت شيئًا آخر فأردفت:

-وبالمناسبة، حاول تنسى موضوع إنك ملك ده عشان مفيش ملوك الأيام دي، الملكية اتلغت من زماااااااان.

حكّ جانب رأسه بيده لفترة ثم قال:

-خلاص لقيتها.

أومأت أن "انجز" فاستأنف:

-الفرعون الصغير.

قلت لفظ اعتراض وتبعته ساخرًا:

-طيب ما نسميك الفرعون العاشق أحسن؟!

أعجبه الاسم فقلت بنبرة من يقترح اسمًا آخر:

-ولا نخليها برنس الفراعين.

لم يبدُ عليه الفهم، فأردفت:

-ولا تاخد التقيلة بقى؟ إيه رأيك في الكينج "مينا".. تمويه بقى وحركات وبتاع.. نكتب كينج مكان ملك عشان محدش يفهم!

انتظرت لحظات ثم أكملت:

-بس المشكلة إنهم هيتلخبطوا بينك وبين "محمد منير"..

-مين "محمد منير" ده؟

-ده مطرب مشهور، صنع في مصر برضه.

صمت يفكر، ثم قال أخيرًا:

-خلاص اعمل الاسم "مينا محمد منير"!

كررت الاسم خلفه فلاحظت وجود خطأ ما:

-"مينا" و"محمد" ما ينفعوش في سطر واحد يا عم.. ارحمني واختار أي اسم.

قال بمسكنة:

-يا "مدحت" والله الفرعون العاشق حلو!

-يا عم اختار اسم زي الناس مش اسم مستعار.. أنا رايح أعملك بطاقة مش أكونت على الفيس!

زفر بحنق، ثم قال:

-خلاص اخترلي اسم إنت بس يكون قريب من اسمي.

رماها في ملعبي وخلع، فسألته:

-أنهي اسم فيهم بالظبط؟ "مينا" ولا "نارمر" ولا "نعرمر" .. ولا حاجة رابعة أنا مش عارفها؟

-لا حاجة قريبة من "نعرمر".

## (٤٩)

ذهبت إلى مكتب "صلاح الدين" قبل أن أذهب إلى بيتي.. ودخلت عليه فوجدته جالسًا خلف مكتبه يطالع بعض الأوراق، ولما رآني واقفًا أمامه وقف هو الآخر ثم اقترب مني واحتضنني. وبعد الكلام المعتاد بين الأصدقاء القدامى حينما يلتقيان بعد فترة غياب، سألني عن سبب تلك الزيارة غير المتوقعة فناولته صورة كنت قد التقطها لـ "مينا" وورقة بها اسم "نعيم محمد أحمد نارمر". قلّب "صلاح الدين" نظره بين الصورة والاسم محاولًا التعرف على هوية هذا الشخص الأصلع، ثم لما فشل سألني بصوته الجهور، ولكن بالعامية:

-مين ده؟

قلت بلا مبالاة:

-ده واحد صاحبي، وأنا عاوزك تطلعله بطاقة.

كنت أعتقد أنه سيفهم الأمر بمجرد أن أطلب منه هذا الطلب، ولكنه لم يفهم إذ رد ببراءة:

-طيب ما تاخده وتروح السجل المدني يا "مدحت".

قلت متعجبًا:

-وهو لو ينفع أروح السجل المدني هجيلك ليه؟!

فرد بغباء:

-وما ينفعش تروح السجل المدني ليه؟

قلت غامزًا بطرف عيني:

-عشان هيسألوني عن شهادة ميلاده وأصله وفصله.

لكنه لم يفهم:

-طيب ما تستخرج له شهادة ميلاد يا أخي...

نظرت إلى عينيه نظرة ذات مغزى ففهم، ثم انتفض واقفًا أمامي وسأل بالفصحى:

-ماذا فعلت؟

قلت ساخرًا كي أخفف من حدة الموقف:

-إنت مالك قلبت كده ليه زي الكفار في فيلم "فجر الإسلام"؟ ما كنت ماشي كويس بالعامية، ولا إنت لما تتصدم بتتكلم فصحى؟

قال والغضب يتطاير من عينيه:

-من أحييت هذه المرة يا "مدحت"؟

قلت بعناد:

-عملت اللي إنت قولتلي عليه آخر مرة اتقابلنا فيها.

-وهل قلت لك يا حمار أن تبعث روحًا أخرى؟

تجاهلت تلك السبة، وأجبته:

-لا، بس إنت اللي قولتلي بالنص: "إذا أردت أن توحد العرب، فعليك أن توحد

طوائف كل بلد على حدة أولا".. وأنا جيبت اللي هيقدر يوّحد كل الطوائف لأنه قدر يوّحد القطرين زمان.

-من؟

-"مينا".

ثم قصصت عليه ما حدث وطلبت منه المساعدة فرفض بشدة متحججًا بأنه لا يريد أن يشارك في تلك المهزلة، ولن يمشي وراء طفل متهور مثلي.. ولكنه في النهاية وافق أن يستغل سلطاته لاستخراج أوراق الهوية لـ"مينا" بعد أن حصل على تعهد مني بعدم استخدام تعويذة إحياء الموتى مرة أخرى، وإن حدث واستخدمها ألا أشركه فيما أفعل إلى أن يتوفاه الله، ويبدو أنه ما زال يعتقد أن تلك حياة البرزخ، إذ أضاف أو لنقل إلى أن تقوم الساعة!

الطريق من مكتب "صلاح الدين" إلى قريتنا، يمر من أمام منزل اللواء "حمدي". يوجد طريق آخر ولكنه أبعد، وكنت مرهقًا، أو هكذا قلت لنفسي كي لا أعترف أمامها بأن السبب الحقيقي لاختياري هذا الطريق هو أنني أتوق شوقًا لرؤية "ندى". فاخترت الطريق المار من أمام بيتها، رغم أنني كنت أرتعد خوفًا من فكرة مقابلة والدها، خصوصًا بعد تجاهلي الرد على مكالماته طوال الفترة الماضية. وحدث ما كنت أخشاه.. وجدته جالسًا في "تراس" فيللته المطل على الأراضي الزراعية التي يقسمها نصفين الطريق الذي أمشي عليه، يقرأ جريدة ما.. فأخرجت هاتفي واصطنعت محادثة مع شخص وهمي أداري خلفها توتري وأمنح نفسي بعض الـ"طرش" إذا ناداني. لا أعرف إذا كان قد رآني أم لا ولكنني لم أسمع صوته فقدرت أنه - والحمد لله - لم يرني. ولكن بعد أن تجاوزته ببضع

خطوات وجدت هاتفي الموضوع على أذني يرن.. انتفضت فزعًا ثم نظرت إلى شاشته، فوجدت اسمه "اللواء حمدي"، ووجدتني بشكل تلقائي أنظر ناحيته فأشار لي بيده أن "تعال". مشوار من تسعة عشرة خطوة يعتبر أطول وأثقل مشوار مشيته في حياتي. كل خطوة أخطوها قربًا منه يزداد فيها قلقي فيطرح عقلي سؤالًا: "هو عرف إني كلمت ابنته؟" فيرد قلبي مع الخطوة التالية، مطمئنًا "إن شاء الله ما عرفش حاجة". أقترب خطوة أخرى فيسأل عقلي "أومال بيشاور بقرف كده ليه؟" أتردد قليلًا قبل أن أخطو الخطوة التالية بعد أن يطمئنني قلبي "يمكن زعلان عشان ما ردتش عليه". أُسرع الخطى وأنا أمني النفس بآمال قلبي قبل أن يعود عقلي لأسئلته المزعجة، فأتردد.

ولما وصلت إلى سيادة اللواء وقال لي:

-ينفع اللي انت بتعمله ده؟

لم أجد ردًا فشغلت نفسي بالاستماع إلى الحوار الذي دار بين عقلي وقلبي، قال عقلي: "مش قولتلك؟". رد قلبي: "يا عم اتلهي إنت كمان، هو ده وقت معايرة؟" فسأله عقلي: "إنت عارف هيعمل فينا إيه دلوقتي؟" فأجاب قلبي: "متهيألي والله أعلم، مش أقل من ضرب بالجزم".. قطع حوارهما صوت سيادة اللواء:

-ينفع تختفي مرة واحدة كده من غير ما تقول، وكمان ما بتردش على موبايلك؟

تنفست الصعداء، بينما استأنف سيادته:

-إنْت عارف يا "مدحت" لو كان عندي ابن ماكنتش هحبه زي ما بحبك..

أسعدني هذا الكلام وجعلني - للمرة الأولى - أجرؤ على التفكير في أن تكون

"ندى" زوجتي. أشار إلى المقعد المجاور له، وطلب مني أن أجلس وهو يكمل:

- وعشان كده ببقى مستنيك تسأل عليا مش أنا اللي أسأل عليك، وكمان ما تردش.. وبعد كده أعرف إنك سافرت من غير ما تقول لي!

قبلت رأسه معتذرًا، فسألني عن عملي، وارتجلت كذبة ممهدًا بها الطريق أمام عودة "مينا". قلت إنني أعمل حاليًا مع رجل أعمال صعيدي بفرع شركته في القاهرة، ولكن الشركة تخسر كثيرًا بسبب سوء الأوضاع الاقتصادية بعد الثورة. وبما أنني من المقربين له فاقترحت عليه أن يستثمر أمواله هنا في العزبة، وليكن مثلًا مشروع مزرعة مواشي ودواجن، وسيأتي الرجل قريبًا لمعاينة الموقع على الطبيعة.

أشاد بي وبتفكيري السليم، ثم انتقلنا إلى الحديث عن السياسة، فسرحت بعقلي وبصري ناحية باب التراس منتظرًا خروج ملاكي في أي لحظة تحمل أكواب الشاي أو فناجين القهوة كما تفعل دومًا. ولكن جلستي طالت ولم تظهر ملاكي..
أخرجني والدها من شرودي، إذ لكزني في كتفي وهو يقول:

-بس أنا فرحان بيك ياض وكل يوم بتكبر في نظري أكتر.

قلت وابتسامتي من الأذن اليسرى حتى اليمنى:

-ويا ترى إيه السبب يا سيادة اللوا؟

-عشان إنت بتتعلم بسرعة.

ثم أشار إلى المنضدة التي أمامنا وأردف:

-فاكر لما جيتني من سنة بعد الثورة، وكنت قاعد على نفس الترابيزة دي زي

المهيطل؟

أومأت برأسي فبدوت مثل "المهيطل" حقًا، مما جعله يبتسم ويكمل:

-أديك أهو بتتناقش معايا وتجادلني وكمان عندك وعي سياسي، أنا قعدت ٦٠ سنة عشان أقدر أوصل له.

فعلًا! أتناقشت معه وجادلته؟ لا أذكر شيئًا من هذا القبيل، لا أذكر حتى أنني حركت شفتي من الأساس! قال عقلي: "الله يخرب بيت الحب وسنينه" .. فضحك قلبي وابتسمت أنا، ولم تدُم الابتسامة طويلًا، إذ تعكر صفوي حينما علمت أنني لن أرى ملاكي اليوم لما قال والدها:

-قوم بقى اعمل لنا دور شاي عشان البت "ندى" في الشغل وأنا هنا لوحدي.

## (٥٠)

شربنا الشاي وانصرفتُ عائدًا إلى بيتي، وطوال الطريق أفكر في الطريقة التي سوف أرى بها "ندى" بعد أن علمت من والدها أنها تعمل في خدمة عملاء موبينيل آنذاك – أورنج حاليًا – مما سيجعل لقاءات الصدفة القادمة أسهل وأكثر تكرارًا بالتأكيد. استغربتْ والدتي من عودتي المفاجئة، فقصصت عليها كذبتي التي سبق وقصصتها على اللواء "حمدي":

-والله يا ابني إنت نحس.

قلت مدعيًا غضبًا كاذبًا:

-ليه الكلام ده بس يا حاجة؟

مصمصت شفتيها قبل أن تقول:

-كل ما تروح تشتغل مع واحد تخرب بيته وتجيبه في إيدك وتييجي!

ضحكت من قلبي وأنا أتركها متجهًا إلى حجرتي.. فتحت شنطتي وأخرجت منها طقمًا داخليًا وتوجهت إلى الحمام.

ذهب إرهاق السفر وأصبحت نشطًا فجأة، لا أدري إذا كان الاستحمام هو السبب في ذلك الانتعاش، أم قراري الذي اتخذته وأنا أستحم بالذهاب إلى مركز خدمة موبينيل حيث تعمل ملاكي.

أخذت سيارة أجرة من دمنهور إلى فرع موبينيل فأنزلني السائق أمام الباب

مباشرة. نظرت من خلف الزجاج فوجدتها واقفة تتحدث مع أحد الزبائن.. تسمرت مكاني ولم أستطع أن أخطو خطوة واحدة للأمام.. كيف أمشي وأنا أعمى؟ فعيناي لم تكن ترى سواها. في إحدى التفاتاتها رأتني، فتسمرت هي الأخرى.. وظللنا على هذا الوضع فترة حتى جاء من حرك سكوننا:

-والنبي يا ابني.. هو ده خدمة العملا اللي بيقولوا عليه؟

كان هذا صوت رجل، واضح من هيئته إنه "فلاح" مثلي:

-أيوه يا حاج هو..

-أخيرًا يا ولاد الكلب يا حرامية، ده آني هطلع دي...

أطلق سبّة في الهواء ثم دخل فدخلت خلفه.. أعطاه الرجل الواقف على الباب رقمًا ثم أجلسه أمام "ندى" مباشرة. وأنا أخذتُ رقمي، ومن حسن الحظ، وجدت بجواره مكانًا خاليًا هرعت إليه، فأصبحت أجلس أمام وجهها متطلعًا إليها، وكان الحاج ما زال مستمرًا:

-أخيرًا يا حرامية يا ولاد الكلب!

لاحظت توترها وخفت أن يسبب لها وجودي مشكلة، فحاولت ألاّ أنظر إليها ولكني لم أقدر. بعد فترة انتهى العميل على شباك ما، فجاء صوت من السماعات المعلقة فوق رؤوسنا ينادي على عميل آخر معلنًا "عميل رقم ١٩٦ شباك رقم ٥". نظرت إلى الشباك الخاص بملاكي فوجدته رقمه "٣" ثم جُلت بنظري في المكان فعلمت أن هناك ستة شبابيك، وهذا معناه أن نسبة وقوفي أمام شباكها ١ إلى ٦ وهي نسبة ضعيفة الحدوث.. أيلعب القدر لعبته وتحدث معي - ولو لمرة

واحدة – صدفة غير مدبرة؟ لا أظن ذلك، فالصدف مكانها الروايات والأفلام لكن الواقع غير ذلك.

عُدتُ أهيم في عينيها مرة أخرى، أتأمل معجزات المولى جل وعلا، وأشاهد جمال خلقه وبديع صنعه:

-نمرتي دي يا ابني؟

أظن أنك عرفت وحدك أن هذه الجملة كانت من الحاج الجالس بجانبي، قالها ومدّ يده بالورقة التي تحمل رقمه.. نظرت إلى الرقم ثم إلى اللوحات الستة وقلت:

-لا يا حاج لسه بدري.

-يا ولاد الكاااالب يا حرامية. بتزهقوني عشان أمشي؟ طاب والله ماني متحتح من مكاني غير لما آخد فلوسي.

تُهتُ في عيونها مرة أخرى في حين ظل الحاج يكرر جملته المعهودة كلما سمع صوت تغير أرقام الشبابيك، وفي إحدى سباته تعاطف معه شخص ما، جاء دوره فاقترب منا وناول الحاج رقمه وأدخله بدلًا منه. ووقع حظ الحاج في شباك "ندى" التي ابتسمت ما أن وصل إليها، وقالت:

-مساء الخير يا فندم.

رد الحاج بعصبية:

-بلا مساء الخير بلا بتاع، أنا عاوز أقابل الراس الكبيرة.

ضحك من سمع الحوار فانتبه الباقون، وجاء صوت من خلفي يردد:

-راس كبيرة إيه؟ هو الحاج فاكر نفسك في المدبح؟!

بينما حافظت "ندى" على ابتسامتها وقالت بهدوء:

-حضرتك تقدر تقول مشكلتك وأنا هساعدك.

-لا مش هتعرفي، إنتي صغيرة وأنا عاوز حد كبير أكلمه.

ضحكنا جميعًا، حتى هي ضحكت وقالت:

-جرب يا فندم ولو ما قدرتش أساعدك هجيبلك حد كبير.

-إنبارح شحنت كارت من أبو ١٠ جني، ويا دوبك رنيت على الولية أم عوض مراتي لقيت واحدة حلوة زيك كده بتقولي "لقد نف.. لقد فنـ.. لقد خلص رصيدكم"، وقبل ما أقولها إني لسه شاحن، قفلت السكة في وشي.

ثم تغيّرت نبرة صوته وهو يصيح:

-أنا عاوز أعرف البت دي قفلت السكة في وشي ليه؟ إكمني غلبان ولابس جلابية وطاقية يعني؟

قالت وهي تمازحه:

-ده على أساس إنها شايفة لبسك في الفون يا حاج؟

-معرفش بقى.. المهم بعد حبة البت الحلوة اللي شبهك دي بعتتلي رسالة إن الشركة خصمت الـ٩ جنيه اللي كنت مستلفهم من سنة.

-طيب تمام، فين المشكلة دلوقتي؟ حضرتك عاوز إيه؟

صرخ بها الحاج مرة أخرى:

-عاوز باقي فلوسي يا شوية حرامية.

زفرت بتأفف، ثم قالت:

-يا فندم فلوس إيه؟

-أنا شحنت بـ١٠ وإنتوا أخدتوا منهم ٩، يبقى ناقص جنيه.. أنا عاوز الجنيه بتاعي دلوقتي، ولا إكمني غلبان ولابس جلابية وطاقية هتضحكوا عليا؟!

-نضحك عليك إيه بس؟ إفهم يا حـ.......

قاطعها:

-أفهم؟! هو إكمني غلبان ولابس جلابية وطاقية هتفتكريني ما بفهمش؟

ضحكنا جميعنا حتى "ندى" لم تستطع أن تتمالك نفسها، وضحكت هي الأخرى، ثم لما هدأت قالت:

-ما أقصدش يا حاج لا سمح الله، أنا بس عاوزة أفهمك إن الشركة بتاخد على كل ٣ جنيه نص جنيه يعني الـ٩ جنيه بتاخدهم ١٠ ونص يبقى إنت كده عليك نص جنيه للشركة أصلًا!

عدّ الحاج على أصابعه، ولما انتهى عاد لصراخه:

-بس ده يبقى ربا.. إكمني غلبان ولابس جلابية وطاقية، فاكرين إني هقبل الحرام يا شوية حرامية؟!

ضحكت مع من ضحك ولكن غضب "ندى" قطع ضحكاتنا جميعًا، فوقفت واتجهت ناحيتها وكانت تصيح به:

-يا حاج حرام عليك إنت، بلاش تخرجني عن شعوري!

استخدم الحاج أسلوب "مسكنة الفلاحين":

-هو إكمني غلبان ولابس جلابية وطاقية هتزعقيلي؟

هممت أن أجذبه من جلبابه لكن "ندى" أشارت إليّ ألا اتدخل، وهي تهمهم بكلام غير واضح، غالبًا "الله يخربيتك على بيت الجلابية والطاقية".. فسألها الحاج:

-بتقولي إيه؟

ردت بضيق:

-ما بقولش يا حاج، ما بقولش.

-طيب أنا عاوز الجنيه بتاعي!

-قول رقمك يا حاج وهحولك جنيه من معايا.

-زيرو عشرة تسع...

قاطعته:

-زيرو عشرة؟ ده رقم فودافون يا حاج!

-لا والله ده رقمي!

دخلنا في نوبة ضحك هيستيرية، فالتفت الحاج إلينا قائلًا:

-بتضحكوا عليا؟ إكمني غلبان ولابس طاقية وجلابية هتضحكوا عليا؟!

بينما قالت "ندى" وهي تكتم ضحكاتها:

-أنا عارفة إنه رقمك بس تبع شركة "فودافون"، وإنت هنا في فرع "موبينيل"

-ماليش دعوة أنا عاوز فلوسي!

-استغفر الله العظيم.. يا حاج خد تاكسي من على الباب بره وقوله يوديك "فودافون"، وهناك هيدوك فلوسك.

صمت مفكرًا للحظات، ثم قال:

-آخد تاكسي بـ٥ جني عشان يدوني جني! هو إكمني غلبان ولابس جلابية وطاقية هتفكريني مغفل؟!

قالت بنفاد صبر:

-طيب يا حاج قولي أنا أعمل إيه دلوقتي؟!

-هاتيلى الجنيه وإبقي خديه من "فودافون".

-ما ينفعش صدقني.

-خلاص قعديني مع الراس الكبيرة زي ما قولتلك في الأول.

استرقت "ندى" نظرة إليّ وهى تقول:

-والله لو قعدت مع نجيب ساويرس نفسه ما هيعملك حاجة!

-مين نجيب معيرص ده؟

-نجيب ساويرس ده صاحب الشركة وأكبر راس هنا.

رد بلا مبالاة:

-خلاص قعديني معاه.

-ما ينفعش!

-طيب ابعتيلي إنتي الجنيه من معاكي!

-أبعتلك إزاي وأنا "موبينيل" وإنت "فودافون"؟

-أنا عبد المنعم مش "فودافون".

ضحكنا جميعًا إلا هي، استعاذت بالله من الشيطان الرجيم ومدت يدها في جيب بنطالها وأخرجت مبلغًا قدمته للحاج وهي تقول:

-خد يا حاج عشرة جنيه أهي من معايا وارحمني.

-ربنا يخليكي إلهي يا رب أمك تحج.. وأبوكي يحج.. وصاحب الشركة اللي اسمه ملخبط ده.. الراس الكبيرة، هو إنتي قولتيلي اسمه إيه؟!

-نجيب ساويرس.

أطال نطق الكلمة الأولى:

-ااااااااايوه ده.. إلهي يحج.

-بس ده مسيحي يا حاج!

مط شفتيه وقال:

-اااه عشان كده بتعامليني وحش من الصبح، إكمني مسلم غلبان ولابس جلابية وطاقية!

وصل رجال الأمن أخيرًا وسحبوه حتى أخرجوه بالقوة من المكان.. وانتهزت أنا

الفرصة التي سببتها الفوضى التي أحدثها الحاج فوقفت أمامها مباشرة دون انتظار الرقم.. قالت لي مرحبة:

-إزيك يا "مدحت"؟

تعجبت لأنها المرة الأولى التي تحدثني فيها باسمي دون ألقاب:

-"مدحت" حاف كده من غير أستاذ ولا حضرتك أو يا فندم؟

احمرّ وجهها خجلًا، وقبل أن تعود لجديتها استأنفت:

-ولا إكمني غلبان ولابس قميص وبنطلون هتقوليلي يا مدحـ....

قطعتُ كلامي قبل أن أكمله مستمتعًا بشكلها وهي تحاول كتم الضحكة، فيزيد انحباس الدم من احمرار وجنتيها:

-عندك مشكلة في الخط ولا إيه؟

-لا الحقيقة أنا مش "موبينيل" أصلًا.. أنا "فودافون"!

مازحتني:

-إنت كمان ليك فلوس عند "فودافون" وجاي تاخدهم مني؟

ضحكت وقلت:

-لأ خالص، أنا جاي أشوفك.

رفعتْ حاجبيها تعجبًا من جرأتي وعلا شفتاها شبه ابتسامة، فأردفتُ موضحًا:

-أصلي لو قولتلك جاي أشتري خط هتقوليلي: ما السنترالات مالية الدنيا، ده غير أن مفيش حد عاقل بقى بيشتري خطوط من شركتكم أصلًا، فأنا بدخل في

الموضوع على طول وبقولك من غير لف ودوران: أنا جاي أشوفك.

ضمت حاجبيها بغضب وقالت:

-ولسه فاكر تشوفني بعد شهر؟

فرحت جدًا بسؤالها الذي يحمل بين طياته عتابًا مستترًا، وأحببت كذلك غضبها المشابه لغضب الأطفال، كما أنه من الواضح أنها كانت تعد أيام بعدي عنها

ابتسمت وسألتها بغموض:

-بجد؟

-إيه ده اللي بجد؟

- كنت واحشك بجد؟

ابتسمت لتداري توترها، ثم قالت وهي تنظر إلى زملائها في العمل:

-أنا شكلي كده هترفد من الشغل!

-لا وعلى إيه؟

قلتها ثم أخرجت محفظتي من جيب بنطالي الخلفي، فأخرجت منها البطاقة ومددت بها يدي إليها وأنا أكمل:

-هاتيلي خط "موبينيل" رقم مميز.

-مًا كان من دقيقة مفيش حد عاقل بيشتري خطوط من شركتنا!

-ومين قالك إني عاقل؟ ومين أصلًا اللي يقدر بعد ما يشوف جمالك يفضل بعقله؟!

## (٥١)

سهرت ليلتي أتحدث معها هاتفيًا على الرقم الذي اشتريته منها، حتى سمعنا أذان الفجر فاستأذنتْ لتصلي وتنام. أما أنا فلم أنم ليلتها بسبب فرحتي، رغم إجهادي. قمتُ لأصلي وأدعو ربي أن يجمع بيننا ولكنها أبت أن تفارقني وظلت معي حتى أثناء صلاتي - التي أعتقد أنها بطلت - لما سرحت فيها.

وفوق فراشي أخذت أبتسم وأنا أتذكر كلامنا معًا، أقول لها إنني أحبها فتقول لي: "شكرًا". فأقول مازحًا: "العفو على إيه؟ ده أقل واجب".. فتضحك وأضحك أنا الآخر. ثم أقرر ألا أقول لها كلمة حب أخرى، ولكني أسهو وأجدني رغمًا عني أقول إنها أوحشتني، فترد: "ما تشوفش وحش". فأقول ساخرًا: "ما أنا شوفت صاحبتك المصدية خلاص".. فتقهقه وتكاد يغشى عليها من كثرة الضحك، ثم تتمالك نفسها وتقول: "إنت مصيبة"، فأرد محاكيًا طريقة الحاج: "لا والله، أنا "مدحت" مش مصيبة".

شقشق الصبح وتخلل نور شمسه فتحات خوص النافذة، فأنارت أشعتها غرفتي وأنا لا زلت مستيقظًا ومبتسمًا. وظللت على هذا الوضع حتى العاشرة صباحًا فتناولت هاتفي واتصلت بـ"صلاح الدين" لأعرف ماذا فعل بشأن بطاقة "مينا"، واطمأننت لما علمت منه أنه أعطى الأوراق للشيخ "إبراهيم" وخلال أيام سينتهي من إدراج اسم "نعيم محمد أحمد نارمر" بين سجلات السجل المدني، وسوف يقوم باستخراج شهادة ميلاد أولًا، ليتمكن "مينا" - بنفسه - من استخراج البطاقة.

قضيت بعد ذلك ثلاثة أيام في كتابة فكرة مبدئية لمشروع سيسهل مهمة وصول "مينا" إلى قلوب الناس. ثم سافرت إلى القاهرة بعد أن مهدت كل الطرق أمام عودته.

وفي طريق عودتنا أنا وهو من القاهرة إلى القرية، فعلت معه مثلما فعلت مع "صلاح الدين". ظللت أحدثه عن اسمه الجديد "نعيم محمد أحمد نارمر"، وأنه يعمل رجل أعمال وجاء معي لمعاينة الأرض التي يفكر في إقامة مشروع عليها..

ولما اقتربنا من الوصول إلى قريتنا، شاهد "مينا" رجلين يسلم أحدهما على الآخر، ثم يحتضنه ويقبله.. فسألني كعادته:

-هما بيعملوا كده ليه؟

-بيسلموا على بعض.

قال متعجبًا:

-بس الناس بتسلم بالإيد مش بالفم!

-دول عشان بيحبوا بعض بيسلموا ويبوسوا.

فكر مليًا ثم قال:

-والمفروض كام واحدة يبوسوا؟! أصل أنا شوفت من شوية اتنين بيبوسوا بعض ٤ مرات ودول بيبوسوا بعض ٢ بس!

ضحكت على كمية "يبوسوا" التي قالها وقلت:

-يبوسوا دي فعل مشتق من الكلمة "بوسة"، وبالنسبة لسؤالك فعدد البوس متعلق بحجم الحب، كل ما تكون بتحب حد أكتر، بوسه أكتر.

وعلى مشارف القرية قابلتنا "ندى" وكانت متوجهة إلى عملها.. يعرفها "مينا" جيدًا، كان قد استمع إلى حواراتنا الهاتفية أثناء رجوعنا سويًا بالقطار، وسألني عنها فقلت إنني أحبها وسأتزوجها. لا أعلم لِمَ فعلت ذلك، يبدو أنني كنت بحاجة إلى شخص ما لأحدثه عنها.. أي شخص. سلّمت "ندى" علينا، وعرفتهما على بعضهما، أشرت إلى "مينا" وقلت لـ "ندى":

-"ندى" .. أستاذ "نعيم" رئيسي في الشغل.

ثم فعلت العكس فقال "مينا" بابتسامة بلهاء:

-جميلة أوي أومال مابوستهاش ليه؟!!

اتسعت عينا "ندى" من الدهشة، بينما لم أجد أنا إلا أن لكزته بكوع ذراعي جانبه فقال:

-إنت مش بتحبها؟ يبقى تبوسها.

ضغطتُ على أسناني وقلت محدثًا "ندى":

-عسل أستاذ "نعيم".

ثم افترقنا، أخذت "ندى" دهشتها وذهبت إلى عملها، وأخذت أنا "مينا" وذهبت إلى المنزل. استقبلته والدتي بترحاب شديد، وهَمَّ أن يقبلها، فجذبته من ذراعه أن "إياك" فعدل عما كان ينتوي. انصرفت والدتي وهي تدعو له وتشكره على مساعدته لي وثقته في، بينما رد هو بنفس الابتسامة البلهاء، عَنَّ بخاطري فكرة رددها عقلي: "بقى الأهبل ده هو اللي قدر يوّحد القطرين؟"، ثم تطرق تفكيري إلى سؤال آخر أكثر أهمية: "بقى الأهبل ده هيقدر يوّحد المصريين؟".

طلب "مينا" أن أرشده إلى مكان المرحاض ففعلت.. دخل ثم خرج بعد دقائق وهو يصيح:

-الحنفية عندكم مش بتنزل ميّة يا "مدحت"!

وقبل أن أرد، أكمل هو:

-يمكن عشان إنتوا بعيد عن النيل؟!

ابتسمت وقلت:

-لا ده عشان الميّة بتقطع عندنا كتير.

اقترح عليّ بجدية:

-طيب ما تكلم الحكومة يخلوا الحنفيات تنزل عصير من الأصفر ده!

"بقى الأهبل ده هيقدر يوّحد المصريين؟":

-اسكت يا "مينا".. اسكت يا حبيبي وما تتكلمش قدام حد خالص.

بدأت في إعداد "مينا" للمهمة المطلوبة منه، قلت له إننا منقسمون رغم كل هذا التقدم الذي قدمناه إلى البشرية، ورددت على مسامعه جملة "صلاح الدين" حينما قال لي: (أنتم منقسمون.. ليس فقط انقسام بين مسلم ومسيحي. لا، الإسلام نفسه انقسم على يديكم، شيعي وسُني وعلوي، والمسيحية كذلك "كاثوليك وأرثوذكس".. أما بالنسبة للانقسام السياسي، فحدث ولا حرج.. هذا إخواني وهذا سلفي، هذا يساري وهذا اشتراكي. هذا ثورجي، وهذا فلول... إلخ).

طبعًا "مينا" لم يفقه شيئًا مما قلت وظل فقط يهز رأسه مثلما تفعل دمية الكلب الموضوعة على "تابلوه" السيارات. فقلت إنني أريده أن يفعل ما يجيد فعله.. أن يوحد المصريين كما وحدّهم في الحياة التي مضت.. فقال:

بس أنا في الحياة اللي فاتت كنت ملكًا وكان تحت إيدي جيش أحارب بيه اللي يعصى أوامري، وإنت بتقول إن الحياة دي ما فيهاش ملوك؟!

كنت في انتظار هذا السؤال، وفكرت فيه كثيرًا قبل أن أقوم ببعثه:

أيوه بس الحياة دي فيها تطور وفيه كذا طريقة تانية تقدر بيها تبقى مؤثر في الناس وتوصل لهم وتقنعهم برأيك من غير حروب.

هز رأسه دلالة عدم الفهم، فقلت إنني سأجعل منه إعلاميًا، وكنت أعني ما أقول، فـ"صلاح الدين" الآن ذو منصب مهم وشأن رفيع، وسيساعدنا بالتأكيد. وكنت قد كتبت فكرة برنامج ملخصه "ماذا لو كان الملك "مينا" موجودًا في الوقت الراهن".. سوف يحكي "مينا" من خلاله ما يشعر به. وبعد أن ننتهي منه، نقوم بتطبيق نفس الفكرة على بطل تاريخي آخر، كـ"أُحمس" مثلًا.. وهكذا.. ويقوم "مينا" بتقديم حلقاته معتمدًا على معرفته بالتاريخ القديم الذي عايشه، وأطلقت على البرنامج اسم "ماذا لو؟" كاسم مبدئي.

أعرف أنك تتساءل الآن، لماذا تحملت مشقة بعث "مينا"، بينما كان بإمكاني أن أقوم بتقديم فكرة هذا البرنامج إلى أية قناة تلفزيونية ويقدمها إعلامي معروف؟ أو حتى أقدمها أنا بنفسي؟ وأُجيبك عن هذا بأن "مينا" عاش التجربة "لايف"، لذا سيكون أفضل من يحكي عنها، وإن قام بتطبيقها على الوضع الحالي الذي نعيشه فسيستفيد منها الناس. هذا بالإضافة إلى أن المعلومات المتوافرة

لدينا عن "مينا" وحقبته هذه، لم تكن كثيرة ولا أنا ولا أي إعلامي مشهور نعرف سوى أن "مينا" قام بتوحيد القطرين. وحتى المعلومات التي ذكرتها لك سابقًا هي اجتهادات شخصية لا دليل على صحتها قمت بجمعها من بعض المراجع وربطتها سويًا. لذلك قررت أن يقوم صاحب الشأن بسرد قصته، لتصبح أكثر مصداقية وتأثيرًا على الناس.

لكن الآن.. دعني آخذ قسطًا بسيطًا من الراحة، وأعود لكي أكمل لك باقي الحكاية.

## (٥٢)

انتهيت من تهيئة "مينا" نفسيًا ومعنويًا للمهمة المقبل عليها، ثم أخذته وذهبنا سويًا إلى مكتب "صلاح الدين"، الذي هاتفني ليخبرني أن بطاقة الرقم القومي الخاصة بـ "نعيم" بحوزته الآن، وبإمكاني أن آخذها في أي وقت.

كنت قد حدثت "مينا" عن "صلاح الدين"، وبالطبع لم أخبره القصة الحقيقية بل أخبرته بأن الشيخ "يوسف" صديقي وهو الذي ساعدنا لاستخراج بطاقة الرقم القومي وسوف يساعده في أن يجعل منه إعلاميًا. ومن كلامي عن "صلاح الدين"، أو الشيخ "يوسف" أصبح "مينا" متلهفًا على رؤيته.

كنتُ في أحد الكافيهات برفقة "ندى" بدمنهور، عندما هاتفني "صلاح الدين" طالبًا حضوري ومعي "مينا" قبل ساعة لنستلم البطاقة لأنه يستعد لسفر مفاجئ. وبسبب ضيق الوقت هاتفت والدتي لأتحدث إلى "مينا".. فطلبت منه أن يرتدي ملابسه ثم يخرج من المنزل ويمشي حتى القرية المجاورة - وذكرت له اسمها - فيستقل أول سيارة تقف له، وسيجدني في انتظاره بالموقف، فنذهب سويًا إلى الشيخ "يوسف". وطلبت منه أيضًا أن يجلب معه هاتف والدتي، لنتمكن من التواصل.. ولما وصلت ولم أجده هاتفته:

-إنت فين يا عم إنت؟

-أنا راكب العربية.

-عربية إيه؟

-مش عارف، ثواني كده خليك معايا.

غمغم بعدة أرقام، كأنه يقوم بإحصاء شيء ما، ثم قال فجأة:

-خمستاشراية.

لم أسمع جيدًا، فسألت:

-نعم؟

فكرر نفس الكلمة غير المفهومة:

-خمستاشراية.

عجز عقلي عن التفكير فعجز لساني عن النطق، بينما أكمل هو موضحًا:

- "١٤ راكب والسواق".

ضحكت، وتذكرت لما سألني عن "التمناية" وقلت له سبب تسميتها بهذا الاسم، فأصبح يطبق هذه المعلومة على كل المواصلات.. سألته:

-إنت وصلت فين طيب؟

صمت للحظات خَمنتُ إنه يستكشف خلالها المكان من حوله، ثم قال:

-أنا دلوقتي في منطقة فيها أراضي كتيرة واسعة وخضرا وفيها ناس شغالين.

-يا عم إحنا فلاحين وعايشين في عزب، يعني كل الأماكن شبه اللي إنت بتقوله ده.

لم يبد عليه الاستيعاب، فأردفت:

-اسأل أي حد جنبك عن مكانكم طيب.

جاءني صوته يحدث شخصًا ما:

-إحنا فين دلوقتي يا حاج؟

أجابه الصوت:

-ما عرفش!

فقال هو بغباء أضحكني:

-إحنا في عزبة ما عرفش!

وصل أخيرًا فأخذته وذهبنا إلى مكتب "صلاح الدين"، الذي لحقنا به في الدقائق الأخيرة قبل أن يسافر.. استقبلنا بترحاب، واحتضنني كما هي العادة عندما نلتقي، ثم مد يده مصافحًا "مينا" الذي جذبه إلى أحضانه وقام بتقبيله أربع قبلات، وهَمّ أن يقبله القبلة الخامسة لولا أن "صلاح الدين" منعه، ثم أجلسنا وجلس.. فقال "مينا":

-أنا بحبك قوي يا شيخ "يوسف" من كلام "مدحت" عنك.

-"مدحت" ده زي ابني يا.....

ولم يعرف بماذا يناديه فسأله:

-هو إنت اسمك إيه؟

مال "مينا" على أذن "صلاح الدين" وهمس:

-"مدحت" مسميني "نعيم" بس أنا مش "نعيم"!

فسأله "صلاح الدين" بهمس مماثل:

-أومال إنت مين؟

فرد "مينا" قامته فجأة، وقال بفخر واعتزاز:

-أنا الملك "نعرمر" مؤسس الأسرة الفرعونية الأولى وموّحد القطرين.

ضحك "صلاح الدين" ثم قال:

-طيب ما تقولش كده تاني عشان الناس ما تضحكش عليك.

والتفت ناحيتي وأكمل:

-جرى إيه يا "مدحت"، مش تفهم الأستاذ "نعيم" هيعمل إيه بدال ما يودينا كلنا في داهية!

وقبل أن أرد عليه مد يده إلى أحد أدراج مكتبه وأخرج ظرفًا موجود بداخله بطاقة الرقم القومي وشهادة الميلاد، وناولهما لي.. فشكرته كثيرًا ثم قلت:

-عاوز منك خدمة أخيرة.

هز رأسه مستفهمًا، فشرحت له ما أنوي فعله، ثم لما انتهيتُ جعلتُ "مينا" يقدم أمامه الحلقة الأولى التي يحفظها عن ظهر قلب بحكم أنها تحكي قصته.. فأعجب "صلاح الدين" كثيرًا بطريقة أداء "مينا" وقال:

-الفكرة حلوة جدًا وهتوصل قلوب الناس فعلًا، وكان نفسي أساعدكم بس أنا عضو مجلس شعب مش وزير الإعلام!

قلت موضحًا:

-وأنا مش جايلك بصفتك عضو مجلس شعب.

-أومال بصفتي إيه؟

-بصفتك قريّب من الإخوان أو بقيت إخواني خلاص، وأنا عاوز أقدم البرنامج ده من على قناة من بتوعهم.

فكرّ مليًا قبل أن يقول:

-طيب سيبني شوية نعدي انتخابات الرئاسة، وأعرض الموضوع على اللجنة الإعلامية في الجماعة.

سألته:

-هي انتخابات الرئاسة إمتى؟

-كمان ٩ أيام يوم ٢٣ و٢٤، إنت مش عايش في الدنيا ولا إيه؟

كان انشغالي بما أفعل يأخذ كل وقتي وتركيزي، فأصبحت لا أشاهد التلفاز مطلقًا. أقضي معظم الوقت مع "مينا" أو جالسًا أكتب حلقات جديدة للبرنامج بمساعدته.. لم أرد على "صلاح الدين"، فأستأنف:

-وطبعًا مش هوّصيك إنت وأصحابك صوتكم للدكتور مرسي!

## (٥٣)

بعد أيام وجدت صديقي "محمد أمين" يطرق باب بيتي، فرحت بزيارته وفرحت أكثر حينما قال لي سببها. علمت أنه عضو في الحملة الانتخابية للأستاذ "حمدين صباحي"، ولما كان يعلم أنني من أشد المعجبين به قام باستخراج توكيل عام يسمح لي بالتواجد داخل لجان الاقتراع.. ثم انصرف وتركني أفكر في كيفية حشد الناس لانتخاب "حمدين".

وفي نفس اليوم طرق باب بيتي الشيخ "إبراهيم".. صافحني واحتضنني فأدخلته إلى "المندرة" وأجلسته. أخرج ورقة من حقيبة أصبح يحملها دومًا، ومد يده بها إليّ وهمّ أن يشرح محتواها لولا أن دخل "مينا" علينا، فأعاد الورقة إلى حقيبته مرة أخرى، بينما أشرت تجاهه وقلت:

-ده الشيخ "إبراهيم" يا أستاذ "نعيم".

ثم أشرت تجاه "مينا" وقلت:

-ده الأستاذ "نعيم" اللي أنا شغال معاه يا شيخ.

نهض واقفًا كي يرحب بـ"مينا":

-أهلًا وسهلًا حصلت ألف بركة يا شيخ "نعيم"، آنست ونورت.

ثم همّ أن يحتضنه فاستوقفه "مينا" بإشارة من يده وهو يقول:

-لا أنا مش بحبك عشان تبوسني، وانت بتكره نفسك زي ما "مدحت" بيقول.

"الله يخرب بيتك وبيت مدحت".. قالها عقلي بينما ضحكت أنا كي لا يكمل "مينا"، فيفضحني:

-هو الأستاذ "نعيم" كده بيحب يهزر يا شيخ.

ثم نظرت لـ"مينا" وسألته:

-مش كده ولا إيه؟

هز رأسه هزة دمية كلب التابلوه التي يفعلها لمّا لا يفقه شيئًا، فقلت:

-اقعدوا يا جماعة اقعدوا واقفين ليه!

جلسا، فقلت للشيخ "إبراهيم":

-إيه الورقة اللي كانت في إيدك دي قبل الأستاذ "نعيم" ما يدخل؟

-ده توكيل للدكتور مرسي. الشيخ "يوسف" كان طلب مني أعملهولك عشان تقف معانا بإذن الله، وكنت جنبك قلت أعدي أديهولك بالمرة.

-بس أنا معايا توكيل لـ"حمدين" ومش هنتخب مرسي أصلًا.

تغيّر لون وجهه ثم هبّ واقفًا، وانصرف دون أن ينبس بكلمة.. ولما حل المساء هاتفني "صلاح الدين" منزعجًا:

-إنت هتفضل عيل كده لغاية إمتى؟

-اهدى يا عم "صلاح" وبلاش تغلط.

زفر بضيق ثم قال:

-يا ابني إنت إزاي عاوزني أقنعهم إنهم يشغلوا زفت الأهطل ده في قنواتهم، وإنت مش واقف معاهم أصلًا؟

ثم استأنف بنبرة أكثر حدة:

-وزفت ده بيقول له: "مش هبوسك عشان إنت بتكره نفسك" هو ده اللي هيقدر يعمل وحدة بين المصريين؟! ده أهبل يا ابني!

أغلق الخط.. فجلست مع الأهبل، لكي أعطيه درسًا في كيفية التعامل مع الناس في الحياة الجديدة:

-عشان تقدر تعيش وتنجح في الحياة دي لازم تتعلم النفاق.. لازم تبقى كداب.

-بس أنا ما بعرفش أكدب!

-أهي دي ذات نفسها كدبة.

لم يبدُ عليه الفهم، فأكملت:

-مفيش إنسان ما بيعرفش يكدب.

أشار إلى نفسه وهز رأسه كالمعتاد، فقلت بنفاد صبر:

-على الأقل ما تقولش لحد إنك بتكرهه ولا تبين كده لحد.. الراجل جاي يبوسك بوسه، حتى لو بتكرهه، بوسه برضه بس ما تقولش: "لا مش هبوسك عشان مش بحبك و"مدحت" بيقول كذا كذا.."، إنت مالك ومال "مدحت"؟ الله يخربيتك على بيت "مدحت" في ساعة واحدة.

## (٥٤)

رغم أن الإسلاميين، وتحديدًا الإخوان اكتسحوا الانتخابات البرلمانية، إلا أننا جميعًا كنا نثق من فوز "حمدين" بمقعد الرئيس. أو في أسوأ الظروف يتواجد في جولة الإعادة، ورغم علمنا أن قواعد الإسلاميين وأفكارهم منتشرة بشكل أكبر في الأرياف، وخصوصًا محافظة البحيرة، فهي تعتبر معقل الإخوان المسلمين لأن "حسن البنا" وُلد بها. وأيضًا معقل السلفيين، فرئيس حزب النور "يونس مخيون" من أبو حمص.. لكن رهاننا في الحملة لم يكن على هؤلاء.. الرهان كان على الشباب المثقف الواعي.. وكنا مخطئين!

لم ينجح "حمدين"، ولم يدخل جولة الإعادة، وكان ذلك صدمة لنا.. لكن جاءت الصدمة الكبرى حينما جاءت الإعادة بين مرشح الإخوان "مرسي" ومرشح الفلول "شفيق". فوجئت باتصال من الشيخ "إبراهيم"، فاعتقدت أنه يهاتفني ليشمت فيّ، خصوصًا بعدما خرج من منزلي وقفاه "يقمر عيش". ولكني كنت مخطئًا في ذلك أيضًا، إذ تحدث الشيخ عن ضرورة توحيد الصف والاصطفاف خلف مرشح الثورة - مرسي- ضد مرشح الفلول، وعن أننا لابد أن نلقي بخلافاتنا جانبًا خصوصًا في تلك اللحظات الحرجة من تاريخ الوطن والثورة.. وما إلى ذلك من شعارات فارغة أعلم يقينًا أن كلها كذب.. ثم قال في نهاية المكالمة، إن الحرب الآن بين الثورة والثورة المضادة، ولابد من دعم الدكتور "مرسي" إذا أردنا أن تحكم الثورة.. صمت لبرهة وأضاف:

-وعلى فكرة أنا عرفت إنك عاوز تعمل برنامج للأستاذ "نعيم".

لم أعقب فأردف:

-أنا يا سيدي بوعدك بعد الانتخابات اعتبر الأستاذ "نعيم" بقى إعلامي، وفي قناة مصر ٢٥ كمان.

وجاء موعد إجراء انتخابات الإعادة وذهبت إلى لجنتي وأبطلت صوتي. رسمت جزمة بجوار "شفيق" ، وإطار سيارة بجوار "مرسي" . ولكني خفت إن أعلنت ذلك على الفيس بوك، أن تضيع مني الفرصة التي وعدني بها الشيخ "إبراهيم" ، فلم أعلن.

ثم تأخر إعلان النتيجة فظننت أن المجلس العسكري يقوم بتهيئة الرأي العام لنجاح "شفيق" ، ولما صارحت سيادة اللواء "حمدي" بهذا الأمر، قال:

-تبقى غلطان لو فكرت كده.

وقبل أن أستفسر، قال موضحًا:

-العكس هو اللي هيحصل، عندي معلومات بتأكد أن "شفيق" ناجح بس المجلس العسكري هيعلن نجاح مرسي!

-والمجلس العسكري هيعمل كده ليه؟

-في الظاهر هيبان إنه خايف من الإخوان، بعد تهديداتهم الهبلة بحرق البلد لو مرسي ما نجحش.. لكن الحقيقة المجلس العسكري طمعان في السلطة.

أبديت تعجبي من منطقه، أن يطمع المجلس العسكري في السلطة فهذا أمر طبيعي، ولذلك سيعلن فوز "شفيق" بحكم أنه ابن النظام مثل طنطاوي قائد المجلس..!

قال سيادة اللواء موضحًا:

-الإخوان أغبياء وطماعين، عشان كده هيفشلوا، والإعلام حيهيّج الناس عليهم، وترجع الكورة في حضن الجيش تاني.. فطنطاوي يقدم استقالته من منصب وزير الدفاع ويرشح نفسه للرياسة.

صمت برهة ليرى وقع الكلام عليّ، ثم أضاف:

-وهينجح.

لم آخذ كلامه على محمل الجد، حتى بعد أن أعلنت اللجنة العليا للانتخابات نجاح "محمد مرسي العياط". وبعد نجاحه اتصلت بالشيخ "إبراهيم" كي أقدم له تهانيّ على وصولهم لكرسي الرئاسة، وأذكره بوعده.. ولكنه لم يُجب.. ثم أغلق هاتفه نهائيًا، فهاتفت "صلاح الدين" فرد عليّ باقتضاب، وقال كلامًا عن انشغالهم جميعًا بتنفيذ مشروع النهضة ليُطبق على أرض الواقع خلال المائة يوم التي حددوها لذلك. ثم أضاف أنه سيضطر لإنهاء المكالمة بسبب انشغاله، على وعد بالاتصال في أقرب فرصة. ثم مرت ثلاثة أشهر كنت أنتظر فيها اتصاله يوميًا ولكنه لم يتصل! وكنت أذهب خلالها إلى منزله ومنزل الشيخ "إبراهيم" بشكل شبه دوري، ولكن لم أجد أيًا منهما، والمكتب كذلك. لن أتحدث معك عما فعله الإخوان فينا، فأنت بالتأكيد قد سمعت عنه بعد أن أفقت من غيبوبتك.. باختصار، فشل ذريع أدى إلى تخبط في اتخاذ القرارات، ثم التراجع عنها. مع تصريحات ساذجة وإعلام مستفز، جعل من إعلام الفلول "مسيخ دجال العصر الحالي" أبطالًا. عموما.. يمكنك أن تراجع حلقات برنامج "البرنامج" للدكتور "باسم يوسف"، لتتعرف أكثر على ما فعله الإخوان بالبلد.

ولكن دعني أحدثك عمّن كانوا منهم مقربين مني قبل نجاح "مرسي" على سبيل المثال لا الحصر (صلاح الدين والشيخ إبراهيم) هؤلاء تغيّروا تمامًا، بدأوا بالاختفاء والابتعاد عن الناس البسيطة التي ساهمت بنسبة ٩٠٪ في نجاح مرسي ووصول الإخوان لحكم مصر. ثم لمّا ظهروا مرة أخرى أصبحوا يتعاملون مع الناس بتعالٍ وغرور. حتى شبابهم صغار السن (منتسبين ومنظمين) أصابهم ما أصاب القادة من نرجسية. ورغم كل هذا لم أيأس، وظللت أهاتف "صلاح الدين" الذي لم يُجب في البداية ولكنه رضخ مع إصراري. تحملت تعاليه فلم يكن أمامي طريق سواه لأسلكه حتى أنَلّ مبتغاي. ذكرته بما وعدني به الشيخ "إبراهيم"، ثم كذبت عليه وقلت إنني قمت بانتخاب مرسي وأنتظر منهم أن يوفوا بوعدهم، فقال إنه سيطرح الأمر عليهم مرة أخرى وأغلق الخط.

مر أكثر من شهر واحتقان الشارع ضد الإخوان يزداد يومًا بعد يوم، ولم أعد واثقًا من أن قناة مصر ٢٥ تصلح لتكون واجهة إعلامية تدخل كل البيوت كما كانت قبل نجاح "مرسي" وفشله – نجاحه في الانتخابات وفشله في تنفيذ وعوده – فلقد أثر ذلك الفشل سلبًا على شعبية الإخوان، وبالطبع تأثر إعلامهم أيضًا. ولكن لم يكن أمامي سوى هذا المنبر فقررت أن أتخلى عن جزء آخر من كبريائي، وأذهب إلى منزل الشيخ "إبراهيم" الجديد. (نسيت أن أذكر لك أن الشيخ اشترى قطعة أرض زراعية عقب نجاح مرسي مباشرة وأنشأ عليها منزلًا أشبه بالقصور). ولما ذهبت إليه استقبلني الخادم وطلب مني أن أخلع حذائي أمام الباب قبل أن أدخل، بحجة أن الأخوة يأدون الصلاة أحيانًا على السجاد المفروش فوق الأرض.. وكنت سأفعل ذلك من تلقاء نفسي فهي عادة عندنا في الأرياف إذا دخلنا بيتا نترك أحذيتنا خارجه، ولكني حزنت لما طلبها مني..

أجلسني في الصالون المُذهب ثم ذهب إلى حجرة الشيخ وعاد بعد دقائق يقول ووجهه في الأرض خجلاً:

-الشيخ نايم متأخر إمبارح وما أقدرش أصحيه يا ابني والله.. ابقى تعال له بالليل، هيبقى موجود.

ببساطة رفض أن يستقبلني، اتصلت بـ"صلاح الدين" ولكنه لم يرد كما أصبحت عادته. فازددت غضبًا على غضبي.. ومساء نفس اليوم، وبعد أن هـدأت، هاتفته مرة أخيرة، ولما لم أجد ردًا ذهبت ثانية إلى منزل الشيخ "إبراهيم" في محاولة أخيرة مني.

على باب المنزل وجدت حذاءً أعرفه، كنت قد اشتريته لـ"صلاح الدين" من سوريا وأعجبه. أخرجت هاتفي واتصلت به مرة أخرى، فلم يرد أيضًا، رغم أنني سمعت صوت هاتفه يرن بالداخل. كررت الرنة فجاء صوت الهاتف مرة أخرى ثم انقطع قبل أن ينقطع الرنين فعلمت أنه قام بتفعيل الوضع الصامت تجنبًا لإلحاحي المزعج.

أخذت ما تبقى من كرامتي وعدت إلى المنزل، فسألني "مينا":

-عملت إيه طمني؟

-لازم نفكر في طريقة تانية نخليك بيها شخصية مؤثرة عشان تقدر توحد الناس، لأن ما حدش هيساعدنا

-يعني إيه محدش هيساعدنا؟!

لم أرد، فسأل بإلحاح:

-"إبراهيم" ده قالك إيه؟

-ما قالش.. أنا أصلاً ما قابلتهوش!

سأل بغضب:

-اتهرب منك برضه؟

-لأ.. أنا ما دخلتلهوش أصلاً.

-ما دخلتلهوش ليه؟!

تنهدتُ عسى أن تُشعرني التنهيدة ببعض الارتياح، ثم قلت بعد فترة صمت قصيرة:

-كنت عاوز "يوسف" يكلمه قبل ما أقعد معاه عشان يقنعه، بس برن عليه ما بيردش. قلت يمكن مشغول ولا حاجة، رغم إني عارف ومتأكد إنه مش مشغول بحاجة من بعد ما مجلس الشعب اتحل في شهر ستة اللي فات.

أومأ برأسه، فأكملت:

-على باب بيت الشيخ "إبراهيم" شوفت جزمة "يوسف"، ورنيت على تليفونه ما ردش، رغم إني سمعت صوت التليفون بيرن جوه.. عارف ده معناه إيه؟

فكر قليلًا قبل أن يضع سبابته على جانب رأسه بجوار أذنه، إشارة لذكائه الخارق، ويقول:

-معناه أن الشيخ "إبراهيم" سرق جزمة "يوسف" وتليفونه.

قلت كلمة سوقية نستخدمها كشباب تعبيرًا عن الاعتراض، ثم تبعتها:

-لا يا ملك.. لا يا فرعون مش معناه أن الشيخ زفت سرق جزمة "يوسف" وتليفونه. جزمة إيه وزفت إيه على دماغك بس؟ هو إحنا في إيه ولا في إيه حرام عليك؟!

صمتُ قليلًا حتى أهدأ. فشعرت أنني قسوت عليه. فأضفت موضحًا بنبرة حانية:

-معناه إنهم قاعدين مع بعض جوه وإن وجودي مش مرغوب فيه. فحافظت على اللي باقي من كرامتي ورجعت.

## (٥٥)

في كل الأحداث السابقة لم تغب "ندى" عن عيني يومًا. لو لم نتقابل في الكافيه بدمنهور بعد أو قبل ذهابها للعمل، نتقابل في منزلها بإحدى جلساتي مع والدها. كلما ضاقت في وجهي السُبل أذهب إليها فأجد راحتي وصفائي، وأستطيع التفكير في الأمور بشكل أسهل. ولكن تلك المرة لم تكن المشكلة كما في المشاكل السابقة، كانت أكثر تعقيدًا بمراحل. حتى إنني بدأت أفكر للمرة الأولى في الفشل. فهذا الـ"مينا" بعقليته الساذجة تلك، لا يصلح لفعل شيء في هذا الزمان.

قبل أن أستسلم لذلك الخاطر، جاءتني فكرة بسيطة، ألهمني دكتور "باسم يوسف" أساسها، وهي أن أبث حلقات برنامجي على الـ"يوتيوب". لن يكلفني الأمر الكثير من المال، فقط كاميرا ديجيتال متوسطة الجودة، مع الاعتماد في التسويق على أصدقائي وجمهوري المتواضع على الـ"فيس بوك".. ولكن كان لابد أن أقدم طرحًا للموضوعات بشكل مختلف، لنحصل على نسبة مشاهدة عالية، فقررت أن يقوم "مينا" بالادعاء أنه الملك "مينا". ويحكي ما مر به بجدية دون مزاح. تخيّل ما الذي سيحدُثه فيديو، لشخص يدّعي أنه الملك "مينا" ويقدم أدلة كثيرة على ذلك؟ ثم تخيّل لو أن هذا الشخص هو "مينا" فعلًا؟! أعتقد أنه سيكسب شهرة شخص يدعي النبوة، مع الفارق طبعًا، فالذي يدعي النبوة يمقته الناس ويحاربونه. ولكن من يدعي أنه "مينا" سيسخر الناس منه، وتزيد شهرته يومًا بعد يوم، أو.. هكذا آمل.

قررت أن يكون البرنامج كله عن "مينا" فقط.. يحكي فيه الجوانب الخفية في شخصيته ويضيف عليها شعوره بعدما بعثه "حورس" في تلك الحياة، ووجد التاريخ يذكره بكل خير. ثم في الحلقة الأخيرة، يقارن بين الماضي والحاضر، شعبًا وحكامًا، فيعطي الحكمة بطريقة غير مباشرة. وبعد أن يبني قاعدة جماهيرية - إن استطاع - نتحدث عن الوحدة التي لأجلها بُعث.

سجلنا الحلقة الأولى، واستعنت بصديق لعمل المونتاج لها.. وبعد الانتهاء منها عرضتها أولًا على "محمد أمين"، فضحك كثيرًا وقال إنه لو لم يكن يعرف الأستاذ "نعيم" لصدّق أن هذا الذي في الفيديو هو "مينا" حقًا!

ارتحت لما وجدت رد فعل "محمد" على الفيديو الأول إيجابيًا، ثم قمت بنشره على الـ "يوتيوب"، على قناة أسميتها "نعرمر" وكتبت في تقديم الفيديو اسم "نعيم محمد أحمد نارمر" ووضعت صورة بطاقته الشخصية كافتتاحية لجميع الحلقات، وصورة كارتونية له كـ "لوجو" للقناة. ثم بدأت مرحلة أخرى من التسويق للفيديو، عن طريق عمل مشاركة له على جميع المجموعات السياسية والأدبية المشترك بها. وبعد ذلك أرسلت رابط الفيديو إلى جميع أصدقائي على الـ "فيس بوك" و "تويتر"، وجاءت التعليقات كلها إيجابية وتشيد بفكرة البرنامج وأداء الأستاذ "نعيم". ولكن رغم ذلك لم تتخط نسبة المشاهدة العشرين ألف مشاهد، مما أصابني ببعض اليأس، لكني صبّرت نفسي قائلًا، إن تلك العشرين ألفًا تعتبر نجاحًا بالنسبة لكونه أول فيديو.. حتى جاءت اللحظة الفاصلة في تاريخ "مينا"، حين قام دكتور "يوسف زيدان" بمشاركة الفيديو وكتب تعليقًا يشيد فيه بمعلومات الأستاذ "نعيم" التاريخية وأنه - يوسف زيدان - شخصيًا قد استفاد من مشاهدة هذا الفيديو واستمتع أيضًا. ثم انتقل بعد ذلك للإشادة بي حينما

تحدث عن ذكاء الفكرة وأثنى على عبقرية صاحبها، واختتم جملته بأن نصح الجميع بمشاهدة الفيديو وانتظار فيديوهات أخرى من الأستاذ "نعيم". بعدها مباشرة تخطى الفيديو المائة ألف مشاهدة وانهالت علينا التعليقات من كبار الكتّاب والأدباء والباحثين. فأصبح "نعيم نارمر" في غضون أسبوع شخصية عامة، بعد أن وصل عدد المشاهدات إلى مليونين وكتبت عنه معظم الصحف.

## (٥٦)

جاءته الكثير من العروض التلفزيونية، أقلها كان عرض قناة مصر ٢٥، الذي رفضناه دون حتى النظر فيه، وقبلنا عرضًا من قناة جديدة تدعى "الثورة" ذات أفكار وانتماءات تشبه أفكارنا، أو بمعنى أصح تشبه أفكاري وحدي فلم يكن "مينا" يفكر وقتها. قبلت العرض رغم ضعف المقابل المادي مقارنة بالعروض الأخرى، إلا أنهم وافقوا على بأن يقوموا بتجهيز ستوديو في دمنهور بالقرب من محل إقامتنا لكي نسجل داخله الحلقات. فقاموا على الفور بشراء شقة وتحويلها إلى ستديو، وكانوا يرسلون طاقم العمل المكوّن من مخرج ومساعده، ومصورين وإعداد وغيرهم، مرة كل أسبوع أثناء التصوير.

رفضتُ أن يُكتب اسمي على البرنامج، وفضلت أن أظل كما أنا، أحرك "مينا" في الخفاء. ولكنه مع الشهرة والأضواء بدأت تتكون لديه قناعاته الخاصة، وأصبح يتناقش معي كثيرًا ويخالف رأيي بآراء وجيهه وتحليل مختلف للأحداث. فرحت بذلك طبعًا لكن بدأت أشعر أني أفقد سيطرتي عليه رويدًا رويدًا، وهذا أمر يدعو للقلق.

شتّت هذا الأمر ذهني، فقررت تجاهله والتركيز على المهمة التي نحن بصددها. لكن بعد أيام قلائل جاء "مينا" إلى حجرتي ثائرًا، في حال لم أره عليها من قبل، وقبل أن أسأله عمّا حلّ به، صرخ في وجهي:

-إنت بتكدب عليا ليه؟

عن أية كذبة يتحدث؟ أم تراه أكتشف كذبي كله؟

-أنا كذبت عليك؟

-آه قولتلي أن القطر اختراع مصري وطلع إنجليزي!

تنفست الصعداء، فهو لا يعلم باقي الكذبات.. ولكن إلى متى سيظل جاهلًا بها؟ فتمالكت نفسي وقلت له الحقيقة كاملة، حتى مسألة الحياة الأخرى تلك شرحت له حقيقتها، فليست تلك الحياة الأخرى كما يعتقد، بل نفس الحياة ولكن بعد آلاف السنين. وليس "حورس" من بعثه ولكن الله هو من فعل، ووضع في يدي تلك التعويذة لأستخدمها فيما يفيد وطني وديني. وبالتالي فحتى لقاءنا في صحراء "أبيدوس" لم يكن مصادفة.

تزعزعت ثوابته وهدمت قناعاته، وغضب مني فجمع أشياءه وأصبح يقيم في "الاستديو" ولم يعُد يربط بيننا أي شيء سوى العمل، وأضحت علاقتنا علاقة إعلامي معروف بوكيل أعماله. حاولت كثيرًا أن أعيد الأمور إلى ما كانت عليه، ولكنه دائمًا ما كان يصدني. وظللنا هكذا إلى أن جمعت بيننا، أحداث الاتحادية.

يوم الأربعاء الخامس من ديسمبر عام ٢٠١٢، كنا نصوّر إحدى حلقات البرنامج داخل الاستديو بدمنهور. وقبل أن نبدأ جاءت مكالمة هاتفية إلى مدير التصوير، علمنا فيما بعد أنها من أخيه المصور الصحفي، يخبره بإصابته على يد ميليشيات الإخوان أثناء تغطيته الأحداث الجارية أمام قصر الاتحادية.

كانت القوى الثورية قد دعت جموع الشعب المصري للتظاهر، بعدما أعلن الرئيس آنذاك "محمد مرسي" الإعلان الدستوري.. واستجاب الآلاف لتلك الدعوات. فيما حشد الإخوان الموالين لهم وقاموا بفض تلك التظاهرات

بالقوة، والتعدي أيضًا على الصحفيين لمنعهم من تصوير وقائع الاعتداء على المتظاهرين.

تحركنا على الفور، فركب العاملون عربة القناة، بينما ركبت أنا و"مينا" سيارتنا التي اشتريناها سويًا قبل أن نختصم.. وأخذنا معنا مدير التصوير والمخرج، ثم انطلقنا جميعًا إلى القاهرة حيث المستشفى الميداني بالاتحادية.

## (٥٧)

بعدما اطمأننا على شقيق مدير التصوير، وكانت الساعة تقترب من العاشرة والنصف مساءً، ذهبت ومعي "مينا" لنتحرى عن الأمر، فعلمنا من الشباب أن الإخوان ظُهر اليوم أعلنوا النفير العام، لم أفهم معنى جملة "النفير العام"، ولكن ما جاء بعدها ساعدني على الفهم. هجم الإخوان وأنصارهم ظُهرًا على خيام المعتصمين وفضوها وطردوا القلة الموجودة هناك، بعدما استولوا على ممتلكاتهم الشخصية، واعتدوا عليهم بالضرب مما أدى إلى مقتل البعض.

انتشر الخبر على الإنترنت كما تنتشر النار في الهشيم.. فهاج الشباب وعادوا عصرًا بأعداد ضعف التي كانت موجودة سابقًا، وبدأت الاشتباكات قُرب أذان المغرب. فظهرت الأسلحة النارية بحوزة الإخوان مما زاد سيل الدماء والغضب فتضاعفت أعداد المتظاهرين للمرة الثانية، فقام الأطباء بعمل المستشفى الميداني التي يعالج بها شقيق مدير التصوير.

قررنا البقاء في القاهرة للمشاركة في الأحداث، فذهبنا إلى فندق كبير بوسط البلد وحجزنا غرفة مشتركة نبيت فيها ليلتنا. استلقى كل منا فوق فراشه، وقبل أن ننام اعتذرت له وطلبت منه أن يسامحني، فابتسم. وفي صباح يوم الخميس، علمنا من الدعوات التي أطلقها الشباب على الـ"فيس بوك" أن هناك تجمعات تتم اليوم في ميدان التحرير احتجاجًا على فض اعتصامات المعارضين لقرارات "مرسي" بالقوة.

في "التحرير" نظمنا مسيرة وطفنا بها مختلف أرجاء الميدان، مرددين الهتافات ضد الرئيس وعشيرته. ثم توجهنا بالمسيرات إلى الاتحادية تضامنًا مع المعتصمين هناك. فحدثت اشتباكات عنيفة لم يسبق لي أن رأيت مثلها، حتى أحداث "محمد محمود" كانت أقل عنفًا. ومع جريان أنهار الدماء تحت أقدام الطرفين، رأيته في المعسكر المضاد.. رأيته يضرب صبيّة ويقوم بجرّها على الأرض جرًا. كذّبتُ عيني للوهلة الأولى، حتى إنني فعلت كما في الأفلام وفركتُها عدة مرات لأتأكد أنني لا أحلم.. لأصدق أن ما أراه حقيقة وليس خيالاً.. لأتأكد من هويته.. نعم إنه "صلاح الدين"!

ما الذي أوصله إلى هذا الحد من القسوة؟ ما الذي يجعل "صلاح الدين الأيوبي" يسحل صبية بهذا الشكل؟! ما المشروب السحري الذي سقاه له "إبراهيم" وجماعته، لتحويله إلى هذا الوحش؟ وأين "إبراهيم" أصلًا من كل هذا؟ لا أعرف.. كل ما أعرفه، أنني يومها وللمرة الأولى شعرت بالندم لاستخدامي التعويذة.

هرولت تجاهه وكان "مينا" في أثري، وما أن وصلت حتى جذبته من كتفه فالتفت إليّ وسدد لكمة إلى أنفي دون أن يراني أصلًا، ولكنني رددتُ إليه أخرى أكثر قوة بشكل تلقائي مدافعًا عن نفسي. لما تلاقت عينانا بعد اللكمتين وجدته عينيه متسعتين من الدهشة، بينما عيناي كانتا تُخرجان نارًا من الغضب.. أبعدتُ يده عن البنت المسحولة، وأنا أغمغم بكلمات لم أتبين فحواها، رغم أني قائلها، ولكننا وقت الغضب لا نعلم ماذا نقول. أخذتها ومشيت عائدًا إلى خيام الثوار ولم ألتفت خلفي، ولكنني رغم ذلك رأيته بإحساسي يجحدني بنظراته الثابتة الثاقبة.

يوم الجمعة ذهبتُ باكرًا لأتواجد في الأحداث من بدايتها، وأحضر كل المواجهات. في الحقيقة لم يكن يعنيني سوى مواجهة واحدة فقط.. بحثت عنه كثيرًا ولم أجده.. اختفى من محيط الاتحادية فداخلني اعتقاد أنه عاد إلى رشده بعد لقاء الأمس. ولكن اتضح لي أني كنت مخطئًا، إذ ظهر بعد فترة قصيرة على قناتيّ الجزيرة ومصر ٢٥ اللتين كانتا تبثان بثًا حيًا لاعتصامات مؤيدي قرارات الرئيس "مرسي" في ميدان "رابعة العدوية".

مرة أخرى يظهر "صلاح" ولا يظهر "إبراهيم"! أين "إبراهيم"؟ لا أعرف!

## (٥٨)

هل ستصدقني إن قلت لك إنني علمت بسقوط الإخوان قبل انتهاء عام ٢٠١٢؟ علمت بذلك حينما عُدت إلى دمنهور ووجدتُ الشيخ "إبراهيم" - حليق الذقن - يعارض مواقف الإخوان، ويتحدث معلنًا عن رفضه لعنفهم وعن ندمه الوقوف بجوارهم في الآونة الأخيرة! وكما قرأت سابقًا فالشيخ "إبراهيم"، لا يراهن على الحصان الخاسر مطلقًا، ويبدو أنه على صلة بشخص ما في دائرة صنع القرار العسكرية، أو المخابراتية، مما يجعله يغيّر جلده، كما الثعبان، في التوقيت المناسب، حسب مصلحته!

جاء الاستفتاء على الدستور وأدت الأحداث السابقة إلى تراجع نسبة المشاركة بشكل ملحوظ، ولكن كالعادة جاءت النتيجة "نعم" لصالح الرئيس وجماعته. وحدثت العديد من الكوارث أُزهقت فيها أرواح مصريين آخرين، ولكننا لم نقف عندها، غالبًا لأننا اعتدنا الأمر!

ازددت يقينًا برحيل الإخوان حينما وجدت "إبراهيم" يدعو إلى "تمرد"، ويقف بجواري الكتف في الكتف، لذا قررت أن أترك "تمرد" وأركز في عملي حيث كتابة حلقات برنامج "نعيم نارمر".. ورغم ذلك دعمت الفكرة من البرنامج، إذ اقترحت على "مينا" أن يوقع استمارة "تمرد" أثناء التصوير، ويبثها على الناس في الحلقة المقبلة.

وفي ٣٠ يونيو سافرنا ثلاثتنا، أنا و"مينا" وسيادة اللواء "حمدي العيسوي"، إلى "التحرير"، واحتفلنا في الميدان.. استخدمت لفظ "احتفلنا" عمدًا، لأننا حرفيًا

لم نفعل شيئًا سوى الرقص والتهليل، والاستماع إلى الأغاني الوطنية. عكس ما حدث في يناير تمامًا. فهنا انهمرت فوق رؤوسنا رسائل شكر من طائرات القوات المسلحة، بدلًا من رصاص القناصة الذي انهمر علينا في سماء يناير، كما أمطرت سماء ٣٠ يونيو بكوبونات هدايا القوات المسلحة للمتظاهرين، بينما سماء يناير كانت تمطر ماءً من خراطيم الداخلية، في عز الصقيع. فبدلًا من أن يذكرني هذا اليوم بما رأيته في يناير، ذكرني باحتفالاتنا التي كانت تعقب فوز المنتخب ببطولات كأس الأمم الإفريقية، قبل الثورة أيام ما كان اهتمامنا كرويًا لا سياسيًا. ٣٠ يونيو لم تشبه يناير في شيء، اللّهم إلا اللحظة التي أعلن فيها وزير الدفاع آنذاك عزل "مرسي" ذكرتني فرحتي وقتها بفرحتي لحظة تنحي "مبارك".

بعدما انتهت الاحتفالات، فوجئت بوزير الدفاع يطلب من الشعب تفويضًا لمواجهة الإرهاب! جاهدتُ كثيرًا لأمنع "مينا" من الانسياق خلف تلك الدعوات، ولكنه كان قد أصبح أثيرًا في عشق السيسي، وزاد كلام اللواء "حمدي" عن الرجل من حجم هذا العشق في قلبه، فباءت كل محاولاتي بالفشل. وبدأتْ بعدها تحدث فجوة كبيرة بيني وبينه. إذ ابتعد وصار يرافق اللواء "حمدي" كظله، وانضم إليهم مؤخرًا "إبراهيم"، أحد أكبر مؤيدي السيسي على الإطلاق، ورأس حركة "كمل جميلك" بمحافظة البحيرة! في حين كنت أنا صاحب الأفكار الشاذة بالنسبة لهم، فأصبحتُ منبوذًا. حتى في العمل، أصبح "مينا" يُعدّل كثيرًا في الاسكريبتات التي أكتبها، لتتماشى مع قناعاته.. إلى أن استغنى تمامًا عن خدماتي، عندما جاءوا إليه بورشة كتابة من القاهرة تكتب ما يُرضيه ويُرضي "إبراهيم" واللواء "حمدي"، ليرضى عنهم وزير الدفاع.. فتحوّل البرنامج

من عمل وثائقي يقدم بطريقة غير مباشرة، إلى عمل هزلي.. وتحولتُ أنا من شخص حالم بوطن أفضل، إلى شخص حالم بـ "ندى" فقط، فاعتزلت السياسة نهائيًا كي أتفادى أي صدام قد يحدثه النقاش مع والدها، الذي كنت أتودد إليه لأظل "ابنه الذي لم ينجبه" كما قال، ويوافق على زواجي منها.

لكن دائمًا ما تأتي الرياح بما لا تشتهي السُفن.. استيقظت صباح يوم الأربعاء الموافق الرابع عشر من أغسطس عام ٢٠١٣ على حادثة دموية أخرى، ولكنها تتم تحت غطاء ورضا شعبي، سبّبهما شحن الإعلام للشعب، وغباء الإخوان وطمعهم.. جعلتني واقعة فض اعتصامي "رابعة والنهضة"، وما كان فيهما من وحشية، أخرج عن صمتي بعد اعتزال السياسة لما يقرب من شهر.

ولكن ماذا سأفعل وحدي وسط كل الأصوات الراضية عما يحدث؟ البرادعي أعلن عن رفضه سيل الدماء، وقدم استقالته من دائرة صنع القرار، وترك البلد كلها وهرب كما يفعل دائمًا. فما الذي بيدي أنا المسكين لأفعله؟

ذهبت إلى "مينا" وكنت آمل أن أجده قد عاد إلى رشده. حاولت أن أقنعه بوجهة نظري، أو على الأقل أجعله يفهم أن الذين يموتون الآن ويحرقون أحياء، ما هم إلا أناس سذّج، يضحي بهم قادة الإخوان ليظل العالم معتقدًا أن ٣٠ يونيو انقلاب.

- مش كل اللي في "رابعة" إرهابيين يا "مينا".

- بس كلهم إخوان!

- طيب ما الشيخ "يوسف" حبيبك إخوان، أنت تصدق إنه يقتل؟

- لا.. بس هو إيه اللي وداه هناك؟

وقبل أن أجيب، أكمل:

-وبعدين ما الشرطة عملوا ممر خروج آمن للي عاوز يخرج قبل الفض بالقوة.. الشيخ "يوسف" ما خرجش ليه؟!

أعلم أن هذه آراء عبثية والرد عليها أكثر عبثًا.. لكنني تمسكت بأمل إقناعه، فسألته:

-إنت مصدق الكلام ده؟

أخرج هاتفه ثم فتح مقطع فيديو وأشار إلى الشاشة قائلا:

-أنا شوفت بعيني الشرطة وهي بتخرج الناس اللي عاوزة تخرج قبل استخدام القوة.

كنت أود أن أسأله "طيب وما شوفتش بيودوا اللي بيخرجوا فين؟"، لكنني آثرت السكوت.. قام بفتح مقطع فيديو آخر، وقال:

-وشوفت برضه الإخوان اللي إنت بتقول عليهم مش كلهم إرهابيين وهما بيرموا الناس من فوق أسطح العمارات.

انسحبت.. ليس ضعفًا مني أو بسبب قوة حجته، ولكن لأنني تأكدت أن النقاش لن يغيّر شيئًا. حدثتني "ندى"، ولم يكن بداخلي طاقة للحديث، ويبدو أنها لاحظت ذلك، لأنها سألتني عما بي، فقصصت عليها ما حدث.. هدأتني قائلة:

-تصدق أن ده نفس الكلام اللي بابا بيقوله؟

-آه أصدق جدًا.

-طيب الحمد لله إنك ما قولتش كده قدام بابا.. كان هيزعل منك جامد.

لم أرد فاستأنفت:

-ده قاعد كل يوم هو والشيخ "إبراهيم" ده، فرحانين وبيشتموا في الإخوان.

الشيخ "زفت" مرة أخرى؟ ماذا يريد بعد كل الذي جناه من النفاق؟ قصور وخدم وحشم ومشاريع، بعد أن كان يبكي بسبب ضيق الحال! ألم يكتفِ بعد؟ أضافت سائلة:

-اسكت.. هو أنا ما قولتلكش؟

كانت تلك طريقتها حينما تريد جذب انتباهي إلى موضوع مهم.. قلت محاكيًا طريقتها:

-لا يا أختي والنبي ما قولتيلي.

قالت وهي تضحك:

-مش الشيخ "إبراهيم" عاوز يتجوزني؟

قلت "لفظ الاعتراض"، الذي أصبحت أستخدمه كثيرًا، ثم أغلقت الهاتف في وجهها، وارتديت ما وقعت عليه يدي من ملابس، وخرجت باحثًا عن ابن الـ....!

بحثت عنه في كل مكان قد يتواجد به، ولم أجده.. لا أعلم رد فعلي عندما أقابله، لكنني بالطبع لن أرحمه.. خلال رحلة بحثي عنه، لم ألتفت نهائيًا إلى هاتفي الذي كان يصدح بالرنة رقم ١٥٣ من "ندى". ولما يئست من إيجاد الشيخ "زفت" تفقدت هاتفي، وكان ما زال يرن باسمها، أجبت، فجاءني صوتها تقول بفلج:

-ما كنتش أعرف إنك بتحبني وبتغير عليا للدرجة دي.

قلت مصطنعًا الهدوء:

-إوعي تقوليلي إن الكلام ده مش حقيقي، وكان اختبارًا منك عشان تعرفي إذا كنت بحبك ولا لأ؟

ضحكتْ بشدة فأكملتُ صارخًا:

-ورحمة أبويا لو طلع الموضوع كده، الضرب اللي كان هياخده "إبراهيم" هضربهولك إنتي.

لم تتمالك نفسها من الضحك، ولما انتهت قالت:

-لا والله بجد، هو فعلًا أتقدم لي بس بابا هزأه، وعشان كده ما رضيتش أقولك.

باغتتها لأول مرة متحدثًا في مسألة الارتباط بها:

-ويا ترى أنا لو جيت لأبوكي هيهزأني برضه؟

تلعثمت في البدء ثم قالت:

-إنت عارف بابا بيحبك قد إيه، ودايمًا والله بيشكر فيك من ورا ضهرك مش قدامك بس.

-خلاص أنا بكرة هفتح معاه الموضوع.

## (٥٩)

انصب كل اهتمامي وتفكيري على لقائي بسيادة اللواء، فاشتريت "تي شيرت" يحمل صورة السيسي وبجواره يقف أسد، فوق خلفية باهتة لألوان علم مصر الثلاثة، ومكتوب تحت الصورة جملة "تحيا مصر".. لا بأس من بعض النفاق إذا كان سيوصلني إلى عرش ملاكي. ارتديت التي شيرت وفوقه "بليزر كلاسيك" ووضعت الكثير من العطر المفضل عند "ندى"، ثم ذهبت إلى منزل والدها.. وما أن رآني حتى أشار إلى التي شيرت مبتسمًا وقال:

-السيسي مرة واحدة!

مازحته:

-لأ.. السيسي مرة والأسد مرة.

ضحك بشدة ثم قال:

-الله يخرب بيتك، دمك زي العسل.. ما حدش بيقدر يضحكني الأيام دي غيرك والله.

قلت بمزاح أكبر:

-دي حاجة تشرفني إني أكون أراجوز سيادتك.

سألني وهو يضحك:

-إنما إيه الشياكة دي؟ شكلك رايح تقابل المزة وقلت تعدي تسلم علينا بالمرة.

قال عقلي: "آه لو تعرف مين المزة يا حمدي.."، بينما أكمل هو بسرعة كمن

تذكر شيئًا:

-صحيح ياض، إنت مش ناوي تتنيل تخطب بقى؟ عاوز أفرح بيك.

عاد عقلي يسأل: "الراجل ده مخاوي ولا إيه؟":

-والله يا كبير عاوز بس خايف أترفض.

-ومين دي اللي ترفض ابن اللوا "حمدي العيسوي"؟!

شجعني كلامه وفرحت به، وقبل أن أقول إنني أريد أن أتزوج "ندى"، ابنته، أكمل هو ليطمئنني أكثر:

-قول بس عينك على مين وأنا هروح أخطبهالك.

قلت فرحًا:

-"ندى"

-"ندى" مين؟

-بنت حضرتك.

تغيّرت ملامح وجهه وصمت لدقائق وددتُ فيها لو كانت التعويذة التي بحوزتي تستطيع قراءة الأفكار، لأقرأ ما يدور بخلده.. ثم قال أخيرًا بدبلوماسية متحفظة وبعيدة كل البعد عن طريقة حديثه فيما سبق:

-طيب يا "مدحت" سيبني أعرف رأيها وأدرس الموضوع ده وربنا يقدم اللي فيه الخير.

انصرفت من أمامه، وأنا أتخبط في سيري، ندمت وتعجلت في اتخاذ ذلك

القرار. ولكن إلى متى كنت سأنتظر؟ إلى متى وكل يوم يطرق باب حبيبتي رجل، يريد أن يتزوج منها؟ وهأنذا خسرت كل شيء، حتى مشاعر الأبوة التي حُرمت منها قبل وفاة أبي وشعرت بها تجاهه، لن أجدها بعد اليوم.. لأنني صدّقت كلام الأفلام.. صدّقت أن "ابن الجنايني ممكن يتجوز بنت الباشا".

في الطريق وقبل أن أصل إلى بيتي، هاتفتني "ندى" لتسأل عما حدث، فأخبرتها بما تم، ثم أعربت لها عن قلقي.. حاولت أن تطمئنني قائلة:

- ده رد فعل طبيعي يا حبيبي.

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة "حبيبي" منها.. ففرحت ونسيت قلقي، وارتحت أكثر بعد أن قالت:

- وبعدين بابا لو كان عاوز يرفضك، كان قالك في وشك، زي ما قال للشيخ "إبراهيم".

أقنعني منطقها، أو كنت أريد أن أقتنع به، كغريق يتعلق بقشة.. ولما طال صمتي أضافت شارحة:

- هو دلوقتي هيجي يسألني عن رأيي، وطبعًا هقوله إني موافقة، فتجيب إنت ماما وتيجوا بقى عشان تتفقوا على كل حاجة، ونعمل خطوبة ونفرح بقى.

بعد انتهاء المكالمة تحوّلت القشة إلى جذع شجرة، بينما ظل الغريق كما هو منتظرًا.

وسأحكي لك ما حدث، ولكن بعد أن أستريح قليلًا.. أعلم أن الانتظار صعب عليك.. لكن عليك أن تجربه مثلما فعلت أنا.

## (٦٠)

انتهى عام ٢٠١٣ وما زلت أنتظر الرد، ولم يأتيني بعد.. فكرت أن أحدث سيادة اللواء مرة أخرى، ولكن منعني خوفي من أن يأتي الرد بما لا تشتهي نفسي، فحاولت التقرب من "مينا" لأشغل نفسي في إكمال ما بدأناه، ولكني وجدتُ "إبراهيم" قد سيطر تمامًا على عقله، حتى حملة "كمل جميلك" أعتقد أنه ضمه إليها. فقد أصبح يقضي معظم وقته بين مؤتمراتها واجتماعات قادتها فلول نظام مبارك.. وقتها علمت أنني فشلت مرتين، الأولى مع "صلاح الدين"، الذي حُكم عليه بالحبس خمس وعشرين عامًا، فهرب إلى "قطر" حسب كلام الإعلام.. والثانية مع "مينا" الذي أضاعته طيبته المفرطة، أو سذاجته إن صح التعبير. وعليه قررت عدم استخدام التعويذة مرة أخرى، واعتزال السياسة نهائيًا، والتركيز في البحث عن عمل أو بدء مشروع خاص، لكي أقدر أن أُلبي متطلبات الفترة المقبلة، إذا ما وافق اللواء "حمدي" على زواجي من ابنته.

وفي نهاية شهر يناير عام ٢٠١٤ رن رقم مجهول على هاتفي، أجبت فوجدته "صلاح الدين".. بعد التحية والسلام ثم الاطمئنان على الصحة والأحوال، حاول التطرق للحديث عن السياسة فمنعته:

-أنا بطلت سياسة.. فعلًا وقولًا.

مازحني قائلًا:

-وإنت جاي دلوقتي وتتوب؟

ضحكت وقلت:

-والله وكبرت واتعلمت تقلّش زي المصريين؟

ضحك هو الآخر، ثم غيّر مجرى الحديث بشكل مفاجئ:

-عاوز منك خدمة.

-تحت أمرك.

-عاوز حتة أستخبى فيها لغاية ما الجو يهدي.

تعجّبت:

-هو إنت مش سافرت قطر يا عم؟

-كلهم سافروا بس أنا رفضت.

ساد الصمت فجأة.. كنت أتساءل: أأساعده أم لا؟ وكان هو ينتظر قراري. وطالت فترة الصمت، فقال:

-إيه؟ هتقدر ولا هتتخلى عني إنت كمان؟

لم أكن لأتخلى عنه، فأنا أعتبر نفسي سببًا رئيسيًا فيما حدث له، لذا.. ولكي أرتاح من عذاب الضمير، كنت أفكر في مكان آمن يختبئ به، ولما طال صمتي مرة أخرى، قال هو مطمئنًا:

-ما تقلقش الموضوع مش هيّطول.. السيناريو كالآتي: السيسي هيرشح نفسه للانتخابات وهينجح، وأول ما يتمكن من الحكم ويفرض سيطرة الجيش على البلد تاني، هيعمل مصالحة معانا وهتسقط كل التهم اللي علينا، والهربان مننا هيرجع والمسجون هيُفرج عنه.

لا أعلم من قال له هذا السيناريو الحالم، الذي ينتهي بنهاية سعيدة جدًا للإخوان. ولما رأيته مقتنعًا به وسمعتُ نبرة السعادة التي تتخلل صوته حينما يتحدث عن "المصالحة"، لازمت الصمت كي لا يوئِد كلامي أمله الوليد. رغم أنني كنت أعرف ألاّ مصالحة آتية بعد كل هذا الدم الذي سال، ولا السيسي سيصبح رئيسًا للبلاد، هو نفسه قال إنه لن يترشح، وأنا رغم أخطائه الماضية، أصدقه في ذلك.

-طيب سيبني أشوف الفلوس اللي معايا هتكفي ولا لأ، عشان ما عرفش الفكرة اللي في دماغي دي هيحتاج فلوس قد إيه.

حاول أن يقول شيئًا ولكني كنت ما زلت أتحدث فتراجع حتى أُكملت:

-وانت عارف إني سيبت الشغل مع الأستاذ "نعيم" وما بقاش معايا فلوس زي الأول.

-ما تشلش هم الفلوس، اللي تؤمر بيه هتلاقيه.

لم أكن أثق بأحد سوى "محمد أمين"، وخفت أن أحدثه في هذا الأمر على الهاتف أو شات الـ"فيس بوك"، فذهبتُ إلى منزله، وبدأت مرحلة جسّ النبض:

-أنا مش صعبان عليا في ده كله غير الشيخ "يوسف".. الراجل ده لحم كتافي من خيره، بس الإخوان ضحكوا عليه ولبسّوه أسود!

وجدتُ من "محمد" تعاطفًا شديدًا معه، فوضعت الأمر بين يديه، فقبله على الفور دون تردد.

كان في إحدى القرى المجاورة منزل مهجور، تعود ملكيته لامرأتين من عائلة

أمين أقارب "محمد".. كانتا متزوجتين بعيدًا عن المنطقة، إحداهما بقرية تتبع مركز "حوش عيسى"، والأخرى ناحية "كوم حمادة"، وقد ورثتا المنزل عن أمهما التي توفيت منذ ما يقرب من عام، فعرضتاه للبيع.. اقترح "محمد" أن نذهب إليهما ونشتريه، فقلت قلقًا:

-لو خبينا الشيخ "يوسف" في مكان قريب مننا، هيتمسك وهنروح معاه في الرجلين.

تقمص دور الحكيم وهو يقول بهدوء:

-أصعب مكان تخبي فيه حاجة، هو أسهل مكان، لأنه مش بيخطر على بال حد.

-مش ده اللي مخوفني.

-أومال خايف من إيه؟

-يا ابني المنطقة كلها عارفاه، وأنا خايف لا حد يشوفه ويتعرف عليه، هيبلغ عنه وتبقى مصيبة.

ضحك ثم ضربني ضربة خفيفة في كتفي وهو يقول:

-عيب عليك، ده إنت كنت شغال في برنامج مع ماكيير قدر يغيّر شكل الأستاذ "نعيم" ويخليه شبه "مينا"!

## (٦١)

انتظرت مكالمة هاتفية من "صلاح الدين" لأخبره بالخطة وأطلب منه النقود اللازمة لشراء المنزل. وقضيت فترة الانتظار تلك في تفقد أخبار فترة الانتظار الأخرى.. فترة الانتظار الكبرى.. انتظار رد سيادة اللواء بخصوص تحديد ملامح مستقبلي.. لكن لم أعد أطيق صبرًا فذهبت إليه بعد غياب أشهر، فتحت لي "ندى" الباب، وأدخلتني حيث يجلس والدها. وعلى باب الحجرة، سمعتُ صوتًا أمقته يقول:

-بيني وبينك هو عاوز يترشح، بس يلزمه ضغط شعبي، حركة كده عشان يوّصل للعالم إن الناس جابوه غصب عنه.. وده اللي إحنا هنعمله..

قطع كلامه لما رآني، رغم أنني وقتها لم أكن أعلم عمن يتحدث، إذ منعني كرهي له من التركيز فيما يقول.. سلّمت على سيادة اللواء، ثم سلّمت عليه، فقام ليحتضنني، لكنني أوقفته بيدي وأنا أقول:

-اقعد يا شي...

قطعتُ الجملة قبل أن أكملها، ثم صححتها وقلت:

-اقعد يا "إبراهيم" اقعد.

جلس بوجه مُحمّر من الخجل، بينما أكملت أنا راسمًا على ملامح وجهي ابتسامة:

-مش الأستاذ "نعيم" قالك قبل كده إني مش بحبك؟

بتحرج نفسك ليه بقى؟!

ضحك سيادة اللواء ليخفف من حدة الموقف، فضحك "إبراهيم" ليواري خجله وغضبه. وجلست أنا منتظرًا أن ينصرف لكي أتمكن من فتح الموضوع المؤجل بيني وبين اللواء "حمدي"، ولكنه لم ينصرف.. تنتهي الأحاديث التافهة، فينتقلان إلى غيرها أكثر تفاهة من سابقتها.. وهكذا حتى شعرت بالملل، فاستأذنت سيادة اللواء وانصرفت كما أتيت، خالي الوفاض.

وعلى فراشي ليلًا هاتفت "ندى" وأخبرتها بما جرى، فضحكت وقالت بتفاؤلها المعتاد:

-كويس إنك جيت النهارده.

سألتها بمرح:

-إيه كنت واحشك للدرجة دي؟

-لأ يا رخم.. كويس إنك جيت عشان بابا يفتكر.

-إيه ده يعني مكنتش واحشك؟

وأكملتُ قبل أن ترد:

-وبعدين إيه بابا يفتكر دي؟ هو بابا جاله زهايمر وأنا ما اعرفش؟

قالت بدلع:

-بطل رخامة يا عم، هو مشغول اليومين دول، ده حتى من كام يوم كنت بعاتبه عشان ما بقاش مهتم بيّا زي الأول، قال لي: استحملي شوية وبكرة هتشوفي

أبوكي حاجة كبيرة.

قلت بأسلوب مستفز:

-يا رب يا أختي إن شالله تشوفيه فيل حتى.

صرخت بغضب مصطنع:

-اقفل يا "مدحت".

-خلاص ما تزعليش.

سكتنا، فسألتني:

-بتفكر في إيه؟

قلت مستخدمًا نفس أسلوب الاستفزاز السابق:

-بفكر في حاجة أكبر من الفيل أدعي إنك تشوفي أبوكي قدها عشان ما تزعليش مني!

ضحكتْ، وضحكتُ، ونسينا كل مشاكلنا. وأخذنا الكلام كالعادة حتى شقشق الفجر، فأنهينا المكالمة لننام.. واستيقظت في النهار التالي على صوت هاتفي، نظرت إلى شاشته فوجدت "رقم مجهول".

## (٦٢)

لا أعرف إلى الآن كيف أرسل لي "صلاح الدين" تلك النقود، في محادثتنا الأخيرة أطلعته على الخطة التي وضعناها أنا و"محمد"، ولاقت استحسانه كثيرًا، رغم أنه أبدى اعتراضه في البداية على معرفة "محمد" بالأمر، ثم اطمأن لما قلت له إنني أثق به. وفي نهاية المكالمة طلبت منه أن يرسل لي نقودًا لأشتري بها ذلك المنزل، فطلب مني أن أترك باب المنزل المجاور للحظيرة مفتوحًا، وأنتظر منه مكالمة ليعلمني بمكان النقود داخل منزلي. فاستيقظت اليوم لأجد رسالة على هاتفي مكتوبًا فيها أن الأمانة موجودة تحت إحدى الأرائك بالمندرة، وتحت "الكنبة" المحددة وجدت حقيبة بها مائة ألف جنيه.

اتفقت مع "محمد" على أن نذهب إلى الأخت الكبرى أولًا، ومن حسن حظنا كانت الكبرى هي الأقرب، إذ تقطن بإحدى قرى "حوش عيسى".. علمت أنها وأختها مختلفتان بسبب الأحداث الأخيرة. فالأخت الصغرى "هناء" من مؤيدي "السيسي" وترى أن أختها الكبرى "نوال" خلية إخوانية إرهابية.. لم يكن يعنيني هذا الكلام في شيء، وكنت لا أزال على عهدي بعدم الخوض في الأحاديث السياسية مرة أخرى، فدخلت في صلب الموضوع وسألتها إذا كانت ترغب في بيع المنزل أم لا، وانصرفنا لما حصلنا على موافقتها. وفي اليوم التالي ذهبنا إلى "كوم حمادة" حيث الأخت الصغرى التي أرهقتنا:

-أنا عاوزة أبيع بس مش هبيع!

رد "محمد":

-ليه يا عمتي؟

-عشان عمتك نوال هتاخد فلوسها وتشتري بيها سلاح توديه للإخوان الإرهابيين يقتلونا بيه!

زفرت بضيق فلم أكن أحب أن أناقش السفهاء، فلا جدوى من نقاشهم أصلًا، عكس "محمد" صاحب البال الطويل، الذي قال بهدوء حسدته عليه:

- يا عمتي هو فاضل إخوان أصلًا، دول نصهم في السجون والنص التاني متشحطط بين قطر وتركيا.

اعتدلتْ في جلستها تستعد لإلقاء محاضرة ما على مسامعنا:

-لأ فاضل كتيييير، إنت فاكر أنصار بيت المقدس دول إيه؟ ما هم إخوان برضه يا حبيب عمتك.

وصمتت تتأمل وقع الكلام على "محمد"، ثم التفتت بنظرها ناحيتي وأكملت:

-إنت فاكر...

قاطعتها:

-أنا مش فاكر حاجة يا ست، ومش عاوز أفتكر أصلًا! محسساني إني بتكلم مع "سامح سيف اليزل"! وبعدين إنتي مالك تشتري بفلوسها سلاح ولا تشتري حشيش وهيروين. إن شالله حتى تولع فيها بجاز.. هي حرة!

ارتحت كثيرًا لما أخرجتُ ما في جعبتي من غضب، أما هي فألجمت الصدمة لسانها، فأردفت:

-هو إنتي لو روحتي اتبرعتي بفلوسك كلها في صندوق دعم مصر، حد هيقولك إنتي بتعملي كده ليه؟

غمز لي "محمد" بطرف عينه، كي أصمت، ففعلت، فتدخل قائلًا بنفس النبرة الهادئة:

-المبلغ حلو يا عمتي ودي فرصة مش هتتعوض.

لم تجب، ولكن بدا على وجهها بوادر اقتناع، فأكمل "محمد": 

-وبعدين إنتي عارفة البيت ده هيعملوا فيه إيه؟

نطقت أخيرًا، بصوت خافت:

-إيه؟

-عارفة الأستاذ "نعيم نارمر"؟

باغتني السؤال أكثر مما باغت عمته التي أجابته مستفسرة:

- "نعيم نارمر" اللي بيضحّك الناس، وبيحب السيسي، ومضى "تمرد" قدام الشعب في برنامجه؟

-أيوه هو ده.

اتسعت عيناها من الدهشة، وسألت:

-ماله؟!

-هيعمل البيت مخزن، مؤقتا كده، وبعد فترة حيهده ويبني مكانه استراحه يسكن

فيها.

تهللت أساريرها، وقالت بفرحة:

-مش هاخد منكم فلوس، بس أوعوا تقولوا لعمتك نوال إن الأستاذ "نعيم" هو اللي هيشتري البيت، أوعوا عشان دي لو عرفت مش هترضى تبيعه.

بعد أن عدنا، قمت بالاتصال بالماكيير، الذي نشأت بيني وبينه صداقة أيام عملنا سويًا مع "مينا"، وسألته مباشرة إذا كان ما زال على قناعاته، أم غيّرته الأحداث هو الآخر؟ فضحك وقال إنه لم ولن يتغيّر. كنا متفقين على أشياء كثيرة، أهمها أن "الإخوان خربوا البلد، بس فيه منهم مظاليم كتير"، فأخبرته أنني أريده أن يقدم لي خدمة، ويقوم بتغيير هيئة شخص ما دون طرح أسئلة، ودون إخبار أحد.

## (٦٣)

أصبح كل شيء جاهزًا لعودة "صلاح الدين".. وفي الليلة الأولى من شهر مارس، كنت أجلس أنا و"محمد أمين" وثالثنا الماكيير في انتظار قدومه. لما وصل، أنهى الماكيير عمله، إذ قام بحلق لحية "صلاح الدين" وترك شاربه فأصبح فلاحًا أصيلًا، ثم غيّر من شكل حاجبيه بمهارة، فأضفى تعبيرًا مختلفًا تمامًا على وجهه. ولما انتهى كان قد صنع منه شخصًا آخر. أنا نفسي لم أتعرف إليه.. ثم انصرف قبيل الفجر وتبعته أنا و"محمد" بعد أن اطمأننا على سير الخطة وفق النهج المرسوم لها.

استيقظت من نومي عصرًا، بسبب سهري الليلة الفائتة.. تفقدتُ هاتفي فوجدت مكالمة من اللواء "حمدي" قرب الواحدة ظهرًا لم أرد عليها.. استعدت نشاطي وأنا أتخيله يخبرني بموافقته على زواجي من ابنته، واتصلت به على الفور:

-ألو يا سيادة اللوا.. أنا آسف كنت نايم وما سمعتش الموبايل.

رد باقتضاب على غير العادة:

-ولا يهمك.. ابقى عدي عليا الليلة عشان عاوزك.

أنهى المكالمة فهاتفت "ندى" وأخبرتها بما حدث ثم سألتها إذا كانت تعلم لِمَ يريدني والدها أم لا، فردت بالنفي وأضافت أنه حتى الآن لم يفتح معها الموضوع من الأساس.

وليلًا، استقبلني في غرفة مكتبه للمرة الأولى، فشعرت برسمية المقابلة.. جلس

على المقعد الرئيس للمكتب بينما جلست أنا على أحد المقعدين المقابلين.. أشعل سيجارة ونفث دخانها، رغم علمه أنني أكره رائحة السجائر، ثم دخل في الموضوع مباشرة كعادته:

-إنت طبعًا عارف إني بحبك زي ابني.

هززت رأسي فرحًا، فأكمل:

-ويشرفني إني أناسبك.. بس...

ثم سكت، ليأخذ نفسًا آخر من سيجارته.. فعرفت أنه سيرفض، ولكني انتظرت لأعرف سبب ذلك الرفض.. انتظرت لأعرف ماذا بعد "بس"؟ وجاءني الجواب أغرب من الخيال:

-بس للأسف "ندى" مش موافقة!

أعرف أنه يكذب، فهو لا يعلم أنني و"ندى" تجمعنا علاقة حب.. شعرت باختناق وأصابني ضيق في التنفس، ليس بسبب دخان السجائر، بل بسبب تلك الطريقة المهذبة في الرفض.

يكفي أن أعرف أن الرفض منه هو، ولكنه لا يريد أن يجرح كرامتي.. عاد عقلي يتساءل مرة أخرى: كيف صدّقت أن بنت الباشا من الممكن أن تتزوج من ابن الجنايني؟

ابتعدت عن بنت الباشا، واستبدلتُ رقم هاتفي القديم بآخر لا تعرفه لأرحم نفسي من عذاب تجاهل مكالماتها. ودخلت في عزلة وبوادر اكتئاب.. فأصبحتُ لا أخرج من غرفتي مطلقًا، حتى الطعام عافته نفسي.. لم يكن لي رفيق في

عزلتي سوى "العود" الذي شغلتني عنه الأحداث والتغيرات التي طرأت مؤخرًا على حياتي.. وجدت فيه راحتي التي افتقدتها في الآونة الأخيرة. هكذا هو دومًا، ألجأ إليه في أوقات حزني فأجده يحنو عليّ حتى أكاد أبكي بين أوتاره تأثرًا.

وفي يوم ما لا أعرف تاريخه بالضبط بسبب العزلة الجبرية التي فرضتها على نفسي، طرق باب حجرتي "صلاح الدين" ، رغم أننا سبق واتفقنا على ألا يزورني في بيتي مطلقًا، ولكن من الواضح أنه سمع باكتئابي فجاء لمواساتي.. نظر إلى لحيتي التي طالت، وقال مازحًا:

-بقى إنت بتخليني أحلق دقني عشان تربي دقنك؟

لم أفهم ما قال، فأكمل موضحًا بنفس أسلوب المزاح:

-ما أنا عارفك مش بتحب حد يبقى زيك.. اصبر بس عليا لما تحصل المصالحة وهخلي دقني طول دقن "أبو بكر البغدادي"!

كيف يكون "صلاح الدين" بكل هذا التفاؤل رغم ما مر به؟ سأقول له الحقيقة لعلها تجعله مكتئبًا مثلي، فأجد من يرافقني:

-إنت لسه مستني المصالحة؟

-خلاص يا عم هانت، إنت ماشوفتش السيسي إمبارح في التليفزيون؟

-لا.. قال إيه؟

- قال زي ما أنا قولتلك بالظبط.. قدم استقالته وقرر يرضخ لرغبة الشعب ويترشح في الانتخابات.

تذكرت كلام "إبراهيم" مع اللواء "حمدي" الذي سمعته مصادفة عن نيته لترشح وحاجته لضغط شعبي، ولكن لم أتكلم.. فسألني عقلي عما سأفعل؟ فقلت: لا شيء، فقط سأحافظ على اعتزال ذلك العالم وأنتظر الموت. اتهمني ضميري بالسلبية، فقلت: وليكن. لقد عشت طوال حياتي إيجابيًا أو أحاول على الأقل أن أكون كذلك. فماذا استفدت؟ لا شيء. دُمرتْ حياتي، وحياة البنت الوحيدة التي عشقتها.. ودمرت موت بطلين لا ذنب لهما.. اللامبالاة هي الحل.. لأراقب ما يحدث كأنني أشاهد فيلمًا.

## (٦٤)

دخلت والدتي غرفتي التي أصبحتُ لا أفارقها لتخبرني بأن هناك ضيفين لا تعرفهما بانتظاري. في تقاليد الفلاحين، لا يوجد ما يسمى فلان مكتئب ولن يستطع أن يقابل أحدًا. حتى ولو كنت تفارق الحياة، الواجب يظل واجبًا ما دمت تتنفس.

خرجت إلى المندرة، حيث يجلس ضيفاي، فوجدت ما أذهلني.. آخر من كنتُ أتوقع رؤيته.. إنه الفتى اليهودي السوري، الذي بعثتُ والده، ولم أكن أتذكر اسمه، وبصحبته رجل آخر لم أره قبل الآن! سلمت عليهما، ولم ينبس الفتى بكلمة، الرجل هو الذي تكلم:

-طبعا إنت مش عارف أنا مين؟

هززت رأسي نفيًا، فقال:

-أنا عم "ليشع".

آه.. تذكرت اسمه "ليشع"، وهذا عمه رجل الأعمال المقيم في إسرائيل، قلت بفتور:

-ويا ترى جايين هنا ليه؟!

رد بنبرة العالم ببواطن الأمور:

-جاي أحل مشاكلك ومشاكلنا كلنا.

لم أفهم، فأضاف:

-هدخل في الموضوع على طول.

هززت رأسي فدخل في الموضوع:

-أنا عارف إنك بتقدر تصحي الناس من الموت، ومش عاوز أعرف بتعمل كده إزاي عشان دي حاجة ماتهمنيش. بس أنا عاو....

ضحكتُ فقطعتُ استرسال كلماته، ولما انتهيت من الضحك قلت نافيًا وأنا أشير تجاه "ليشع":

-أخوك "أبو ليشع" الأهبل ده مكنش ميت، ده كان في غيبوبة وهما افتكروه مات.

باغتني:

-طيب و"صلاح الدين الأيوبي"؟

ذُهلتُ ولم أقل شيئًا، فأضاف:

-و"مينا"؟

ثم ابتسم ابتسامة تحوي بين طياتها كل مخزون العالم من ثقة، قبل أن يقول:

-ماتستغربش، إنت ما تعرفش أنا بشتغل إيه في إسرائيل، ولا تعرف حاجة عن علاقاتي. وأحسنلك تفضل كده مش عارف وتسمع اللي هقوله وإنت ساكت، وتبقى ترد عليا بعد ما تفكر فيه كويس!

هذه معلومات لا يعرفها شخص على وجه الأرض، باستثناء "صلاح الدين" حتى "مينا" نفسه لم يعرف أنني سبب بعثه من الموت إلا مؤخرًا.. هذا الرجل إما

يعمل مع الموساد، أو الشاباك أو دكتور "توفيق عكاشة".. قال:

-عندي معلومات إنك أحبيت "صلاح الدين" و"مينا" عشان تساعد في نمو وطنك وتحل مشاكلها.

وهذه معلومات لا يعلمها أحد أيضًا!

-بس للأسف إنت حسبتها غلط.. مصر مش محتاجة أبطال، مصر محتاجة فلوس.. فلوس كتير تبنوا بيها مشاريع تنعش الاقتصاد وتزود العمالة وتقضي على البطالة.

وصمت لبرهه ليرى وقع الكلام عليّ، ثم أضاف:

-وكمان الفلوس هتخلي اللوا "حمدي" يوافق يجوزك بنته!

هذه معلومة لا يعلمها إلا أنا، حتى "صلاح الدين" لا يعرفها.. "ندى" نفسها لا تعلم أن والدها رفضني! هذا الرجل لا يعمل مع الموساد أو الشاباك ولا حتى مع دكتور توفيق، هذا الرجل "مخاوي".

-المهم.. أنا عندي معلومات عن أكبر كنز في العالم، ومش عاوز منك غير تحيي الشخص اللي عارف مكان الكنز ده!

ودفعني فضولي نحو سؤاله:

-كنز إيه؟

-كنز سليمان!

من هذا المعتوه؟ أيريد مني أن أبعث نبيًا! ألا يعلم ما أحدّثه العبث بموت "صلاح

الدين" و"مينا"، حتى يأتي ليطلب مني أن أبعث نبيًا؟

-إنت عاوزني أبعث سيدنا سليمان؟!

رد بسرعة نافيًا:

-لا لا لا، إنت فهمت غلط.. كنز سليمان أصلًا اتسرق، وأنا عندي معلومات عن هوية اللي سرقوه، وعرفت مكان قبر واحد منهم. هاخدك وتروحوا عند القبر تبعثه، يدلنا على الكنز، نقسمه بالنص.

تغيّرت نبرة صوته وهو يضيف:

-رغم أن الكنز أصلًا ملك لليهود.

تجاهلته وسألت:

-ومين بقى اللي سرقوا كنز سليمان؟

-فرسان الهيكل.

الاسم ليس بغريب على أذني، شردتُ بتفكيري محاولًا التذكر، فأضاف:

-فرسان الهيكل أو فرسان المعبد.. تسمع عنهم؟

تذكرت.. قرأت عنهم سابقًا، ولكن بشكل عابر ودون تركيز، أذكر مما قرأت أنهم وجدوا كنزًا تحت أرض المسجد الأقصى بالقدس على ما أعتقد، وأعتقد أيضًا أن هذا الكنز لم يكن مالًا، بل كتب سحر كتبت في عهد سيدنا "سليمان".. حدثته بذلك، وأضفت:

-هو عشان كده بيسموهم فرسان الهيكل؟ عشان هيكل سليمان وكده؟

-كلامك فيه جزء بسيط من الحقيقة.

-وإيه هي الحقيقة؟

حكى لي عن بدايتهم: بعدما استولت الحملات الصليبية على القدس، تعرض الكثير من الحجاج المسيحيين للترويع وأحيانًا القتل على يد قطاع الطرق. فتقدم شخص ما لا أذكر اسمه الآن، إلى ملك القدس آنذاك - لا أذكر اسمه أيضًا- باقتراح لإنشاء تنظيم رهباني مهمته حماية الحجيج المسيحيين. وافق الملك وجهز للفرسان التسعة، مقرًا في جبل الخليل بالمسجد الأقصى.. وعمل الفرسان على حماية الحجيج، وتعاهدوا على الفقر، حتى أنهم اختاروا رمزًا لهم عبارة عن فارسين يمتطيان جوادًا واحدًا في إشارة منهم إلى ضيق حال التنظيم. ثم بين ليلة وضحاها، ظهر عليهم الغنى والثراء الفاحش، واستمر نفوذهم في التوسع حتى أصبحوا يسيطرون على العالم تقريبًا. أرجع بعض الناس ذلك الثراء إلى التبرعات التي كان يتلقاها التنظيم من الشعب والكنيسة وغيرهم.. ولكن عم "ليشع" كان يميل إلى التفسير الذي يقول: إن فرسان الهيكل التسعة وجدوا تحت مسكنهم بجبل الخليل، أنقاضًا وسراديب تحوي داخلها كنز سليمان. ولم يكن الكنز كتبًا للسحر فقط، بل كان "ذهب ومرجان وياقوت" كما يقول "السندباد" حتى خاتم "سليمان" وجدوه، ولكنهم لم يعلنوا ذلك، فقط أعلن التسعة الأوائل إلى الآخرين في التنظيم، أنهم وجدوا كتبًا للسحر. أما الكنز الحقيقي فاقتسموه فيما بينهم وبدأوا بتمويل التنظيم ليحصلوا على غطاء لذلك الثراء، كعمليات غسيل الأموال التي يقوم بها رجال الأعمال في الوقت الراهن.. ولما انتشرت حكاية كتب السحر تلك بين الناس، استخدمها الملك فيليب للقضاء على التنظيم بتهمة الهرطقة.

وعليه.. فإن الكنز الحقيقي لا يعرف مكانه إلا الفرسان التسعة الأوائل في تنظيم فرسان الهيكل:

-وأنا دلوقتي معايا معلومات عن اسم ومقبرة واحد من التسعة دول، وجايلك عشان تساعدني.

أعجزني كلامه عن الرد.. هذا الرجل لا يعمل مع الموساد أو الشاباك ولا مع دكتور توفيق، ولا حتى "مخاوي" جن، هذا الرجل "مخاوي" جن وهذا الجن يعمل مع الوساد ومع الشاباك ويقوم دكتور توفيق عكاشة أحيانًا بتحضيره!

نهض واقفًا لما علم بحسّه الأمني - أو حسّه السُفلي - أني بحاجة للتفكير:

-هسيبك تفكر.. بس عاوزك تتأكد من كلامي كله وتراجع مصادرك قبل ما تقرر!

قلت:

-مصادري مين يا عم؟ إنت فاكرني زيك؟!

فكّر قليلًا قبل أن يقول:

-إرجع للنت، وعندك "صلاح الدين" برضه هيفيدك.

-وإيه علاقة "صلاح الدين" باللي بتقوله ده؟

ابتسم بخبث ومد يده ليصافحني وهو يقول:

-إنت ما تعرفش أن "صلاح الدين" هو اللي هزم فرسان الهيكل وطرد الصليبيين من القدس ولا إيه؟

لاحظت بالتأكيد أنني أينما أذهب، طاردني "صلاح الدين" والقدس.

سأكمل لك القصة غدًا، فقد شقشق الفجر، وأصابني إجهاد بسبب الكتابة لما يقرب من ثمانية عشرة ساعة. كما أعلم أنك أيضًا مجهد، فحالتك الصحية ليست على ما يرام ولا تحتمل كل هذا السهر.

## (٦٥)

لم أستطع النوم.. أصابني سهاد وتملكني أرق بمجرد دخولي الفراش، ففكرت أن أكمل حكي قصتي لك، على أن تراها أنت حينما تستيقظ من نومك، فلم أتوقع أن أجدك مستيقظًا أنت الآخر! يبدو أن السهاد قد أصابك مثلي. أو لعلّها قصتي هي التي شغلت تفكيرك فعجزت عن النوم.. ولو كان الأمر كذلك، فأنا أسعد الناس بسبب قدرتي على إثارة فضول أشهر أديب عرفته مصر.

دعني أكمل إذن لأرضي فضولك..

انخرطتُ في البحث عن فرسان الهيكل، وشغلني التفكير في أمرهم حتى نسيت "ندى"، أو تناسيتها عمدًا، وبدأت أخرج من عزلتي وأختلط بالعالم مرة أخرى. كنت أعلم أنني مراقب، وهذا الأمر أزعجني بشدة، وأربكني حتى إنني أصبحت طوال الوقت أتلفت حولي، وأشك في كل من ينظر ناحيتي.

في رحلة بحثي عن صحة ما قاله عم "ليشع" الذي لم أعرف اسمه، فأطلقت عليه "شيمون" نسبة إلى "شيمون بيريز".. تهتُ في رحاب الإنترنت ووجدتُ أقوالًا كثيرة متضاربة ومتناقضة مع بعضها. فقررت الاستعانة بالمصدر الوحيد المتبقي والذي عايش الأحداث.. وأكد لي "صلاح الدين"، صحة معظم الكلام الذي قاله شيمون. ولم أكن بالطبع سأقبل عرض هذا الصهيوني، حتى لو كان سيقتلني إن لم أفعل، ولكنني كنت أبحث كي أرضي فضولي فقط.. ولما جمعتُ كل المعلومات المتاحة عن الموضوع، طردته من تفكيري. وقبل أن أعود إلى عزلتي واكتئابي مرة أخرى، وجدتُ "مينا" يطرق بابي. وما أن رآني حتى ارتمى

بين أحضاني وأخذ يبكي بمرارة.

-إنت كنت صح؟

مسحت دموعه وقلت ممازحًا إياه:

-أنا طول عمري صح.. بس إنت عامل زي الشعب، ما بتفوقش غير في الوقت الضايع.

وهكذا عاد "مينا" بسذاجته وطيبته وحسن نيته، ليملأ عليّ الفراغ الذي أحدثه بعدي عن "ندى". رجعنا للعمل سويًا مرة أخرى، أكتب له حلقات فيها سخرية من موقف الإخوان حينما قالوا إنهم لن يرشحوا أحدًا في الانتخابات الرئاسية، وقاموا بترشيح "الشاطر" ولما استبعدته المحكمة رشحوا بدلًا منه "مرسي".. ثم في نفس الحلقة نسخر من موقف "السيسي" حينما فعل ما فعله الإخوان بالضبط، ولكنه استخدم فلول مبارك وبعض رجال الأعمال من أجل إعطائه بعض الغطاء الشعبي.

ذات يوم كنت أجلس مع "مينا" بالاستديو وجاءت إلينا "ندى"، ألقت علينا السلام وجلست دون أن تنبث بكلمة.. بعد فترة صمت فتح "مينا" حديثًا في كلام عام، وردت "ندى" عليه باقتضاب لتجعله ينتهي من الحديث مبكرًا، ويتركنا وحدنا.. لكنه لم يفعل، فقلت:

-ما تسيبنا شوية يا أستاذ "نعيم".. بعد إذنك يعني!

تنحنح محرجًا ثم خرج.. فقالت "ندى":

-ممكن تفهمني كنت مختفي فين؟ ومش بتكلمني ليه؟

-كنت مكتئب، ومش عاوز أضايق حد.

كررت آخر كلمة بتعجب:

-حد! هو أنا بقيت حد؟

صعبتُ عليّ، فقلت بنبرة حانية:

-إنتي عارفة إنك أغلى حد، بس أنا ما حيلتيش غير كرامتي ومش مستعد إنها تتهان.

-يعني إنت نويت تتخلى عني.. نويت تستسلم بعد ما خسرت أول جولة في المعركة؟

ضحكت باستهزاء وقلت ساخرًا:

-والنبي فكك من جو الأفلام ده عشان بيقفلني.. المرة اللي فاتت أبوكي كان ذوق ومارضيش يحرجني، يا عالم المرة الجاية هيعمل معايا إيه؟

سيطرت على غضبها وسرقت ابتسامة من جيب حزنها الدفين، وضعتها على شفتيها وهي تقول:

-أنا عشان مقدرة الحالة اللي إنت فيها مش هحاسبك على الكلام ده دلوقتي، لكن هحاسبك لما ننتصر وتروق.. هحاسبك لما نتخطب!

صرخت فيها للمرة الأولى منذ أن عرفتها.. يئست من نظرتها المتفائلة وانزعجت لأنها لا تعيش معنا على أرض الواقع، بل تطير في سماء الأحلام. وجاء دوري لأجعلها تسقط:

-مش هنتخطب.. مش هاجي لأبوكي تاني أصلًا.. ما تفوقي بقى من الأحلام اللي إنتي عايشة فيها دي!

بكت، وكانت تلك أول مرة أراها تبكي.. كنت دومًا سببًا لسعادتها، وأعرف كيف أرسم الضحكة على شفتيها.. بعد فترة صمت وبكاء انصرفت دون أن تضيف كلمة أخرى، فانتظرتُ دقائق بعدها ثم تركت الاستديو وقفلت عائدًا إلى القرية.. وطول الطريق من الاستديو إلى فراشي، يدندن عقلي بأغنية "أنا وليلى" لـ "كاظم" لا أعرف متى حفظتها، ولا كيف استدعاها عقلي الباطن، ولكنني وجدتها تُغنى داخلي، ففرحت، ثم بكيتُ بشدة حينما ردد عقلي المقطع الذي يقول: "لو كنتُ ذا طرف ما كنتِ رافضة حبي.. ولكن عسر الحال فقر الحال ضعف الحال، مأساتي".

وعلى فراشي، كنت أجهز نفسي للعودة إلى العزلة مرة أخرى والهروب من الواقع. فتحتُ اللاب توب، وشغلتُ أغنية وحيدة "أنا وليلى"، وظللت أستمع إليها وأبكي عند نفس المقطع المؤلم، حتى مللت الأغنية وجفت دموعي من كثرة البكاء، فبدأت أبحث عن أغانٍ أخرى، تعبر عن معاني أخرى غير "المعايرة" بعسر الحال وفقر الحال وضعف الحال ومأساتي!

لفت نظري اسم أغنية "إلى من كانت الأولى في حياتي"، واضح من الاسم أنه عنوان خطاب يرسله كاظم إلى من كانت الأولى في حياته، واستخدام كلمة "كانت" يدل على أنهما افترقا. وبما أن "ندى" ويا للصدف هي الأولى في حياتي وبما أننا أيضًا قد افترقنا، فسمعت الأغنية.. أول مرة لم يعجبني اللحن، ولم أكن في كامل تركيزي مع الكلمات، فأعدتُ تشغيلها مرة أخرى، وحدث نفس الأمر.. فمللت منها مبكرًا فوضعت أغنية "أتحبني؟" بعدها في مشغل الأغاني،

وقبل أن أغلق "إلى من كانت الأولى في حياتي" تغيّر اللحن وقالت الكلمات:

"آخر خبر ابتسمي واسمعيه.. شارع ذكرياتي وحدي أمشيه..

لفت نظري عطر كنتي تحبيه.. لفت نظري عطر كنتي تحبيه..

اشتريته ورحت للبيت.. وعلى صورتك رشيت".

أعجبتني الكلمات فقررت أن أفعل كما فعل كاظم لعلّي إن فعلت ذلك تطيب جراح قلبي.. فتحت صورتها على هاتفي، وقمت برش العطر الذي تحبه "ندى" على صورتها، فوق شاشة الموبايل.. وكان كاظم يقول: "وعلى صورتك رشيت.. يا محتالة إنتي.. من الصورة طلعتي".

انتظرت أن تخرج المحتالة من صورتها كما فعلت محتالة كاظم، ولكنّ محتالتي لم تخرج: "يا محتالة إنتي.. من الصورة طلعتي"، أظلمت شاشة الهاتف، فقال عقلي "إيه الجنان ده بقى؟ الموضوع بجد يا كاظم ولا إيه؟" لكن محتالتي لم تخرج أيضًا، ما خرج كان اسمها "حبيبتي تتصل بك" أجبت دون تفكير، دون حتى أن أتعجب من كيفية حصولها على رقم هاتفي الجديد:

-ألو.

لم يأت رد منها فصرخت:

-ألوووووو.

صمت تام، لا أسمع صوتها ولا حتى أي صوت آخر:

-الله يخرب بيتك يا كاظم.. يظهر كده "العطر اللي على صورتها رشيت" بوظ سماعة التليفون!

فتحت المايكروفون، وقلت:

-ألووووو

فجاء صوتها أخيرًا وكانت تصرخ هي الأخرى:

-ألو ألو ألو، بقالي ساعة بقولك ألو.. وبعدين عطر إيه اللي رشيته على صورتي؟

أخبرتها ما حدث، فضحكت بشدة، فقلت لها:

-ثواني هسمعك الأغنية، وأروح أدوّر على الهاند فري عشان أعرف أكلمك بعد التليفون ما باظ..

أعدتُ المقطع من بدايته، ووضعت الهاتف، فوق سماعات اللاب توب، وذهب في رحلة بحث عن سماعات الهاند فري، داخل أرجاء غرفتي، حتى سمعتُ كاظم يقول "بوستيني" فتركتُ ما كنت أبحث عنه، والتقطتُ الهاتف من فوق اللاب توب، وقلت:

-إيه؟

اعتقدت أنني أسألها عن رأيها في الأغنية، فقالت:

-حلوة أوي.

فقلت مصححًا:

-لأ مش إيه رأيك.. إيه الكلام..

لم تفهم، فوضحت لها ما أقصد، مستخدمًا أسلوب المزاح:

-الراجل عمال يقول بوستيني بوستيني من الصبح.. ما فيش حاجة علينا طيب؟

قالت بصوت مكتوم، كمن يخشى أن تفلت منه ضحكة:

-لا مفيش.

-طيب بوسة واحدة حتى أعوض بيها التليفون اللي باظ.

خجلتْ فغيّرتْ مجرى الحديث وسألتني:

-لقيت الهاند فري؟

زفرتُ مدعيًا الغضب، ثم قلت:

-لسه.

-طيب شغل الأغنية من أولها وروح دوّر عليه.

-فعلت ما طلبت، ولما وجدتُ الهاند فري وعدتُ، كانت الأغنية قد انتهت وبدأت أغنية أخرى تسأل فيها أنثى "كاظم": أتحبني رغم الذي كان؟ فيجيبها: إني أحبك رغم ما كان.. رفعت الهاتف واعتذرت لتأخري فقالت متجاهلة اعتذاري:

-أنا حبيت كاظم أوي.

وقبل أن أبدي تعجبي على ردها، أضافت:

-علّي الأغنية دي شوية عشان عاوزة أسمعها.

مازحتها:

-إنتي بترني عليا عشان تسمعيني ولا تسمعي كاظم؟

ثم تذكرتُ شيئًا فسألتها:

-وبعدين قوليلي صحيح إنتي جيبتي رقمي منين؟

قالت بغرور مصطنع:

-هع.. هو أنا شوية في البلد ولا إيه؟ دانا أبويا هيبقى محافظ قريب يا ابني.

تنحنحت محرجًا، فارتبكت وقالت:

-علّي الأغنية يا عم وبطل رخامة دلوقتي!

كان "كاظم" قد وصل إلى مقطع جعلني أعتقد أن روح "نزار قباني" سافرت إلى المستقبل وشاهدت ما يحدث معي أنا و"ندى"، ثم عاد لتسكن جسده فيكتب تلك القصيدة.. ليكتبها عنّا:

"هذا الهوى ضوءٌ بداخلنا ورفيقُنا ورفيقُ نجوانا

طفلٌ نداريه ونعشقهُ مهما بكى معنا وأبكانا

أحزاننا منهُ ونسألُهُ لو زادنا دمعًا وأحزانًا

هاتي يديْكِ فأنت زنبقتي وحبيبتي.. رغم الذي كانْ".

قال "كاظم" عن "نزار" أكثر مما كنا سنقول، وعبّرا عن مفردات تعتمل بداخلنا ولم نكن لنجد أفضل من تلك الكلمات لنقولها.. وبدلًا من أن أحبطها وأجعلها تبتعد عني، استطاعت هي أن تعيد إلى روحي الأمل في زواجي منها.

## (٦٦)

لما قابلت "مينا" بعد مكالمتي مع "ندى" سألني:

-"ندى" كلمتك؟

تعجبتُ:

-وانت عرفت منين إنها كلمتني؟

تلعثم:

-لا ما عرفتش ده أنا بسأل بس.

فهمت كيف حصلت على رقم هاتفي الجديد:

-إنت اللي إديتها رقمي؟

أجاب مرة بالنفي ومرة بالإثبات، فضحكتُ وقلت له إنني سعيد فلولاه لظللنا مفترقين.. انتظرتُ أن يسألني عما سأفعله مع والدها، لكنه لم يسأل بل أخرج شيكًا وأعطاه لي وهو يقول:

-دي فلوسك على شغلك في البرنامج الفترة اللي فاتت.

نظرت حيث المبلغ المكتوب داخل الشيك، فوجدته بمبلغ خمسين ألف جنيه:

-بس دول كتير أوي!

-دول قد مرتب شهر واحد من اللي بياخدوه العيال بتوع ورشة الكتابة.

كنت أعرف إنه يفعل ذلك ليساعدني بطريقة غير مباشرة في أن أحقق حلمي بالزواج من "ندى". هكذا هو، دومًا ما يساعد من يحب.

انغمستُ في العمل وعكفت على جمع النقود عسى أن أقنع سيادة اللواء، فيزوّجني ابنته. وساعدني هذا على التوقف عن التفكير في أمر التعويذة، حتى موضوع شيمون بخصوص كنز فرسان الهيكل، نسيته. حتى زارني مرة أخرى.

قابلته بجفاء وأعلنت رفضي، فقال إنه توقع ذلك.. فالمعلومات التي لديه عني تؤكد أنني سأرفض.. سكت فترة مفكرًا، وبعدها قال إن زيارة اليوم ليست لمعرفة قراري، بل لتقديم عرض آخر. وعرض عليّ ثلاثة أرباع الكنز وهو الربع! فرفضت ذلك أيضًا، ففكر قليلًا ثم عرض الكنز كله. تعجبت وسألته عما سيجنيه إن حصلتُ أنا على الكنز كله؟ فقال إنه كذب عليّ، وأوضح لي أنه لم يأت من تلقاء نفسه، بل أرسله "الموساد" ليقوم بتجنيدي للعمل لصالح إسرائيل، وشرح لي كيف أنه تعجب عندما سمع من "ليشع" ما فعلته، ثم سافر من إسرائيل إلى سوريا وتحرى عني حتى حصل على اسمي من استعلامات الفندق الذي رآني "ليشع" أدخله.. فرجع إلى إسرائيل مرة أخرى، وجمع كل المعلومات المتاحة عني باستخدام تكنولوجيا مخابراتية تمتلكها إسرائيل وحدها، غير معروفة بالنسبة للعالم بعد.. وعلم من خلال مراقبتي أنني وجدت طريقة تمكنني من إحياء الموتى، وكانوا يشكون في ذلك الأمر، إلى أن قمتُ بإحياء "مينا"، فتأكدوا من صحة شكوكهم.. قال أيضًا: وبالبحث خلف دوافعك لبعث "صلاح الدين" و"مينا"، علمنا أنك تريد توحيد العرب تحت راية قائد واحد. وفي حقيقة الأمر هذا شيء لا يقلق إسرائيل بالمرة، كما تعتقد، أو كما يصوّر لكم قادتكم وإعلامكم.. ولما عرضتُ حكايتك تلك على رؤسائي في

الجهاز، طلبوا مني تجنيدك، فقلت لهم إن هذا أمر شبه مستحيل، لأنني لمست فيك حبًا لوطنك لم أره في حياتي أو حتى أسمع عنه. فشخص غيرك لو وقعت تحت يده طريقة يحيي بها الموتى، لكان قد استخدمها لمجد شخصي، وجمع ثروة وشهرة، وخلودًا أيضًا.. لكنك لم تسع لأي من ذلك، وهذا ما جعل من مهمة تجنيدك لتعمل لدينا أمرًا مستحيلًا كما قلت سابقًا.

ولذا.. فقد كثفنا المراقبة عليك، لنجد لك نقطة ضعف، حتى أهدانا إياها اللواء "حمدي" حين رفض زواجك من ابنته. ففكرنا أنك سوف تلعن الظروف التي أوقعت بك في بلد مثل مصر.. بلد لا مكان للفقير فيه، ففكرنا أن نغريك بالمال وكنز "سليمان".

بعدما سيطرت على ذهولي وتمالكت نفسي، سألته:

-أفهم من كده إن مفيش كنز ولا حاجة؟

-لا فيه كنز طبعًا بس إحنا مش هدفنا الكنز.

تعجبتُ ولم أرد، فأكمل:

-إسرائيل فيها فلوس كتير، واليهود بيسيطروا على أغنى شركات العالم، حتى البنوك، الناس اللي بيملكوها كلهم ولاؤهم لإسرائيل.. خد بقى التقيلة.

وانتظرَ حتى أستعدُ لأخذ التقيلة، ثم أضاف:

-فرسان المعبد نفسهم من بني إسرائيل، وما لاقوش كنز "سليمان" صدفة، دول راحوا وحفروا تحت "معبد القدس" بناءً على معلومات مؤكدة. وكمان هما مؤسسي الحركة الماسونية، وبقولك كده عشان تعرف إن نفوذ بني إسرائيل

واسع وفوق ما تتخيل، وإننا مش محتاجين الكنز في حاجة، حتى لو كان كنز "سليمان" نفسه.

رددتُ بكلمة واحدة:

-أومال؟

-إحنا محتاجين نعرف مكان الهيكل، وهل فعلًا موجود تحت المسجد الأقصى ولا لأ؟

-وايه اللي يخليني أساعدك؟

-تبادل مصالح.. إنتوا كمصريين عندكم التاريخ بس محتاجين فلوس تبنوا بيها حاضر ومستقبل.. وإحنا العكس، عندنا فلوس كتيير زي ما وضحتلك، لكن مافيش تاريخ نحكي لولادنا عليه.

فكرتُ مليًا، ثم قلت:

-وطبعًا لو اتأكدتوا أن الهيكل موجود في فلسطين هتقولوا للعالم كله إن دي أرضكم وأرض أجدادكم؟ وساعتها محدش هيقدر يخرجكم منها،

طقطق بلسانه مرة أخرى، وقال:

-لا طبعًا مش حقيقي، بالهيكل وبدونه إسرائيل أرضنا ومش هنخرج منها، وإنتوا لازم تتعاملوا مع ده على إنه أمر واقع.

استفزتني ثقته وأيقظت الغضب بداخلي، ولكنني تغلبت عليه وسألته ليُخرج كل ما في جعبته:

-أومال إنتوا محتاجين الهيكل ليه؟

-ما قولتلك بنحاول ندوّر على تاريخ نحكيه لولادنا!

نهضت لما شعرتُ أنه لن يضيف جديدًا، وسيكرر الكلام نفسه، وأنهيت المقابلة الثقيلة على قلبي بجملة واحدة:

-وأنا مش مصدقك.

ما قاله جعلني أتمسك برفضي أكثر من ذي قبل، فهذا الذي يقوله لا يمكن أن يصدقه عقل طفل. كيف يريد تاريخًا ويقول إنه سيعطيني الكنز؟ الكنز الذي تعود ملكيته إلى نبي الله "سليمان"! ألا يعتبر هذا الكنز تاريخًا أيضًا؟ فكيف له أن يفرط فيه إذن؟ وما يدريني إن ساعدته أن يفي بوعده؟ بل ما يدريني أنه سيتركني أعيش بعد أن يحصل على مراده؟

بعد أن انصرف غاضبًا، فتحت الإنترنت وبحثت بشكل مكثف عن فرسان الهيكل، لأرضي فضولي وأعرف مدى صحة حديثه.. وتلك المرة كنتُ أبحث بشكل أدق من المرة السابقة وأراجع المصادر أيضًا.. انتهيت بعد ساعات متواصلة، وقد تكوّنت لديّ قناعة ملخصها أن التسعة فرسان الذين أسسوا تنظيم "فرسان الهيكل" كانوا من بني إسرائيل فعلًا، كما ذكر شيمون.. وينحدرون من نسل أربعة وعشرين كاهنا كانوا هم كهنة المعبد الموجود على جبل صهيون قديمًا "معبد القدس" أو "بيت يهوا" كما في اليهودية، وقد هاجروا من فلسطين، تقريبًا في العام السبعين ميلادية عندما قام الرومان باحتلالها. فاتجهوا - الأربعة وعشرون كاهنًا - إلى أوروبا وجعلوها مستقرًا لهم، تحديدًا فرنسا. وأصبحوا أغنياء فحصلوا على لقب Rex Deus كما وجدتُ بعض المراجع تؤكد أنهم

قبل مغادرتهم القدس، قاموا بدفن أطنان من الذهب والفضة واللفائف السرية "كتب السحر" تحت معبد القدس، حتى لا تقع في يد الرومان.

أما عن علاقة فرسان الهيكل بكنز "سليمان"، فما وجدته في البحث لم يختلف كثيرًا عما قاله شيمون، إذ تبدأ الحكاية عام ١١١٩ بعد إنشاء التنظيم بعام واحد، لما اعترف بهم كل من الملك "بالدوين الثاني" والبطريرق "وأرموند". وبذلك حصلوا على الاعتراف الملكي واعتراف الكنيسة.. وبعد هذا الاعتراف الملكي الذي أعيد توثيقه رسميًا، أعطاهم الملك جزءًا من قصره بالقرب من معبد القدس، فبدأوا الحفر مباشرة وفقًا لمعلومات توارثوها عن أجدادهم، الأربعة وعشرون كاهنًا الذين ذكرتهم سابقًا. وبعد تسع سنوات من البحث، وجدوا بالفعل أطنان الذهب وعددها - حسب ما انتهى إليه بحثي- خمسة وأربعون طنًا، بالإضافة إلى ستة وعشرين طنًا من الفضة، وأربعة وعشرين مخطوطة سرية.. وفهمت من بحثي أن تلك المخطوطات هي نفسها كُتب السحر التي ذكرها شيمون.

بدأ الفرسان التسعة بنشر مخطوطات السحر تلك، داخل التنظيم.. ثم بعد هزيمة الصليبيين على يد السلطان "صلاح الدين الأيوبي"، وطردهم من القدس، قرر الملك فيليب التخلص من فرسان الهيكل، فاتهمهم بالهرطقة وقام جنوده بتعذيبهم إلى أن اعترفوا جميعهم بأنهم يمارسون السحر ويعبدون شيطانًا يدعى "بافوميت".

قد تقول إن هذه اعترافات أُخذت من فرسان الهيكل تحت وطأة التعذيب الشديد الذي تعرضوا له، ولهذا فيجب ألا نأخذها على محمل الجد. وكذلك فكرتُ أنا

في البداية، ولكن غيرتُ رأيي بعد أن قرأت في موضع آخر عن جاسوس من الجواسيس الذين أرسلهم الملك فيليب لينقلوا إليه أخبار فرسان الهيكل، وقد شاهد هذا الجاسوس ممارساتهم للسحر وعبادتهم لهذا الشيطان.

معظم هذا الكلام يتفق مع ما قاله شيمون ولكنه أخطأ حينما اعتقد أن حاجتي للمال ستجعلني ألهث خلفه وأبيع قضيتي الأساسية. وهي تحرير القدس منهم.. تلك القضية التي قد أسهو عنها وأيأس من تحقيق تقدم فيها، لكنني أبدًا لن أبيعها.

أما إذا أردتُ كنوزًا، فمصر بها من الكنوز ما لا يعد ولا يحصى.. فلماذا إذن إن فكرت في استخدام التعويذة لتحقيق ثراء أو مجد شخصي، أن أستخدمها لمساعدة الصهاينة؟

## (٦٧)

نجح "السيسي" في الانتخابات التي انتخبت فيها "حمدين"، وكنت أتوقع تلك النتيجة، ليس بسبب ضعف شعبية "حمدين" مقارنة بشعبية المرشح المنافس، ولكن لأنني ومنذ نجاح ثورة يناير، لم ينجح أحد قمت بانتخابه، لا في انتخابات رئاسية ولا حتى برلمانية! كما أنني لم أشارك في استفتاء على الدستور وجاءت نتيجته كما أريد. في كل الاستفتاءات قلت "لا" فقالت الصناديق للدين "نعم" مرتين، ولتحيا مصر "نعم" مرة! وانطلاقًا من هذا المبدأ كنت أتوقع خسارة "حمدين"، لذا بعد أن ظهرت النتيجة، قررّت في المرة المقبلة أن أصوّت بعكس ما أريد، فلأجرب مثلًا أن أقول "نعم" للدستور القادم، من الممكن أن تأتي الأغلبية "لا".

المهم.. مع بداية شهر إبريل للعام ٢٠١٥ وجدتُ أنني جمعتُ مبلغًا كبيرًا من المال، وأصبحت جاهزًا لمواجهة اللواء "حمدي"، فقررت الذهاب إليه ومصارحته بكل شيء، وأطلب منه أن يكون صريحًا معي دون خجل، كما سأكون صريحًا معه دون خوف.

فتحت لي "ندى" الباب، وعلمت منها أن والدها يجلس في "الصالون" فدخلت، وكالعادة وجدتُ "إبراهيم" هناك.. وكالعادة لم ينصرف حين رآني.. ولكني وعلى غير العادة، وجدتُ بداخلي شجاعة لا أعلم من أين أتتني:

-بقولك إيه يا "إبراهيم"!

تجاهل ندائي له باسمه مباشرة، دون أن أضيف ألقاب كما كنت أفعل، ونظر لي متسائلًا، فأكملت:

-ما تقوم تروّح عشان عاوز أتكلم مع الباشا كلمتين على انفراد.

نهض بتباطؤ فأصبح ثقيل الظل أكثر مما هو عليه، ثم لما نهض، استأذن من سيادة اللواء للانصراف، فأذن له.. ولما أصبحنا بمفردنا وجه لي سيادته نظرة ليحثني على الكلام، ولدهشتي لم أشعر بخوف من تلك النظرة، استقبلتها بابتسامة، واقتربت لأجلس على المقعد المجاور لمقعده، فشعرت أنني أصبحت ندًا له.. صمتُ لفترة أرتب فيها الكلمات وأبحث عن كلمة البداية، وما أن وجدتها حتى نظرت في عينيه وقلت:

-أنا بحب "ندى" وهي كمان بتحبني، وجاي لحضرتك النهارده للمرة التانية عشان توافق تجوزنا لبعض!

توقعت أن يزعجه كلامي، ولكنه رد بهدوء:

-أنا عارف إنكم بتحبوا بعض؟

-ولما حضرتك عارف، قولتلي ليه إنها رفضتني؟

-مكنتش أعرف وقتها إنكم بتتكلموا، وكمان مكنتش عاوز أخسرك، وأخلق فجوة بيني وبينك لإنك بجد ابني اللي ما خلفتهوش.

أسعدني هذا لكلام، فقلت بمرح:

-أفهم من كده إنك موافق على جوازنا؟

رد ردًا قاطعًا:

-لأ..

وأكمل:

-وعشان إنت ابني بقولك لأ.. أنا ما أرضاش أن ابني يتجوز واحدة أعلى منه في المستوى الاجتماعي، لأنه هيفضل طول عمره حاسس بالنقص.

ثم سكت لبرهة، يقرأ فيها ما يدور بداخلي، وأردف:

-والحب.. مش هقولك بقى إن الحب مش بيشبع البطون، ولا إن الحب لوحده مش بيفتح بيوت، ولا بيجيب هدوم للولاد وأمهم، ولا أي حاجة من الكلام اللي اتقال ١٠٠ مرة في الأفلام قبل كده..

ربت على يدي وأكمل:

-بس هقولك إن الحب بيتحوّل لكره بعد الجواز، لما يقضي عليه الملل والروتين، وتقتله المشاكل المادية والنفسية.

وطال الصمت بيننا، حتى قلت بيأس:

-والحل؟

-الفلوس.. الفلوس هي كل حاجة، لو هتقدر تعيّش بنتي في نفس المستوى اللي هي عايشة فيه، أنا معنديش مانع.

ثم سكت ورمى قنبلته التي انفجرت في كرامتي:

-طالما هي موافقة إنها ترتبط بواحد معاه دبلوم وهي بكالوريوس.

اغرورقت عيناي بالدموع التي كنت أجاهد لأحبسها، في حين قال سيادة اللواء

مهوّنًا:

-حط نفسك مكاني وشوف كنت هتعمل إيه مع بنتك الوحيدة!

وعلى باب الصالون رأيتها واقفة، كانت تسترق السمع وتبكي في صمت. تبكي على كرامتي التي تُهان للمرة الثانية بسببها. لا.. ليس بسببها، بل بسبب غبائي. كرهتُ هذا الوطن الطبقي، الذي جعل كرامتي تهان بهذا الشكل. ما ذنبي أنا أنني خلقت لأب وأم فقيرين؟ وهل نسي هذا المدعو "حمدي"، أن والديه كانا أكثر فقرًا من والديّ؟ هل نسي أنهم جمعا مصاريف كليته الحربية من الخدمة في البيوت وزراعة أراضي عائلتي؟ بالطبع أنسته حُلته العسكرية أصله وفصله، أنساه القصر الذي يعيش فيه أنه كان يومًا ما أكثر فقرًا مني، ولولا التحاقه بالسلك العسكري، لظل فقيرًا ولما وصل حتى لِما وصلت إليه أنا؟ ثم يطلب مني أن أضع نفسي في مكانه! ماذا كان سيفعل هو إن كان مكاني؟ لو كانت تعويذة إحياء الموتى وقعت بين يديه؟! أكان سيستخدمها لهدف سامٍ، كما فعلت أنا؟! أم أنه سيستخدمها ليبني مجدًا ويجمع كنوزًا؟ في الحقيقة، أي إنسان كان سيستخدمها ليصبح أغنى الناس وأكثرهم عمرًا، ولكنني ساذج.. لماذا أفخر بسذاجتي، وإلى متى سأظل أفكر في غيري؟ إلى متى سأظل أفكر في وطن ناسيني؟ سوف أستخدم التعويذة لأصبح غنيًا.. لأصبح خالدًا.. لأصبح مولاهم، صاحب البركات "مدحت الحي". ولكن.. لنجمع بعض الكنوز أولًا.

# (٦٨)

أول ما خطر ببالي عندما ذكرت كلمة "كنز" كان شيمون، وفكرت أن أتواصل معه ولكني لم أكن أعرف أية طريقة لفعل ذلك.. أنا حتى لا أعرف اسمه! ولهذا قررت الانتظار أو البحث عن كنز قريب لحين ظهوره.. فتحت موقع "جوجل" ثم كتبت بداخل مستطيل البحث كلمة "كنز" فظهرت أسفل المستطيل عدة اقتراحات قدمها لي "جوجل" ليساعدني. أول اقتراح كان "كنز المعلومات" تلك اللعبة التي كنت أهرب من المدرسة لألعبها، إذ كانت لديّ قناعة أن المعلومات التي سوف أحصل عليها من هذه اللعبة، أهم وأكثر فائدة من التي سوف أحصل عليها من المدرسة. الاقتراح الثاني كان "كنز فرسان الهيكل" نظرًا لكثرة بحثي عنه.. والثالث كان "كنز قارون". أما الرابع فكان "كنز الإسكندر الأكبر".. أنا من عشاق "الإسكندر" وقرأت عنه كثيرًا حتى حفظت تاريخه، ولكنني لم أعرف أبدًا بموضوع كنزه هذا!

قمت بالضغط على ذلك الاقتراح، فظهرت نتائج كثيرة مُلخصها أن مستكشفي الكهوف الإسرائيليين قد عثروا بالأرض المحتلة على كنز يعود إلى زمن "الإسكندر الأكبر". ولم يلفت انتباهي وقتها أن الكنز ليس للإسكندر، بل عائد إلى زمنه. ولم التفت إلى أنه - الكنز - عبارة عن حُلي وقطع معدنية تحمل صورة الإسكندر.. لكن ما لفت نظري وأعماني عن رؤية الحقيقة، هو ذكر اسم إسرائيل في هذا الأمر! ألهذا الحد أصبحت إسرائيل منتشرة؟ حتى إنني أصبحتُ أتعثر فيها أينما ذهبتُ!

قرأت سابقًا عن احتمالية وجود قبر الإسكندر بالإسكندرية.. وتحديدًا تحت مسجد "النبي دانيال" في الشارع الذي يحمل نفس اسم المسجد.. وبحكم إقامتي بأبي حمص، كانت الإسكندرية قريبة مني، فقررت أن أجرب تعويذتي في ذلك المكان. سأبعث الإسكندر ليدلني على مكان المتبقي من كنزه.

القرارات التي نأخذها في أوقات الغضب، دومًا ما نتراجع عنها عندما نهدأ ونفكر بعقلانية أكثر. لهذا عدلت عن ذلك التفكير، رغم أنني كنت بالفعل قد جمعت حقيبتي استعدادًا للرحيل، ولكنني لم أستطع.. لا يمكن أن أستغل التعويذة لكي أحقق هدفًا شخصيًا. أهوَّن عليّ أن أعيش ساذجًا في نظر نفسي، على أن أصبح خائنًا.. تركت الحقيبة كما هي وكنتُ كلما هممتُ أن أفرغها من ملابسي، أتذكر وجعي من الكلام الذي قاله اللواء "حمدي"، فأتركها على حالها، وأترك الملابس بداخلها، وبعد أسبوع بدأ جرح قلبي وكرامتي يلتئم، فقررت أن أعود لسابق عهدي، وأتناسى ما حدث.. ولكن قالت لي أمي خبرًا جعلني أحمل حقيبتي وأغادر المنزل فور سماعه، مرتديًا ملابس المنزل فوق "شبشب الحمام"، متجهًا نحو الإسكندرية.. متجهًا إلى حيث قبر الإسكندر.

(٦٩)

في الطريق ظل صدى كلمات أمي يتردد داخل عقلي:

-ما روحتش تبارك للشيخ "إبراهيم" واللوا "حمدي" ليه يا ضنايا؟

وقع قلبي في إصبع قدمي خوفًا.. أيعقل أن يكون سيادة اللواء وافق على أن يزوّج ابنته الوحيدة من هذا النصاب؟

-أباركلهم على إيه؟

- إنت ما تعرفش.

هززت رأسي نافيًا:

-مش بقوا محافظين.

لم أفهم ولكن ارتاح قلبي، فأن يصبحوا "محافظين" أفضل بكثير مما كنت أعتقد.. لاحظت أمي شرودي فأكملت لتجذب انتباهي إليها:

-الرئيس السيسي كتر ألف خيره، عيّن اللوا "حمدي" محافظ البحيرة والشيخ "إبراهيم" محافظ في حتة بعيدة كده نسيت اسمها.

خليط مشاعر سوداء عصفت بي، إحباط على يأس على قهر.. إذا كنت تفكر في الانتحار، ولكنك متردد، فأيّ من تلك المشاعر سيساعدك حتمًا على حسم القرار في موضوع الانتحار هذا.. فما بالك بجميعها في وقت واحد؟ لن يظل لديك إيمان بوطن أفضل، لو رأيتَ مثلما رأيتُ، سأبعث الإسكندر فورًا.. لن

أصبر حتى أهدأ فيتغيّر رأيي!

قضيت الوقت المتبقي حتى أصل إلى الإسكندرية، في البحث عن مكان قبر الإسكندر، فوجدت نصًا يؤكد أنه موجود بالإسكندرية حقًا.. أثناء سير موكب جنازة الإسكندر من بابل إلى مقدونيا، تعرّض لهم "بطليموس" وقطع عليهم الطريق، وحوّل المسير إلى "منف" عاصمة مصر آنذاك، حيث حُنّط الجثمان ووري الثرى، وقام خليفته "بطليموس الثاني" بنقل التابوت إلى الإسكندرية.

بقي أن أتأكد إذا كان رفات الإسكندر موجود تحت مسجد "النبي دانيال" أم لا. فبدأت البحث عن المسجد، ولما علمت بوجود سراديب وأضرحة تحت المسجد، قررت أن أجرب تعويذتي هناك.. كان شارع "النبي دانيال"، مختلفًا تمامًا عن آخر مرة زرته فيها قبل الثورة، عندما كنت أبحث عن كتاب "قرية ظالمة" للتأكد مما قاله لي والدي بشأن القصة المتعلقة بالتعويذة. واكتشفت أن انشغالي بالتعويذة، جعلني لم أزر الإسكندرية منذ خمس سنوات إلا الآن!

وصلت المسجد، وكما فعلت في المرتين السابقتين، جعلت الزيارة الأولى تفقدية.. وكانت الخطة تقتضي ببساطة أن أصلي وبعدما أنتهي أجلس لأتفقد أرجاء المسجد.. لم يكن به سوى رجل خمسيني يرتدي جلبابًا أبيض، خمّنتُ أنه عامل المسجد، وبعدما فرغت من صلاتي، أسندتُ ظهري على أحد الأعمدة السبعة الموجودة بالمصلى، ثم بدأتُ أحرك شفتيي كأنني أتلو أذكارًا، وجُلت ببصري في المكان.. فلم أر ما يدل على أن هناك أية سراديب أو أضرحة، ولكنني رأيتُ بابًا في الجدار المقابل لي، فقمت من مكاني وتوجهتُ ناحيته، ولما دخلت وجدت في منتصف المكان فتحة مثمنة يحيط بها حاجز خشبي مكوّن من ثمانية أضلاع، سبعة منها ثابتة وضلع واحد متحرك ويستخدم كباب صغير.

توجهت ناحيته وأنا أنظر إلى الفتحة الأرضية مذهولًا، وازداد ذهولي أكثر حينما وجدتُ سلمًا مصنوعًا من نفس نوع الخشب المصنوع منه الحاجز، ويفضي إلى أسفل الفتحة. وقفتُ في حيرة من أمري، فلم أعرف ماذا عليّ أن أفعل؟ ولكن لم تدم حيرتي طويلًا، إذ أخرجني منها صوت يقول:

-النزول تحت ممنوع بس إنت شكلك جاي من سفر.

نظر من الباب إلى المصلى حيث وضعت حقيبة ملابسي، وأكمل:

-فهخليك تنزل عشان تشوف الضريح.

ثم رمقني بنظرة أعرفها.. رأيتها سابقًا في أعين "السايس" وبعض موظفي السجل المدني.. نظرة الطامع في "كرم" أخلاقك.. أخرجت عشرين جنيهًا من جيب بنطالي الجينز وناولته إياها وأنا أقول:

-عاوزك تكلمني عن صاحب الضريح ده.

-أنهي ضريح فيهم؟

كنت أعتقد أن أسفل المسجد ضريح واحد، ولكن عندما هبطنا إلى الأسفل وجدتُ ضريحين، حدثني عامل المسجد عن ضريح الأول، وقال إنه يحتوي على قبر الشيخ "محمد دانيال الموصلي" أو كما يُعتقد "النبي دانيال" والذي قاموا بتسمية المسجد تيمنا باسمه، وعن الآخر فقد قال إنه ليس واثقًا من هوية صاحبه، ولكنه سمع أقاويل عن أنه قبر "لقمان الحكيم" وآخرون يقولون إنه قبر "ذو القرنين" وهناك من يقول إنه قبر "الإسكندر" الذي بنى الإسكندرية. كنت أود أن أنفرد بالضريحين لأجرب تعويذتي، فطلبت منه أن يتركني وحدي ولكنه رفض، فأخرجت ورقة مالية أخرى فئة العشرين جنيهًا، وطلبت منه أن يشتري

لنا شيئًا نشربه، فذهب وعلى وجهه ابتسامة رضا.. وما أن اختفى عن مجال رؤيتي، حتى قرأت التعويذة!

## (٧٠)

لم يختلف الأمر كثيرًا عما كان عليه في بعث "صلاح الدين" و"مينا"، بل تلك المرة كانت أسهل كثيرًا من سابقتيها. فبمجرد أن تلوت كلمات تعويذتي، اهتز الضريح الخشبي وخرج منه شاب ثلاثيني عاري الجسد.. تركته كما هو وذهبت إلى الأعلى... فأحضرت حقيبة الملابس ورجعت إليه، ثم ناولته سروالًا وقميصًا لكنه ارتبك ولم يستطع أن يرتديهما وحده، فساعدته على ذلك، وأخذته وانصرفنا قبل أن يعود العامل. كل هذا وهو صامت لم ينبس ببنت شفاه، وتمنيت من الله أن أجده يتحدث بالعامية المصرية كما وجدتُ "مينا"، فسيريحني هذا الأمر من عبء مجهود ليس بي طاقة إليه.

كنا نسير جنبًا إلى جنب، فلم أرَ وقع الأشياء المحيطة عليه، ولكنني علمت أنه في حالة ذهول قد يصل حد الصدمة.. واصلنا السير حتى وصلنا إلى البحر، فتوقف ونظر إليه بتعمق، فسألته:

-إنت عارف إنت فين دلوقتي؟

نظر لي ثم أعاد وجهه إلى البحر مرة أخرى دون أن يجيب، ففتحت هاتفي على جوجل ترجمة، وقمت بترجمة الجملة السابقة إلى الإنجليزية، ثم قرأت ترجمتها:

-Do you know where you are?

كرر ما حدث في المرة السابقة، فزفرت بضيق وقلت محدثًا نفسي:

-يعني دلوقتي الواحد يكلم أمك بأنهي لغة بالظبط؟

-أمك إنت!

رغم أنه قالها كأنه يسبني، ولكنني فرحت بتلك السبة جدًا، وقلت:

-طيب الحمد لله.

عاد ببصرة للبحر مر أخرى، فسألته:

-إنت الإسكندر؟

رد بنفاد صبر، بسبب غباء السؤال:

-آه.

فسألته سؤالًا أغبى من سابقه:

-عارف إنت فين؟

زفر بضيق وقال:

-في الإسكندرية.

دخلت في صلب الموضوع مباشرة، وسألته:

-ويا ترى الكنز بتاعك ده هنا ولا في مكان تاني؟

وجدته لا يعرف عما أتحدث، فاعتقدت أنه لم يستعد ذاكرته كاملة وآثرت السكوت عازمًا على أن أعود للتحدث عن الموضوع في وقت آخر.. سألني الأسئلة المعتادة - أو التي أصبحت معتادة بالنسبة لي - فأجبته الأجوبة النموذجية. ثم

حدثته عن الكنز الذي بعثته لأجله، فرد الرد السابق.. لا يعرف عما أتحدث! وأصبحت في حيرة من أمري، إذ كانت الخطة تقتضي مني أن أبعثه ثم أسأله عن مكان الكنز وأتركه في الإسكندرية وأعود أنا بمفردي إلى القرية.. والآن لا أستطيع أن أتركه، فلم أعرف مكان الكنز بعد، هل أمكث معه في أحد الفنادق إلى أن يتذكر؟ أم أذهب به إلى شقة المعمورة أفضل؟ وهل أضمن إذا ذهبنا إلى شقة المعمورة أن أجدها خالية؟ كنتُ أعلم أنني مراقب من قبل "ليشع"، فقررت أن أعود به إلى بيتي في القرية، فهناك أفضل وآمن.

ظل صامتًا طوال الطريق من الإسكندرية حتى وصلنا المنزل.. لفت نظري شيء غريب لم أره في سابقيه.. لاحظت أنه جامد الملامح، دائم الشرود، لا يتحدث إلا في أضيق الحدود، ولا يتعجب لشيء أو يثير اهتمامه شيء، عكس المفترض حدوثه، وذكرني ما رأيته فيه، بما قرأته عن "لازار" اليهودي، شقيق المرأة التابعة للسيد صاحب المعجزات. ففكرت أنه قد يكون لكل زمن خواصه في البعث.. فالإسكندر و"لازار"، كانا يعيشان في حقبة زمنية واحدة أو قريبة، لا يفصل بينهما سوى ثلاثمائة عام تقريبًا أو أكثر قليلًا، ولهذا حينما بُعثا وجدتُ تشابهًا كبيرًا بين صفاتهما. وقد يكون للموضوع علاقة بمكان الدفن وجغرافية المنطقة، فـ"مينا" و"الإسكندر" المدفونان بمصر، كانا على ما يبدو يستمعان لحديث الأحياء، ولذلك فقد تمكنا من تعلم اللهجة العامية المصرية. أما "صلاح الدين"، الذي تم دفنه بسوريا، فلم يكن يمتلك تلك الميزة، إذ ظل على لغته الفصحى القديمة، التي دفن عليها. وهناك تفسير آخر - وهو الأقرب للمنطق - أن كل شخص يبعث على ما كان يعتقد قبل موته أنه سيبعث عليه.. فـ"مينا" مثلًا كان يعتقد بالحياة الأخرى وظل منتظرًا حدوثها، وحتى أثناء موته، استمر إيمانه

بذلك البعث وتلك الحياة. وظل مصدقًا لهذا الاعتقاد حتى بعد بعثه. ولو لم أكن قد أخبرته بالحقيقة مؤخرًا لما تغيّر هذا المعتقد لديه مطلقًا.. وإن طبقت الأمر على "صلاح الدين" و"الإسكندر" ستجده مماثلًا.

قررت أن أستغل الوقت المتبقي حتى نصل إلى القرية، في التحدث مع الإسكندر عن الكنز، لعلّ كثرة الكلام عنه تساعده على التذكر.. ولكننا وصلنا إلى المنزل وهو لم يتذكر شيئًا!

(٧١)

-مش بقولك إنت فقر ونحس!

كان ذلك رد فعل والدتي حينما عُدت سريعًا ورأت معي الإسكندر، فضحكتُ لمّا فطنتُ لما ترمي إليه، ولم أرد عليها.. وبعد أن أدخلته حجرتي، رجعت إليها وقلت:

-حطيلنا يا حاجة لقمة ناكلها أنا والأستاذ "إسكندر"

-هو اسمه إسكندر؟!

أومأت برأسي، فسألت:

-مسيحي؟

باغتني السؤال، فآثرت الصمت، بينما سألت هي مجددًا:

-إنت شغال مع واحد مسيحي، وعاوز ربنا يكرمك؟

تعجبت من ذلك التفكير العنصري الذي لم اعتده يومًا عنها.. ولكني رجعت عن تعجبي عندما تذكرت أنها المرة الأولى لوالدتي التي تتعامل فيها مع أي شخص غير مسلم، باستثناء "مينا" طبعًا الذي لو كانت تعلم أنه غير مسلم، لما أكرمته قط.. أكملت هي لمّا طال صمتي:

-دي حتى الفلوس اللي هتاخدها منه هتبقى ريحتها وحشة!

بعد أن أعطيتها درسًا في الوحدة الوطنية، قامت رغمًا عنها، لتذبح بعض

الطيور، فقلت لها إن الوقت تأخر على ذلك - وكنا بعد المغرب - وطلبت منها أن تجهز وجبة سريعة، فلم أكن قد أكلت طوال اليوم، بغض النظر عن مرافقي الذي لم يأكل منذ قرون.

أكل الإسكندر بشراهة، ولم يبد ردة فعل، لا سلبية ولا إيجابية، تجاه الطعام، بل ظل محتفظًا بغموضه وجمود ملامحه، ورغم ذلك إلا أنه لم يشبع، فقط توقف عن الأكل رغما عنه بسبب انتهاء الطعام في المنزل.. حدثته عن الكنز، فقال باللهجة السكندرية:

-كل شوية كنز كنز كنز، قولتلك مانعرفشي حاجة عنه.

-ما تعرفش حاجة عنه إزاي؟ النت بيقول إن عندك كنز وفيه ناس لقوا جزء منه!

-عيب تصدق كلام النت وتكذبني وأنا صاحب الشأن، خلي النت ده يواجهني وهنثبتولك إنه كذاب.

فتحت اللاب توب وأنا أنظر إليه لأرى ردة فعله، فوجدته كما هو! فتحت الإنترنت وكتبت "كنز الإسكندر الأكبر"، وقرأت المكتوب لأول مرة بتركيز. صُعقت عندما علمتُ أن الكنز يعود إلى عصر الإسكندر وليس ملكًا له، بينما قال هو:

-لا أنا طلعت كذاب ولا النت طلع كذاب..

ثم رسم على شفتيه ابتسامه خافتة، لأول مرة أراها، واستأنف:

-إنت اللي طلعت أهبل!

طلب مني أن أقرأ ما يقوله الإنترنت عنه، فقرأت، فصحح لي بعض المعلومات

الخاطئة، ولكنه انبهر بما ذكر، مثلما انبهر "مينا". وأخذ طوال الوقت يقلب في صوره الموجودة على الإنترنت ويطلب مني أن أقرأ ما كتب عنه مرة بعد أخرى.. وكنت أفعل ذلك وعقلي شاردًا يفكر في المأساة: لا يوجد ما يسمى بكنز الإسكندر! فما فائدته الآن؟ هي المشرحة ناقصة قتلى؟ لابد أن أتخلص منه، فلم أعد أحتاجه.

وجاء الصباح فوجدت الإسكندر يطلب مني أن أعيده إلى مدينته التي بناها، لأنه يشعر هنا بالغربة.. فرحت لذلك أيما فرح، لقد وفر عليّ عناء التخلص منه. عقدنا النية على التحرك بعد الإفطار، ولم تمانع والدتي ذلك.. لو كان الإسكندر مسلمًا، لما تَرَكَته يمشي قبل أن يتناول وجبة الغداء الدسمة في بيتنا، ويأخذ معه بعض الخبز الفلاحي والجبن القريش. هكذا هي أمي، كريمة.. كريمة جدًا.. مع المسلمين فقط! قبل أن أفتح باب المنزل لننصرف، طرقه شخص ما، ولما فتحت وجدته "شيمون"، الذي مد يده مصافحًا وعلى وجهه ابتسامة سمجة.

قبل أيام حينما علمت بخبر تعيين اللواء "حمدي" و"إبراهيم"، محافظين، كنت أتمنى رؤية" شيمون" .. فوقتها كنت كافرًا بالوطن ويائسًا من انصلاح أحواله، أما الآن.. وبعد أن هدأتُ، انقبض قلبي لرؤيته:

-خير؟

سألته فتجاهلني ودخل متجهًا إلى المندرة التي أصبح يعرفها أكثر مما أعرفها أنا، لكثرة جلوسه بها.. خفت أن أترك الإسكندر مع والدتي، فجعلته يرافقني في تلك الجلسة.. كررت سؤالي فرد ببرود:

-كل خير ما تقلقش.

ابتسمت متهكمًا:

-وانتوا من إمتى بييجي من وراكم خير؟

-أفهم من كده إنك رفضت عرضي ليك؟

قلت بسخرية:

-ليه هو إنت كنت لسه ما فهمتش؟!

قال مستهزئًا من سخريتي:

-الحقيقة كان عندي أمل، إن البيئة القذرة المحيطة بيك والمستقبل اللي مالوش ملامح ده وفشل الثورة وعودة المنافقين لمقاليد الحكم، يخلوك تغيّر رأيك!

أوجعتني الحقيقة، وآلمني كلامه ولكنني لم أظهر له ذلك، فأشار ناحية الإسكندر وقال:

-ده زيه زي "مينا" و"صلاح الدين"، مش هيفيدك بحاجة وهيفشل زيهم برضه.

ثم نظر لي وقال بنبرة أهدأ:

-إنت محتاج فلوس.. مصر محتاجة فلوس، ولقمان الحكيم ده ما عندوش كنز ولا هيقدر يغنيـ....

قبل أن يكمل جملته، قاطعه الإسكندر مصححًا خطأه:

-أنا الإسكندر!

ضحك بسماجة:

-أنا آسف.. الإسكندر ده ماعندوش كنز!

قال الإسكندر بغباء:

-أنا بقالي يومين بفهمه إني ماعنديش كنز وهو مش عاوز يفهم!

-آآآآآه قول كده..

قالها للإسكندر قبل أن ينظر إليّ ويكمل:

-وطالما عاوز الكنز بتلف وتدور ليه؟

لم أجب، فأردف:

-فكر في كلامي وهزورك تاني، بس...

قطع كلامه، وتغيرت ملامح وجهه فجأة من الابتسامة إلى التجهم، وهو يقول بنبرة شديدة اللهجة:

-الزيارة الجاية هتبقى مختلفة!

وسحب إبهامه على رقبته مهددًا ثم انصرف.. سألني الإسكندر بعدها عن الكنز الذي يتحدث عنه "شيمون"، ولِمَ أبحث عن كنز آخر وأمامي هذا.. فشرحت له التاريخ الغائب عنه، والتوزيع الجديد للجغرافيا، وانتهاء الإمبراطوريات القديمة وقيام غيرها.. ثم شرحت له باختصار العداوة التي بيننا وبين الصهاينة، وكيف أنهم يريدون استخراج ذلك الكنز تحديدًا حتى يثبتوا للعالم أن تلك الأرض أرضهم.. هذا غير أنهم يريدون العودة لاحتلال مصر مرة أخرى، قال:

-طيب وإيه يعني لما يحتلوا مصر؟

-إيه يعني إزاي؟! مصر هي.....

ولم أعرف ماذا أقول، فوقفت عاجزًا أمام وصف مصر! لا أعرف هل السبب هو غضبي مما يحدث بها، أم حبي الشديد لها؟ ولكني في النهاية قلت محاولًا أن أستدعي الكلمات:

-مصر هي.. هي.. هي....

تبخرت الكلمات على شفاهي، فارتجلت:

-مصر هي أمي نيلها جوه...

قاطعني عن إكمال الأغنية:

-أومال مين الولية اللي بتعاملني وحش من ساعة ما شافاتني دي؟

لم أستطع أن أمنع نفسي من الابتسام، فأضاف:

-إنت عاوز كنز.. والراجل اللي كان هنا ده هيقدر يجيبلك الكنز، يبقى تسمع كلامه وتدور على مصلحتك شوية..

-لا يا عم أنا عمري ما أبيع وطني ولا بكنوز الدنيا..

استمر هو في مجادلتي:

-وطن إيه مفيش حاجة اسمها وطن أصلًا، وأي مكان تروحه ممكن تخليه وطنك عادي!

-ولما مصر تخرب أنا هعيش فين؟

-إنت هيبقى معاك فلوس كتير وقتها وممكن تسافر أي حتة.

سكتُ مفكرًا، فأكملَ:

-أنا ممكن أخدك معايا إسكندرية.

ضحكت وقلت:

-ما هما هيحتلوا إسكندرية هي كمان.

انتفض هلعًا، وصرخ:

-إسكندرية؟ إسكندرية لأ.

اقترب مني وأكمل:

-كله إلا إسكندرية.. أوعى تفرط في وطنك يا "مدحت".

ضحكت بشدة، ولما انتهيت قلت:

-ما من دقيقة كان مفيش حاجة اسمها وطن! لما النار قربت منك ومن إسكندرية حسيت بيا؟

قال بصوت أكثر حكمة:

-بص، إسكندرية هي أمي، ومصر هي أمك.. واللي يقرب من أمهاتنا هنقتله.

## (٧٢)

أحببت "الإسكندر"، كما أحببت "صلاح الدين" و"مينا"، وقررنا أن نظل سويًا حتى نتخلص من خطر "شيمون" الصهيوني، وبعدها يعود هو إلى "أمه" الإسكندرية، وأستمر أنا في بحثي عمن ينهض بـ "أمي" مصر. فكرت أن أبلغ الشرطة بالأمر، سأقول مثلًا إن هناك شخصًا إسرائيليًا يحاول تجنيدي لأعمل جاسوسًا لإسرائيل.. فيقومون بالقبض عليه في المرة المقبلة التي يزورني فيها. لكني لم أكن أعرف متى سيزورني، فهو يظهر فجأة، دون سابق إنذار، أو حتى مكالمة هاتفية يخبرني فيها بقدومه. وما حاجته إلى ذلك إن كان يراقبني ويعرف كل تحركاتي؟! كما أن ظهوره بهذا الشكل المفاجئ، يزيده غموضًا ويزيدني خوفًا منه وقلقًا، ويجعله آمنًا أكثر، إذ لا يمكنني أن أطلب من الشرطة مراقبة هاتفي، وهو لا يهاتفني أصلًا. رباه.. ما هذه الحيرة؟!

ظللت أفكر وكذلك فعل "الإسكندر"، في كيفية الإيقاع بـ"شيمون"، ولكن دون جدوى. كان الإسكندر إذا استخدم عقله، يأتيني بأفكار قديمة بالية، كان يستخدمها ضد أعدائه قبل ثلاثمائة عام قبل الميلاد.. فطلبت منه ألا يفكر في الأمر ويشغل نفسه بشيء آخر يفعله كي لا يشتت تفكيري أكثر مما هو مشتت. ثم أخذته وذهبنا إلى "صلاح الدين"، أطلعته على الأمر كله، فنظر إلى "الإسكندر" متأففًا ثم أبدى اعتراضه على عبثي "بأرواح الموتى". لا أعرف إذا كان هذا التعبير صحيحًا أم لا، فليس للموتى أرواح على حد علمي، ولكن "صلاح الدين" استخدمه وأنا أنقل إليك الصورة كاملة. قلت إنني بحاجة لمن يهديني

حلا لمشكلتي، ولست بحاجة لمن يعنفني على خطأ ارتكبته وفات زمن التراجع عنه.. اعتذر "صلاح الدين"، وقال إن عليّ مجاراة هذا الصهيوني حتى أحصل منه على اعتراف أقدمه للشرطة ليتعاملوا مع الأمر بجدية.

اختفى "شيمون" قرابة العام، حتى كدت أنسى أمره.. ثم ظهر مرة أخرى مع بداية عام ٢٠١٦، وتلك المرة لم يكن بمفرده، كان معه ثلاثة أشخاص أقلهم حجمًا يطأطئ رأسه كي يتمكن من المرور عبر الباب.. لم يترك لي الفرصة لأندهش، أو أعترض.. بل قال أول ما جلس:

-أظن كفاية دلع بقى.. هتساعدنا ولا نتصرف معاك بطريقتنا؟

ابتسمت متجاهلًا تهديده، وقلت وأنا أعبث بهاتفي بيد، وباليد الأخرى أشير ناحية الثلاثة ثيران الواقفين بجوار الباب:

-طيب مش نقعد الرجالة الأول؟

-ملكش دعوة بالرجالة!

ظللت أعبث بهاتفي دون أن يلحظ، وقلت لأمنح نفسي مزيدًا من الوقت:

-إزاي الكلام ده؟ إحنا فلاحين وبنفهم في الأصول.

أشار لهم فجلسوا واحدًا عن يمينه وواحدًا عن شماله، أما الآخر فجلس بالقرب من الباب.. صحت بصوت عالٍ، عسى أن يسمعني الإسكندر، فيأتي:

-هاتيلنا الشاي يا حاجة.. ثم نظرت إلى "شيمون" وقلت:

-ولا نجيب فطار للرجالة؟

لو عرفت والدتي أن الشاي الذي تعده الآن، سوف يقدم إلى ضيوف يهود، لوضعت به ماء نار بدلًا من السكر.. رد باختصار:

-لا مالوش لزوم.

انتهيت مما كنت أفعل بالهاتف، فوضعته أمامي على الطاولة، وأنا أسأل:

-طيب قول بقى كنت عاوز إيه؟

كنت أريده أن يتحدث كي أحصل منه على اعتراف، ولكنه قال:

-عاوز أعرف ناوي على إيه؟

فسألت:

-ناوي على إيه في إيه؟

-في اللي طلبته منك!

سألت متقمصًا شخصية "العبيط" :

-طلبت مني إيه؟

-اللي قولتهولك من شوية؟!

-ما تقوله تاني، هو الكلام بفلوس ولا إنت خايف؟

ضحك بسخرية فيما معناه "هخاف من إيه؟" وقال:

-هتساعدنا ولا لأ؟

سألته بغباء محاولًا استدراجه للحصول على الاعتراف:

-أساعد مين؟

-هتساعدنا إحنا.

تعبت من دور "العبيط" فقررت أن أجرب شخصية "الغبي":

-أيوه إنتوا مين يعني؟!

ثم أشرت إليهم بحركة مسرحية، وأكملت:

-إنتوا الأربعة تقصد؟

-لا يا خفيف، إحنا إسرائيل.

أعجبني دور الغبي، فقررت أن أستمر فيه:

-إنتوا الأربعة إسرائيل؟

قال بنفاد صبر:

-لا إحنا الأربعة جايين من إسرائيل..

قلت ممصمصًا شفتي تعاطفًا معه:

-وجاين من إسرائيل ليه؟ ده حتى مشوار عليكم!

زفر بضيق قبل أن يقول:

-جايين من إسرائيل علشان عاوزينك تساعدنا.

صحت به:

-طيب ما تقول من الأول إنك جايلي عشان تقنعني إني أساعد إسرائيل؟

-ما أنا قلت!

-لا قولها كده: أنا جايلك يا "مدحت" عشان أقنعك تساعد إسرائيل.

فقال:

-أنا جايلك يا "مدحت" عشان أقنعك تساعد إسرائيل!

كنت أريد أن أجعل التهمة متكاملة، فقلت:

-وتبيع بلدك.

فكرر خلفي:

-وتبيع بلدك.

سألته:

-ولو رفضت؟

ويبدو أن شخصية "الغبي" قد نالت إعجابه فقرر أن يتقمصها بدلًا مني، إذ استمر يكرر خلفي:

-ولو رفضت؟

فقلت موضحًا:

-لا لا أنا اللي بسألك ولو رفضت هتعمل إيه؟

فرض دور "الغبي" سيطرته على "شيمون":

-لا لا أنا اللي بسألك ولو رفضت هتعمل إيه؟

قلت لفظ اعتراض، ثم صحت في وجهه:

-إيه يا عم، إنت اتحولت لصدى صوت ولا إيه؟ ماتقولش الكلام ورايا تاني.. أنا هسألك سؤال ورد عليه.. ماشي؟

-ماشي.

سألته مرة أخرى:

-لو رفضت أساعد إسرائيل هتعمل إيه يعني؟

فأجاب مهددًا:

-هخطفك وأخليك تنفذ اللي نؤمرك بيه غصب عنك!

تركته ينصرف على أمل أن أرد عليه في الزيارة المقبلة، وذهبت من فوري إلى حجرتي، ففتحت اللاب توب وأوصلت الهاتف به، ثم شغلت برنامج "إم بي ثري كاتر"، وقمت بعمل مونتاج لصوت "شيمون".. ولما انتهيت قررت أن أهدده بالتسجيل في الزيارة المقبلة، عساه يتركني لحالي.

١

## (٧٣)

صنعت عدة نسخ إضافية من الملف الصوتي الذي يدين "شيمون" ووضعتها على هاتفي وهواتف كل من "الإسكندر" و"صلاح الدين"، وبالطبع تركت نسخة على "اللاب توب" وأخذت منها نسخة احتياطية وضعتها على "كارت ذاكرة" إضافي، وضعته بجوار التلفاز. تحسبًا لأي ظرف قد يحدث. فكرت كثيرًا في الذهاب إلى مركز الشرطة لأحرر محضرًا بالواقعة، لكنني كنت أتراجع في اللحظات الأخيرة، لعلمي بأن "شيمون" يراقبني. ولم يكن من الممكن إرسال "صلاح الدين" إلى حتفه، و"الإسكندر" لا يحمل بطاقة أصلًا كي يذهب بها إلى مركز الشرطة، كما أنه من الممكن أن يكون مراقبًا هو الآخر. فقررت أن أصبر إلى أن يأتي "شيمون" في المرة المقبلة وليحدث وقتها ما يحدث، ولكن نبرة التهديد. والوعيد التي سمعتها منه آخر مرة أقلقتني! ما العمل إذن؟ لم يتبق أمامي غير "مينا". ولكن كيف أصل إليه؟ هاتفي موضوع تحت المراقبة بالتأكيد، وكذلك بريدي الإلكتروني وإذا ذهبت لأشتري شريحة أخرى. ستزيد الشكوك من حولي. تذكرت أني اشتريت شريحة لهاتف "الإسكندر"، فأخذته وأرسلت رسالة إلى "مينا". أطلب اليه أن يزورني في أقرب وقت.

جاءني "مينا" على الفور. فحكيت له ما حدث وطلبت منه أن يأخذ التسجيل ويذهب به إلى قسم الشرطة، ولكنه قال إنه يفضل أن يقوم بتلك المهمة شخص غيره، لأنه ليس على وفاق مع الداخلية بسبب مهاجمته الدائمة لهم في الآونة الأخيرة، هذا بالإضافة إلى أنه يعتقد أنهم لن يتعاملوا مع بلاغه هذا بجدية. في

النهاية، طلب أن يذهب "الإسكندر" إلى القسم ويقوم بتحرير المحضر وتقديم دليل الإدانة. ولكي يضمن أن تتعامل الشرطة مع الأمر بجدية، سوف يرسل معه مصور البرنامج والمحرر، ليضع رجال القسم تحت الضغط الإعلامي.

أعجبتني الفكرة بالطبع، ولكن تبقى المشكلة كما هي: "الإسكندر" لا يحمل بطاقة، فكيف سيحرر بلاغًا في قسم الشرطة، ضد يهود؟ كيف سيذهب إلى قسم الشرطة أصلًا! حدثت "مينا" في أمر البطاقة، وأضفت: إن "الإسكندر" قد يكون مراقبًا هو الآخر، وذهابه إلى قسم الشرطة سيثير شكوك "شيمون" ورجاله حولي. فقال: إنه سيأخذ التسجيل ويذهب بنفسه غدًا ليسلمه للشرطة، وسيهددهم أنه سيعرض المكالمة في الحلقة المقبلة من برنامجه، إن لم يأخذوا الأمر على محمل الجد.

وبعدما انصرف شعرت براحة بال، إذ فكرت أنه، إن كان بإمكاني أن أنتصر على الصهاينة في معركة، فما المانع إذن من الفوز بالحرب؟ لم أنم ليلتي بسبب الفرحة التي تملأني، كما تملأ الفرحة الأطفال ليلة العيد، فلا يتمكنون من النوم. فما بالك إذا كانت تلك الفرحة آتية بعد سنوات احتل الحزن معظم أيامها، حتى أيام الفرح القلائل، تعودتُ أن تنتهي دائمًا بحزن.. كما تنتهي أحلام النوم بالاستيقاظ على كابوس الواقع.

قرب الفجر سمعتُ في الشارع همسًا بكلمات مبهمة وبلغة غريبة.. نظرتُ من ثقب في شباك حجرتي، فرأيته على ضوء المصباح المنير في العامود الموضوع أمام المنزل.. تعجبت من ظهوره في تلك الساعة، وتعجبت أكثر من الإشارات التي كان يرسلها بيده لأشخاص لم يساعدني الظلام لأتبين ملامحهم.. وفجأة، ظهر خلفه الثلاثة ثيران، ورأيتهم قادمون باتجاه منزلي.. قادمون إليّ.. كنتُ

قلقًا، وقدومهم في هذا الوقت المتأخر من الليل زادني قلقًا على قلقي. فعجز عقلي عن التفكير للحظات، ثم وجدتني أنتفض فجأة مهرولًا نحو الغرفة البحرية حيث ينام "الإسكندر". سكبت عليه كوز ماء حتى يفيق ويفهم ما سأقول. وكنتُ أعرف أنه سيستغرق وقتًا إلى أن يصبح في كامل وعيه، فهذه هي عادته منذ بداية معرفتي به.. فالتقطتُ هاتفه وقمت بالاتصال بـ "مينا"، فلم يجب، أعدت الكرة مرة أخرى، وتركت الهاتف يرن، والتفت إلى "الإسكندر" طالبًا منه أن يرتدي ملابسه فورًا، فنهض بتكاسل كي ينفذ أمري.. استفزني تكاسله، فقلت له إن الصهاينة خارج المنزل وقد يدخلون في أي وقت، وأنني أريده أن يقف بجوار الباب الخلفي القريب من الحظيرة، وعندما يراهم وهم يدخلون ينصرف، في الوقت الذي سيكونون فيه مشغولين بمحادثتي فلن يلتفت أحد له. انتفض هو الآخر على ذكر الصهاينة، وذهب ليرتدي ملابسه. وفي نفس الوقت رد "مينا" أخيرًا، فأعلمته بالمستجدات وطلبت منه أن يأتي حالًا بسياراته ليأخذ "الإسكندر"، ويتجها معًا إلى قسم الشرطة، وأنا بدوري سأحاول أن أماطلهم لأجعل وقت مكوثهم أطول، بحيث تتمكن الشرطة من القبض عليهم متلبسين.

فجأة، فُتح الباب الرئيسي للمنزل بضربة غاشمة، كضربة ضباط أمن الدولة في الأفلام المصرية، فناولت الهاتف لـ "الإسكندر" وهمست في أذنه:

-أنا هعمل نفسي صحيت على صوت الباب، وإنت أول ما تلاقينا دخلنا المندرة، اخلع من باب الزريبة، وأستاذ "نعيم" هيقابلك في السكة ويقولك هتعملوا إيه.

التقط الهاتف وأومأ برأسه دون أن ينبس ببنت شفاه، بينما صحتُ أنا بصوت يغلبه النعاس:

-مين اللي بره؟

## (٧٤)

أعربت لـ "شيمون" عن غضبي بسبب دخولهم المنزل بهذا الشكل، وفي ذلك الوقت، فرد معتذرًا بدبلوماسية.. وبسبب حاجتي لمزيد من الوقت، رفضت اعتذاره، فاعتذر مرة أخرى، وظللنا هكذا ما يقرب من ربع ساعة، حتى تحوّل تأففه إلى غضب، فآثرت الانتقال لمرحلة أخرى من الحديث، أكسب من خلالها مزيدًا من الوقت، حتى يعود "الإسكندر" ومعه الشرطة:

-ويا ترى جايلي وش الفجر عاوز إيه؟!

استغرق حوالي خمس ثوانٍ قبل أن يجيب، وتمنيت أن يكرر هذا الصمت في كل مرة أسأله:

-عاوز أعرف قرارك.

صمتُ مدعيًا أنني أفكر، ثم قلت قبل أن يشعر بالملل:

-وقراري ده ما ينفعش تعرفه الصبح؟

همّ أن يجيب، فقاطعته بسؤال آخر:

-ما ينفعش تعرفه بالتليفون، ما أكيد رقمي معاك؟

قال مهددًا:

-في الموبايل لو رفضت مش هعرف أخطفك.

ازدردتُ لعابي قلقًا، فضحك بشدة، بسبب الخوف الذي اعتراني، ثم لما انتهى

ضحكه أضاف:

-والصبح برضه هيكون في صعوبة على الرجالة.

وكفأر يجري، وقعتُ سريعًا في الفخ الذي حاولت أن أبتعد عنه فلم أقدر.. والآن بعد أن دخلته لم يعد أمامي سوى خيارين: إما أن أرفض فيقوم الثلاثة ثيران المرافقون له باختطافي. أو أقبل فينصرفوا قبل أن تأتي الشرطة. أو ينصرفوا ويأخذوني معهم. فالواضح من لهجته أنهم في عجلة من أمرهم ولن يعودوا إلى إسرائيل بدوني.. الواضح أن القيادة في إسرائيل كلها تنتظرني!

أنقذني صوت أذان الفجر، قادم من المسجد القريب، وطرقت عقلي الفكرة على صوت المؤذن وهو يقول "حي على الفلاح".. فقلت، متعمدًا إظهار خوفي منهم واحترامي:

-طيب هستأذن حضرتك أتوضى بس عشان أصلي الفجر.. بعد إذن سيادتك يعني؟

قال متعجبًا:

-من إمتى وانت بتصلي أصلًا عشان تصلي الفجر؟

-مش بصلي بس أعتقد آن الأوان ربنا يهديني بقى.

ثم تعمدتُ أن استفزه، فأضفت بهدوء:

-ما تقلقش هصلي جنبكم هنا، مش هروح الجامع عشان لو خايف أهرب منكم ولا حاجة.

توضأت وأحد البغال يقف خلف باب الحمام منتظرًا انتهائي.. ثم صليّت الفجر

عشرين ركعة، وهممت أن أصلي الواحد والعشرين، إلا أنني شعرت بيد تجذبني من يدي وسمعت "شيمون" يقول:

-إيه يا ابني هو الفجر ده كام ركعة؟

نظرت له وما زلت متسمرًا فوق سجادة الصلاة، وأجبته:

-اتنين.

سألني:

-أومال إنت بتصلي عشرين ركعة ليه؟!

-عشان أعوّض عمري اللي فات من غير ما أصلي فيه.. إنت بنفسك لسه قايل إني مش بصلي.. عشان ما تفتكرش إني بشتغلك ولا حاجة.. أنا صليت العشرين ركعة دول بأثر رجعي، وبما إنك بوّظت صلاتي لما خرجتني منها، فهضطر آسفًا أعيدها كلها من الأول تاني!

وهممت أن أبدأ صلاة جديدة، لولا أن سمعته يصيح غاضبًا:

-تعيد إيه يا روح أمك؟

فقلت متعمدًا إغاظته:

-ليه الغلط طاه.. إنت ترضاها على أمك؟

فغر فاهه من الدهشة، فانتبهت إلى قسوة الجملة وحاولت أن أبدو أكثر تهذيبًا، فعدلتها:

-على أم حضرتك!

استشاط غضبًا، فقلت بسرعة:

-نقول ترضاها على والدة حضرتك طيب؟

ظللنا هكذا حتى مرّ قرابة الساعتين، استنزفتُ خلالهما كل الوسائل المتاحة لإضاعة الوقت وغير المتاحة أيضًا.. كل هذا ولم يظهر أي من "الإسكندر" أو "مينا"! فلم يعد أمامي حل سوى المواجهة.. وجعلني ضوء النهار، الذي بدأ يتشقق، أكثر شجاعة. كما أنني سمعت صوت أقدام تتحرك خارج المنزل، فاعتقدت أن "الإسكندر" و"مينا" وصلا أخيرًا برفقة الشرطة، إذ ليس من المعتاد سماع أصوات بشوارعنا في ذلك الوقت.. فاطمأنيت وقلت وأنا أتحرك لأجلس بجواره:

-هو أنا لو قولتلك إني مش هساعدكم، هتعمل إيه؟

-أياً كان اللي هعمله مش هيعجبك ولا هتفرح لو عرفته.

-ما إنت مش هتقدر تعمل حاجة.

اعتراه ذُهول أعطاني ثقة أكبر في نفسي، فقررت أن أخوض المغامرة حتى آخرها، فسألته:

-عارف ليه؟

-ليه؟!

-عشان أنا سجلت كلامك معايا المرة اللي فاتت وسلمت التسجيلات للشرطة، و"الإسكندر" و"مينا" راحوا من شوية جابوا البوليس، وحاليًا الشرطة مراقبة البيت ومش هتعرف تتحرك لا إنت ولا رجالتك.

ارتعد خوفًا، فأحسست كأنني بطل فيلم عربي وقلت بتلقائية:

-أحسن لك ترمي سلاحك على الأرض وتسلم نفسك عشان المكان كله محاصر، والهروب هيضعف موقفك أكتر.

ارتفعت الأصوات في الشارع، فالتفتوا ناحية النافذة، بينما أضفت أنا كمن نسي شيئًا:

-آه.. واعترف لأن الإنكار مش هيفيدك.

وارتبكوا جميعًا.. بينما انتظرتُ أن تقتحم قوات الشرطة المنزل، ولكن شيئًا لم يحدث! كل ثانية تمر دون حدوث شيء تزيدني ارتباكًا وتجعلهم أكثر هدوءًا.. حاولت النظر من النافذة، لكنهم منعوني، وفجأة علا صوت خوار بقرة ونهيق حمار، ثم اختفت الأصوات نهائيًا بعد ذلك، فعلمت أن الأصوات التي اعتقدتها أصوات رجال الداخلية، هي أصوات ماشية جاري المارة أمام منزلي في طريقها إلى الحقل. وعلمت أيضًا أن تلك نهايتي.. فاستسلمت، ففوجئت بضربة قوية على مؤخرة رأسي، أظلمت الدنيا بعدها.

## (٧٥)

استعدت وعيي فوجدتني راقدًا فوق فراش في غرفة كل محتوياتها بيضاء.. حتى طلاء الحوائط كان أبيض.. اعتقدتُ أنني متُّ وبعثت في الجنة، فالجحيم ليس أبيض اللون على ما أعتقد، ولكنني لما نظرتُ بجوار الفراش علمت على الفور أنني لست في الجنة.. وأنني لم أمت.. إذ وجدت أمبوب محلول الملح، متصل بذراعي، لا أعتقد أيضًا أن الجنة بها محلول ملح.. أنا إذن في مستشفى، ولكن ماذا حدث؟ وكيف وصلت إلى هنا؟ كالعادة.. لا أعرف!

تفقدت الحجرة بعيني بدقة أكبر، فعلمت أنني داخل مشفى كبير، نظرًا لرقي الحجرة ونظافة الأسرة.. ناديت "يا إللي هنا" وانتظرت أن يأتني الرد، فلم يأتِ. حاولت معرفة الوقت، فلم أجد هاتفي.. فنظرت على الحوائط عسى أن أجد ساعة، فوجدتها بالحائط المقابل للسرير، تشير إلى الثانية والنصف، لا أعرف إذا كانت مساءً أم صباحًا، ولكنني قدرت أنها صباحًا بسبب السكون المسيطر على المكان. مددت يدي لأشعل ضوء الحجرة، وصلت أول زر وضغط عليه فلم يحدث أي شيء.. تعجبت! مستشفى بهذا الحجم وبها زر إضاءة لا يعمل؟! ضغط على الثاني فأضاءت الحجرة بضوء خافت مريح للعين.. تطلعت إلى السقف حتى مللت، فأخذت أقتل الملل بالضغط على الزر التالف، مرة أشعله ومرة أطفئه، وما هي إلا ثوانٍ حتى شعرت بالملل من ذلك أيضًا، فانتقلت نحو الزر السليم، وأخذت أشعل ضوء الحجرة مرة وأطفئه مرة أخرى، ولكن لا شيء من ذلك ساهم في قتل شعوري بالملل.

فُتح باب الحجرة أخيرًا ودلفت منه ممرضة حسناء شعرها أسود، ذات عينين واسعتين كأعين البقر، وكانت ترتدي تنورة قصيرة نوعًا ما. فعلمت أنني دخلت الجنة بالفعل، فمحافظتي ليس بها من هن بهذا الجمال.. الحقيقة أن مصر كلها ليس بها هذا الجمال الملائكي.. ابتسم الملاك وقال:

-حمدًا لله على سلامتك.

جعلني جمالها أبتسم ببلاهة كما كان يفعل "مينا" .. لكني تمالكت نفسي وقلت مغازلا:

-الحمد لله أن الملايكة بتتكلم عربي عشان تقدري تفهمي كلامي لما أعبر لك عن إعجابي.

ضحكت ثم اقتربت مني، وقالت وهي تزيل أنبوب محلول الملح من يدي:

-كنت لسه هسألك كام سؤال علشان أتطمن عليك.. لكن خلاص، طالما عرفت تغازل وتمدح، يبقى إنت بقيت زي الفل.

ادعيت الدهشة وقلت:

-إيه ده هو أنا مش في الجنة؟

انفجرتْ في نوبة ضحك، ولما انتهت قالت:

-إنت شكلك لمض وهتتعبني معاك.. عمومًا حمدا لله على السلامة، وأول ما النهار يطلع هتصل بمكتب سيادة المحافظ عشان أطمنه عليك.

وانصرفت باتجاه الباب، ثم التفتتْ نحوي قبل أن تخرج وقالت:

-الراجل بقاله أسبوع بيطلع من شغله عليك هو والأستاذ "نعيم" و"إسكندر" صاحبك!

انصرفتُ فرجعتُ إلى لعبتي السابقة، الضغط على زر الإضاءة التالف، وشرد عقلي في جمالها، فشعرت بغصة في قلبي بسبب تفكيري في أنثى غير "ندى"، ثم انتقل تفكيري تدريجيًا إليها ثم إلى والدها الذي يقوم بمساعدتي الآن، رغم كل ما جرى! بدأت أفكر في أجوبة للسؤال: "كيف أُنقذتْ حياتي ومن فعلها؟" ووضعت عدة سيناريوهات وتخيلات للموقف، ولكن أيًا منها لم يقنعني، فانتقل عقلي للتفكير في سؤال آخر: "كيف علم سيادة اللواء بما حدث؟!". كل هذه الانتقالات من موضوع لآخر وأنا لا زلت أتسلى بالضغط على زر الإضاءة التالف، وفجأة فتح باب الحجرة فظهرت نفس الممرضة مرة أخرى:

-فيه حاجة يا أستاذ "مدحت"؟

تعجبتُ، المفترض أن أكون أنا من يسأل لا هي، بما أنها هي التي عادت ودخلت الحجرة عليّ! سألتها متعجبًا:

-حاجة إيه؟

-حضرتك بترن الجرس.. فيه حاجة؟

-والله يا قمر ما أعرف مكان الجرس أصلًا عشان أرنه..

أشارت إليّ حيث تعبث يدي، وقالت:

-الزرار اللي حضرتك بتلعب فيه ده بتاع الاستدعاء.. لما المريض يكون محتاج حاجة بيضغط عليه فيرن عند التمريض، نجيلك فورًا.

أحرجت فقلت ساخرًا من نفسي:

-يادي الكسوف، أودي وشي منك فين أنا دلوقتي! قال وأنا اللي كنت بفكر في طريقة أقولك بيها إني معجب بيكي وعاوز أتجوزك!

لا أعرف كيف خرجت مني تلك الجملة، ولكني ندمت على قولها لما رأيت وقعها عليها، إذ ارتفع حاجباها من الدهشة، وارتبكتْ، فأضفتُ بجدية:

-معلش أصل أنا متعود على المستشفى العام، مافيش جرس استدعاء ولا أي دلع من ده.. مافيش تمريض أصلًا.

ضحكتْ وانصرفتْ بينما ظللتُ مستيقظًا حتى الصباح، أول من جاءني كان "الإسكندر" ووالدتي.. فرحا لما وجداني قد أفقت أخيرًا من غيبوبتي، واحتضنتني والدتي كثيرًا، وكذلك فعل "الإسكندر".. ثم بعد كلمات "حمدالله على السلامة" طلبت منه أن يحكي لي ما حدث، قال: إنه قابل الأستاذ "نعيم" كيفما اتُفق، وذهبا سويًا إلى قسم الشرطة للإبلاغ عن الواقعة، ولكن أحدًا من القسم لم يهتم، كما توقعنا.. الضابط النبطشي قال إن عليهما أن ينتظرا الباشا المأمور حتى يأتي في الصباح. فأخرج "الإسكندر" هاتفه وقام بتشغيل الملف الصوتي الذي سجلناه للصهاينة كي يضع أمام الضابط الكارثة كاملة بالأدلة، ولكنه لم يهتم حتى بعد أن علم أن تحركه سوف ينقذ حياتي المعرضة للخطر، وقال بجدية:

-الخطر الحقيقي على مصر الأيام دي مش من إسرائيل.

سأله الأستاذ "نعيم" بسخرية:

- أومال من مين؟

فأجابه الضابط بنفس الجدية:

-الخطر الحقيقي جاي من الداخل.. من الإرهاب اللي الإخوان وداعش عاملينه.. ما عنديش أوامر أتحرك من القسم في أي بلاغات باستثناء البلاغات اللي ضد الإخوان، غير كده مش هقدر أتحرك.. أنا آسف!

استشاط الأستاذ "نعيم" غضبًا وهدد الضابط بفضحه هو والمأمور ومدير الأمن ووزير الداخلية نفسه.. وحاول كثيرًا الاتصال باللواء حمدي ولكنه لم يجب.. فكر أن يذهب إلى مقر سكن سيادة اللواء بالاستراحة المخصصة للمحافظين، والتي انتقل إليها اللواء "حمدي" بعد توليه منصب محافظ البحيرة، ولكنه لما نظر إلى ساعته، خشى من تعامل الحرس مع الموقف، في ذلك الوقت المتأخر.

أضاف "الإسكندر": أنه وبعد فترة، قال له الأستاذ "نعيم" إن عليهما الآن ترك قسم الشرطة والعودة إلى القرية، حتى يتمكنا من إنقاذي على الأقل.. وفي طريق عودتهما، وقبل أن يخرجا من دمنهور، رن هاتف الأستاذ "نعيم" وكان المتصل هو سيادة اللواء، لم يعاتبه "نعيم" على عدم الرد، ولكن دخل في الموضوع مباشرة وحكى له الموقف بأقل كلمات، فأمرهما سيادة اللواء بالتحرك على أن يتبعهم ومعه مجموعة من الحراس الذين يقومون بحراسة استراحته.

نفذا ما قيل لهما، وأسرعا حتى وصلا إلى منزلي، ولما وجدوني ما زلت أتجادل مع الصهاينة لأكسب مزيدًا من الوقت، وقفا بالخارج في انتظار وصول المحافظ والحرس المرافق له.. ولكن فجأة سمعا صوت شخص ما مارًا بمواشيه من أمام المنزل، فتواروا عن أنظاره حتى عبر، ثم سمعا صوتي وأنا أقول بثقة: "أحسنلك ترمي سلاحك على الأرض وتسلم نفسك عشان المكان كله محاصر، والهروب هيضعف موقفك أكتر"، ثم فترة صمت لم يقطعها إلا خوار بقرة الجار، وبعدها

خبطة جاءت من الداخل. لابد وأنها تلك الخبطة على مؤخرة رأسي، التي ما زالت تؤلمني حتى الآن.. لم يعرفا ماذا يتوجب عليهما أن يفعلا.. أيدخلان المنزل أم ينتظران بالخارج، فانتظرا في مكانهما خارج المنزل، ولكن بعد فترة قصيرة فُتح الباب وخرج منه "شيمون"، وخلفه اثنان يحملان جثماني، وخلفهما شخص ثالث.. وجعلهما منظر الدم السائل من رأسي يعتقدان أنني قد متّ. فهرعا تجاههم، واشتبكا معهم في عراك كاد أن يحسم لصالح الصهاينة، لولا تدخل المحافظ والقوة المرافقة له في اللحظات الأخيرة.

صمتُ مفكرًا فيما آلت إليه الأمور.. في حياتي التي كانت على المحك.. على شفا خطوة من الموت.. بينما عقبت والدتي، فأخرجتني من شرودي وهي تربت على رجل الإسكندر، بحنو وتقول:

-بس عارف ياض يا "مدحت"؟

نظرت إليها فأكملت:

-الواد "إسكندر" ده رغم أنه مسيحي بس جدع..

ضحكت من قلبي للمرة الأولى منذ زمن، فاقترب مني "الإسكندر"، ليهمس بشيء ما لا يريد أن تسمعه والدتي.. وكنت أعتقد أنه سوف يسألني "يعني إيه مسيحي؟" ولكنه قال:

-عاوز أقولك سر!

فقلت بهمس مماثل:

-قول.

-بس اوعى حد يعرف خالص.. الموضوع ده محدش يعرفه غير سيادة المحافظ.

-لا قول ما تقلقش محدش هيعرف.

-أنا اشتغلت في المخدرات.

رددتُ الكلمة خلفه بتعجب:

-المخدرات؟

ثم أضفت:

-وسيادة المحافظ عارف ده وسايبك؟

صدمني قائلًا:

-ده سيادة المحافظ هو اللي شغلني فيها، بعد ما ساعدت الدولة في القبض على الصهاينة.

لم أفهم ما علاقة مساعدته في القبض على الصهاينة، بعمله في المخدرات! وقبل أن أستفسر عن الأمر، دخل "مينا"، فقطع حديثنا، وظل يحتضنني ويقبلني. أحب "مينا" جدًا، أحبه أكثر من "صلاح الدين" وحتى أكثر من "الإسكندر"، فهو الوحيد الذي أشعر أنه نقي جدًا، ولم تغيره الظروف كما غيّرت "صلاح الدين"، كما أنه ليس أنانيًا مثل "الإسكندر".. في الحقيقة أنا أحب ثلاثتهم، ولكن لـ"مينا" نصيب الأسد في قلبي.. جلس بجواري وهو يقول للإسكندر بمزاح:

-أيوه يا عم الناس الغامضة دي اللي مش راضية تظهر معايا في البرنامج بتاعي! قلت لـ"مدحت" إنك اشتغلت في المخابرات العامة ولا لسه؟

الأمر هكذا إذن.. بعد مساعدته في القبض على الصهاينة، كافأته الدولة بأن وظفته في المخابرات العامة.. يبدو أنني لم أسمعه جيدًا، أو أنه لا يعرف الفرق بين المخابرات والمخدرات! تلعثم لبرهة، ثم سأل "مينا":

-إنت عرفت منين يا أستاذ "نعيم"؟

-هو أنا بس اللي عرفت؟ دي مصر كلها عرفت يا ابني.

ضحكتُ بشدة على ذلك السر الذي يعلمه العالم بأكمله.. بينما أضاف "مينا" مبتسمًا:

-إنت بقيت أشهر مني يا "إسكندر".

## (٧٦)

في المساء زارني سيادة المحافظ ومعه "ندى"، لا أعرف لِمَ اصطحبها معه! أيعلن لي بذلك عن موافقته أخيرًا على زواجي منها؟ أم هي التي أصرت على زيارتي فاصطحبها رغمًا عنه؟ لم أُرِد أن أعلق قلبي باحتمالات واهية مرة أخرى.. يكفي ما حدث.. يكفي الجرح الذي كان قد قارب على أن يلتئم، لولا رؤيتها التي جعلته ينزف من جديد.. رحبتْ والدتي بهما، وقالت إن سيادة المحافظ كان يزورني يوميًا خلال التسعة أيام التي قضيتها في غيبوبتي. هل غبت عن الدنيا كل هذه المدة؟! استأنف والدتي:

-الأستاذة "ندى" برضه كتر خيرها ما كانتش بتفوت يوم من غير ما تزورك.

أكانت تزورني يوميًا؟ ووالدها يعلم ذلك؟! رقص قلبي فرحًا، ولاحت على شفتيّ ابتسامة، قتلها صوت المحافظ:

-مدحت ده ابني وأخو "ندى"!

ثم سألني كي يحصل على تأكيد لجملة "وأخو ندى" تلك:

- ولا إيه يا معلم؟

-دي حاجة تشرفني إني أكون ابن حضرتك.

وسكتُ لبرهة متعمدًا أن ألعب بأعصابه ولو لمرة واحدة، مثلما يفعل معي دائمًا. ثم نظرت إلى عينيه مباشرة، وأضفت:

-وأخو "ندى".

فرح المحافظ، وقبل أن أرى وقع الجملة على "ندى"، دخلت ملاك الرحمة، التي استلمت نوبتها الليلية في الحال.. سألت عن صحتي وآخر الأخبار، فقالت والدتي الجملة المعتادة:

-وسهر دي بقى أكتر واحدة تعبت عشانك.. وعلى فكرة مش مخطوبة.

احمرّت وجنتا "سهر" خجلًا، فتجاهلتُ كلام والدتي عن أنها غير مرتبطة، رغم أنه أعجبني لأنه أغاظ "ندى".. وسألتها:

-اسمك سهر؟

-آه.

-ومين اللي سماكي الاسم الجميل ده؟

-مش عارفة.. بتسأل ليه؟

-أصله بيفهم بصراحة!

ضحكت، فاستشاطت "ندى" غضبًا، فأضفت:

-وكمان كان عنده رؤية مستقبلية.. كان عارف إنك لما تكبري هتشتغلي في مستشفى وتمسكي وردية ليلية وتسهري للصبح، فسماكي سهر

ضحكوا ورغم سخافة الإفيه، فأضفت:

-عموما شكرًا جدًا يا سهر.

وقبل أن ترد، قلدتُ صوت والدتي وطريقتها وقلت محاكيًا طريقتها أيضًا:

-وعلى فكرة أنا كمان مش مخطوبة.

تركت "ندى" الغرفة، وكنت أعرف أنني لن أراها بعد ذلك.. كنت أشعر بأن ذلك هو آخر لقاء بيننا، إن اعتبرنا البضع دقائق الموجعة التي قضتها واقفة أمامي، لقاء. تحدث والدها عن أنني أصبحت بطلًا قوميًا، وتناول الإعلام كله (المرأي والمسموع والمقروء) القضية التي أصبحت تعرف إعلاميًا باسم "يهود العزبة". ثم انتقل في الحديث عن تعيين "الإسكندر" للعمل بمبنى المحافظة كمكافأة من الدولة على شجاعته، وكيف أنه - سيادة اللواء - أصر أن يتم تعيين "إسكندر" في مكتبه الشخصي.. وأوصى بنفسه على سرعة إنهاء الإجراءات المتعلقة باستخراج رقم قومي جديد له.. ولم يكمل كلامه، إذ استأذن لينصرف، بعد أن جاءته مكالمة هاتفية.. بالتأكيد كانت منها.

أوجعني قلبي على الألم الذي سببته لها، ولكن ما باليد حيلة.. فأنا على الأقل أفكر بناءً على معطيات الواقع، الذي يفرضه علينا والدها.. لست أنا من يقتل كل بادرة أمل تدخل قلوبنا.

حافظت على ابتسامتي رغم الوجع، حتى لا تلاحظ والدتي شيئًا، وقلت لها:

-كل الناس زاروني إلا الشيخ "يوسف".. ما تعرفيش هو ما جاش ليه؟

ضربت بيدها على صدرها في هلع، وقالت:

-سلامة عقلك يا ضنايا.. هي الخبطة أثرت على مخك ولا إيه؟ الشيخ "يوسف" هربان في قطر يا حبيبي بقاله سنة.

تذكرتُ "صلاح الدين" لم يأتِ لزيارتي بسبب عدم قدرته على التحرك بحرية.

لابد أن أبعث له من يطمئنه عليّ.. سأنتظر حتى يأتي "مينا" أو "الإسكندر" أو "محمد أمين"، فهم فقط من يعرفون مكان اختبائه. كان "الإسكندر" أول من وصل، ولكني لاحظت أنه شارد الذهن على غير المعتاد، ولما سألته عن السبب، رد بأنه يريد أن يصبح محافظًا للإسكندرية، ولا يعرف كيف:

-هو اللواء "حمدي" بقى محافظ إزاي؟

لأن اللواء "حمدي" ابن المؤسسة العسكرية التي تتحكم بمقاليد الأمور بمصر في الفترة الحالية.. سألني إذا كان كل المحافظون ينتمون إلى تلك المؤسسة؟ فأجبته بالنفي، هناك "إبراهيم" مثلًا، أصبح محافظًا بعد أن أبلغ عن الإخوان أصدقاءه، وتسبب في سجنهم. قال:

-طيب ما أنا بلغت عن الصهاينة أعداء الوطن برضه وما بقيتش محافظ ولا حاجة؟!

لم أعرف بمَ أرد، فآثرت السكوت، فأكمل:

-أنا عارف طبعًا أن الإخوان أخطر على البلد من الصهاينة، بس أنا نفسي أبقى محافظ إسكندرية عشان دي مدينتي وأنا اللي بنيتها.

-مين قالك إن الإخوان أخطر على البلد من الصهاينة؟

-الظابط في القسم مارضيش يتحرك لما عرف إنهم صهاينة، وقال إن الأوامر اللي عنده إنه يتحرك في حالة البلاغ عن إخوان بس!

ثم أضاف كمن تذكر شيئًا:

-وكمان "إبراهيم" ده لما بلغ عن الإخوان بقى محافظ، وأنا لما بلغت عن

صهاينة بقيت موظف في المخابرات، وبروح مكتب المحافظ تمويه!

لم يكن عندي رد، فآثرت الابتعاد عن هذا النقاش وطلبت منه أن يذهب إلى منزل الشيخ "يوسف" ليطمئنه عليّ.. سأل عن سبب عدم زيارة الشيخ لي، فقلت إنه هارب من الشرطة ويخشى إن زارني أن يتم القبض عليه.. فهو أحد الأشخاص الذين أبلغ عنهم "إبراهيم"، لأنهم إخوان، ولكن الشيخ "يوسف" تمكن من الهرب قبل القبض عليه. وكانت تلك المعلومة أكبر خطأ ارتكبته، ومن بعدها بدأ الصدام بين "صلاح الدين" و"الإسكندر"، الذي أبلغ المخابرات العامة عن مكان اختبائه.

## (٧٧)

يبدو أنه بدلًا من أن يذهب "الإسكندر" إلى منزل "صلاح الدين"، كما طلبت منه، ذهب إلى قسم الشرطة ليبلغ عنه! حكى لي "محمد أمين" أن قوة من الشرطة ذهبت فجرًا لإلقاء القبض الشيخ "يوسف"، ولكنهم وجدوا المنزل خاليًا حينما داهموه. ورآهم الشيخ عندما كان عائدًا من صلاة الفجر، ومن حسن حظه أنهم لم يروه. فتمكن من الهرب في الأراضي الزراعية الشاسعة، ومكث هناك حتى انقشع الظلام عن الصبح.. فخشي أن يرجع إلى بيته، وكان يعلم أنني بالمشفى، فلم يكن أمامه سوى "محمد أمين"، ليذهب إليه.. وأضاف "محمد" أنه لم يعرف ماذا يفعل فقام بالاتصال بالأستاذ "نعيم" وشرح له الموقف.. جاء "نعيم" على الفور وأخذ الشيخ "يوسف" وانصرفا فلم يستطع "محمد" الانتظار، وقرر أن يُطلعني على آخر المستجدات، فحضر إلى المستشفى.

في البدء لم أستطع الربط بين ما حدث و"الإسكندر"، فظللت معتقدًا أن أحدًا قد رأى "صلاح الدين" وتعرف عليه، فأبلغ عنه.. اتصلت بـ"مينا" لأطمئن، ولكنه رفض استقبال مكالمتي. وقبل أن أعيد الاتصال ثانية، وصلتني رسالة نصية منه مكتوب بها "إحنا كويسين، ما تتصلش بيا لإني مش هعرف أكلمك، عشان مشغول في حاجة هخلصها وأعدي عليك". فهمت أنه يخشى أن تكون هواتفنا موضوعة تحت المراقبة. وتذكرت "مينا" الساذج القديم وما آل إليه حاله بعد مكوثه بمصر لفترة أقل من أربعة أعوام، وابتسمت لذلك التغيير الإيجابي الذي أحدثته مصر بشخصيته.

قضيت وقت انتظار قدوم "مينا"، وأنا أتحدث مع "محمد" في أية مواضيع بغية تزجية الوقت.. وبعد قليل ظهر "الإسكندر"، عرفته بـ"محمد أمين"، الذي كان يقابله لأول مرة. دقائق مرت ثم انصرف "محمد" طالبًا مني أن أطمئنه إذا جد جديدًا.. فقلت للإسكندر:

-ماتبقاش تروح زي ما قولتلك عشان الشيخ "يوسف" مش في البيت.

-ما أنا عارف.

-عارف منين؟

-الشرطة راحتله الفجر عشان تقبض عليه بس هو هرب للأسف.

لم يعجبني كلامه، وتحديدًا كلمة "للأسف"، الذي اختتم بها جملته، فسألته:

-وانت عرفت المعلومات دي كلها منين؟ ده الحوار ما بقالوش ساعتين!

باغتني هو سائلًا بنبرة ضباط أمن الدولة:

-إنت اللي عرفت منين؟

-عرفت من "محمد" .. الشيخ "يوسف" راحله الصبح لأنه خاف لو رجع بيته يتقبض عليه.

-يعني هو عند "محمد" دلوقتي؟

لِمَ كل هذه الأسئلة، التي تجعلني أشعر بأنه يقوم بالتحقيق معي؟ رددت:

-لا، "محمد" خاف يخبيه فاتصل بالأستاذ "نعيم".

تذكرت شيئًا فلم أكمل وسألته:

-إنت عرفت منين المعلومات دي كلها؟ وإيه للأسف دي.. إنت كنت عاوزه يتقبض عليه ولا إيه؟!

أجاب بصراحة، وهو يقف على باب الحجرة استعدادًا للانصراف:

-أيوه عاوزه يتقبض عليه، وأنا اللي بلغت عنه عشان أمسك محافظ الإسكندرية.

كانت صدمة أخرى أتلقاها فوق رأسي، وأوجعتني أكثر من وجع الضربة التي تلقيتها من الصهاينة حينما حاولوا اختطافي.. ومازال هناك صدمة ثالثة: لقد أبلغته عن "محمد" و"مينا" و"صلاح الدين"، دفعة واحدة، ولو لمْ أتصرف حالًا سيتم القبض على ثلاثتهما، لكي يصبح "الإسكندر" محافظًا للإسكندرية، كما يبغي!

اتصلت بـ"محمد" وأبلغته ما حدث، وطلبت منه أن ينكر كل شيء إذا تم القبض عليه. ثم أرسلت لـ"مينا" رسالة شرحت فيها ما حدث بأقل كلمات.. واتصلت بـ"الإسكندر" عسى أن أجعله يعدل عن تنفيذ ما يصبو إليه.. شرحت له كيف أنه بالفعل أثبت ولاءه بالإبلاغ عن الشيخ "يوسف"، وأن من حقه الآن أن يطالب بما يريد، فليس ذنبه أنه هرب قبل أن تتمكن قوات الشرطة من القبض عليه.. اقتنع ووعدني أنه لن يبلغ عنهم.

وصلني "مينا" بعد ساعة وطلب تفسيرًا لِما يحدث، فحكيت له كل ما أعرفه. وشعرت أنه اطمأن لمّا علم بمكالمتي الأخيرة مع "الإسكندر" ولما سألته عن الشيخ "يوسف" قال إنه جن جنونه بسبب ما فعله "إسكندر" وقام بالتواصل مع أخ من جماعة أنصار بيت المقدس، وطلب منه أن تستضيفه الجماعة كفرد منهم، وذلك بعد أن يئِس من فكرة المصالحة.. ثم سألني عن جماعة أنصار بيت

المقدس تلك، وقال إنه سمع الاسم كثيرًا ولكنه لا يتذكر أي شيء بخصوصهم.. كنت في صدمة بسبب ما أسمعه، أيعقل أن يصبح "صلاح الدين الأيوبي" البطل والسلطان قديمًا.. الطيب المسالم حاليًا، فردًا في جماعة إرهابية؟ طال صمتي، فأكمل "مينا" أنه سمع الشيخ "يوسف" يعطي الأخ معلومات عن "إسكندر" ويطلب منه سرعة الرد، وقال لمحدثه نصًا "لازم يعرف هو واللي وراه إننا مش هنسكت بعد كده".

قررت مغادرة المشفى. لقد اشتعلت الأحداث ولابد من إطفاء نارها قبل أن تتطور أكثر من ذلك.. نهضت واقفًا فآلمتني رأسي بشدة، وزغللت عيني وشعرت بدوار كدتُ معه أن أسقط، لولا أن أسندني "مينا" .. مرت ثوانٍ حتى تمالكت نفسي، وزالت زغللة عيني ومعها الدوار، لكن أبى الصداع أن يتركني.. طلبت منه أن يأخذني إلى الشيخ "يوسف"، واتصلت بـ "الإسكندر" مرة أخرى وطلبت منه أن يقابلني بالمنزل في الحال، ثم خرجت من المشفى رغم أنف الجميع، بمن فيهم "سهر".

## (٧٨)

باءت محاولاتي مع "صلاح الدين" بالفشل، وظل طوال اللقاء يسمعني دون أن يقاطعني، وحين أصمت مع نهاية كل جملة، كان يرد بجملة واحدة "سبق السيف العذل"، حاولت إقناعه من جميع الجهات، بدأت من الناحية الدينية وأن الله قد حرم قتل النفس بغير حق، وما إلى ذلك.. فجاءني نفس الرد!، فتحولت إلى الناحية الإنسانية وانتهيت إلى نفس الرد. جربت بعد ذلك كل الطرق الممكنة وفشلت أيضًا. فندمت على الوقت الذي أضعته معه، كان لابد أن أفهم أنني طالما لم أستطع أن أقنع شيخًا – أو المفترض كونه كذلك – بوجهة نظري، مستخدمًا الدين، فلن أتمكن من إقناعه بأية طرق أخرى.

ذهبت إلى المنزل فوجدتُ "الإسكندر" بانتظاري.. حكيت له ما ينوي الشيخ "يوسف" فعله، وطلبت منه أن يحترس في تحركاته، ويطرد فكرة أن يصبح محافظ الإسكندرية تلك من رأسه، لأنها سوف تتسبب في قتله، خصوصًا إن ظل يُبلغ الشرطة عن الإخوان لينال ما يحلم. فقال إنه سيستمر فيما يفعل لأن ما يحدث الآن سبب أدعى للإبلاغ عنهم حتى يتم القبض عليهم. فشلت، وزاد الطين بَلّة لمّا اتصل بي "مينا ليخبرني برحيل الشيخ "يوسف" المفاجئ، دون أن يُحدد وجهته، أو يترك حتى رقم هاتف نطمئن عليه من خلاله.. ضربت كفًا على كف، وأنا أقول بحسرة "اللهم قد بلغت اللهم فاشهد.. وبعد كدة تخرب ما تعمر".

مرت فترة بسلام، فنسينا تهديد "صلاح الدين"، ولم يعد "الإسكندر" يتحرك

بحذر وخوف كما كان يفعل.. ثم بدأ يخطط للانتقال للعيش بمفرده، وظل أيضًا يحاول أن يصير محافظًا للإسكندرية، حتى حدثت مفاجأة في التاسع والعشرين من شهر سبتمبر عام ٢٠١٦. انفجرت قنبلة يدوية الصنع بالقرب من مبنى المحافظة بدمنهور مستهدفة "الإسكندر" ولكنها لم تقتله، بل أصابته وقتلت زميلًا له يعمل معه بنفس المكتب، وهو الذي علّم "الإسكندر" كيفية تسيير العمل.. علمت ذلك بعدما أفاق من غيبوبته، وسأل عما حدث.. وعلمت أيضًا أن ذلك الانفجار لن يمر مرور الكرام، فالمحافظ نفسه كان مهتمًا بالأمر، نظرًا لاعتقاده أنه هو من كان الهدف من التفجير. أما "الإسكندر"، فلم أكن أعلم فيما يفكر، ولكن أيًا كان فلم يكن خيرًا أبدًا. هذا ما قرأته في عينيه، وسمعته من صمته الكثير، ورأيته في شروده الدائم.

انتقل بعد شهر للسكن بمفرده، بعدما ضجر من كثرة حديثي معه عن ضرورة التحلي بالصبر، وعن عبث التفكير بالثأر.. فقرر أن يريح نفسه، ويبتعد عني.. في ذكرى الخامس والعشرين من يناير عام ٢٠١٧ قالت كل الصحف العبرية، إن المسؤولين المصريين أفرجوا عن الأربعة مواطنين الإسرائيليين الذين تم القبض عليهم فيما عرف إعلاميًا بقضية "يهود العزبة".. واستشاط الشارع المصري غضبًا، وغضبت أنا وحدي أكثر من غضب الشعب أجمع.. في حين أنكر مسؤولونا ما حدث، متهمين الإعلام الصهيوني بإطلاق الشائعات لإثارة الفتن بين طوائف الشعب، وإحداث فرقه بين الشعب والحكومة، في هذا التوقيت الحساس ليفسدوا على المصريين احتفالاتهم بذكرى الثورة. فصدقناهم، خصوصًا مع عدم تقديم دليل من قِبل الصهاينة. ولكن قبل أن يهدأ الرأي العام، ظهرت على مواقع التواصل الاجتماعي عدة صور لـ"شيمون" والثلاثة ثيران

يبتسمون، ويستقبلهم رئيس الوزراء الإسرائيلي بالأحضان.. زاد غضبنا وطالبنا بإقالة الحكومة وعمل انتخابات رئاسية مبكرة، وقمنا بتدشين مئات الدعوات للتظاهر.. بينما عقب "الإسكندر" على ما حدث قائلًا: إن العدو الحقيقي هو عدو الداخل المتمثل في الإخوان والجماعات الإرهابية الأخرى كداعش وأنصار بيت المقدس وغيرهم. أما اليهود فيعانون من نفس الإرهاب الذي نعاني منه، كما أن بيننا وبينهم اتفاقية سلام، ومن غير المقبول التحفظ على رعاياهم بأرضنا دون وجه حق.. فقلت له متعجبًا:

-طيب بغض النظر عن قضية التجسس والتسجيلات اللي إنت بنفسك سلمتها للشرطة.. تقدر تقولي التعدي على مواطن مصري - اللي هو أنا - والشروع في قتله، وخطفه من بيته، ده يعتبر إيه؟ مش جريمة دي برضه؟!

-جريمة طبعًا، ودور الدولة إنها تسلم الجناة لبلدهم وهي تتصرف معاهم!

علمت أن هذا كلام سيادة المحافظ، وليس كلامه.. كيف تُغيّر المناصب أصحابها بهذا الشكل؟ قلت بغضب:

-إنت كرهك للإخوان عماك.. وتارك مع الشيخ "يوسف" خلاك مش شايف الحقيقة فين، أو شايفها بس بتكابر.

صمتُ لبرهة ثم أضفت متعمدًا أن أغيظه:

-وإن شاء الله مش هتقبض عليه.

-مش عاوز أقبض عليه.

تعجبتُ، فأكمل:

-بيني وبينه تار، ودم. ولو قبضت عليه هيتسجن مش هيموت، وبكده هيضيع دم صاحبي.

جاء موعد المظاهرات، ولكن لم يحضر أحد.. هل نجح الإعلام في جعل الشعب يكفر بالثورة، أم غياب البديل هو السبب؟ فقد سمعت كثيرًا في الآونة الأخيرة.. جملة: "طيب لو شيلنا الريّس هنجيب مين مكانه؟" وفي الواقع لم يكن عندي الرد على ذلك السؤال، خصوصًا بعد سقوط كل الرموز الوطنية.. ولكن ليس هكذا نفكر حينما نريد التغيير.. فأيام مبارك مثلًا لم نفكر فيمن يحل محله، قد يرجع ذلك لعدم ثقتنا في أننا قد نستطيع إجباره على الرحيل، لكن.. ماذا عن مرسي؟ لا أعرف، ولا أريد هنا أن أبدو لك كمحلل سياسي، فدعني أنتقل إلى الجزئية الأكثر أهمية في قصتي.

## (٧٩)

أعلم أنك شعرت بالملل.. لا تقلق، الآن سأكتب لك مشهد النهاية.. استطاع "مينا"، ولا أعرف كيف، أن يتواصل مع "صلاح الدين".. وطلب مني أن أتحدث مع "الإسكندر" بشأن عقد اجتماع للصلح بين الاثنين.. وافق "الإسكندر" دون تفكير، الأمر الذي أثار ريبتي، إذ كان منذ أيام قلائل يتحدث عن الثأر لصاحبه الذي قُتل، والانتقام من الشيخ "يوسف"، ولكني طردت الشكوك من رأسي، وحدثت "مينا" بما تم مع "الإسكندر" ففرح وقال إن الشيخ "يوسف" يريد أن يتم اللقاء على أرض محايدة. اقترحت عليه منزلي، وهل هناك أفضل من منزل سكنًا فيه، ليكون أرضًا محايدة يتم الصلح عليها؟ فقال إنه عرض نفس الأمر عليه لكنه رفض، لعدم ثقته بـ"إسكندر" وخشي أن يبلغ عنه الشرطة كما فعل فيما مضى.

بعد مشاورات استمرت أيام استطعنا التوافق على يوم الأربعاء التالي والموافق الثاني عشر من إبريل عام ٢٠١٧. واتفقنا على أن يتم اللقاء داخل استراحة ما على طريق مصر إسكندرية الصحراوي، بالقرب من مدينة وادي النطرون، في الواحدة ظهرًا. وصباح يوم اللقاء، اتصل "مينا" بهما للتأكيد على الموعد، فقالا إنهما على استعداد وسيتواجدان في المكان حسب التوقيت المحدد. طلبت من "مينا" أن أذهب برفقته، فرفض، فالصلح أصبح بالإمكان طالما وافقا على مبدأ اللقاء والعتاب. بالإضافة إلى أن "إسكندر" كان يرفض تواجد أي شخص، حتى "مينا" نفسه لولا أنه أصر على التواجد ليمسك بزمام الأمور إذا تأزم

الصلح.. كنت على اتصال مستمر مع "مينا"، لمعرفة تطورات الأحداث أولًا بأول. في أول مكالمة معه، أخبرني أنه وصل وفي انتظارهم. وفي الثانية، قال إن "إسكندر" اتصل به وسأل إذا كان الشيخ "يوسف" وصل أم لا؟ فأخبره "مينا" أنه لم يصل بعد، ثم سأله عن مكانه، فرد أنه في الطريق إليه.

طلبت من "مينا" أن يتصل بالشيخ "يوسف" لكي لا يعتبر "إسكندر" أن تأخره عن الاجتماع، قلة تقدير له، وتصبح الأمور بينهما أكثر توترًا مما هي عليه.. ثم حدثته مرة أخرى، وسألته إذا كان قد فعل ما طلبته منه، فقال إنه بالفعل قام بالاتصال بالشيخ "يوسف" الذي سأله إذا كان "إسكندر" قد حضر أم لا؟، فرد عليه أنه قادم في الطريق، فقال "صلاح الدين" أنه هو الآخر قادم في الطريق.. ورغم أن الساعة في ذلك الوقت تخطت الواحدة والنصف، إلا أن أيًا منهما لم يظهر!

حاولت الاتصال بـ"مينا" بعد ذلك ولكن باءت محاولاتي بالفشل.. كنت أتصل ولا يأتيني الرد! ندمت على عدم ذهابي معه، واعتراني القلق فكررت الاتصال ولم يأتيني رد في كل المرات.. يئست، فطمأنتُ نفسي بأنه لابد أن الاجتماع بدأ وقام ثلاثتهم بجعل هواتفهم على الوضع الصامت.. وارتحت لهذا التفسير، لكن بقيت في قلبي غصة، لم أعرف مصدرها.

قبل الثانية ظهرًا بدقائق، رن هاتفي وفرحت لما وجدته "مينا"، فسارعت بالرد، لكن وجدت على الطرف الآخر صوتًا غريبًا يقول إن رقمي هو آخر رقم وجدوه على هذا الهاتف، ويسألني إذا كنت أعرف صاحبه أم لا؟ ارتبكتُ وأنا أجيبه أن صاحب هذا الهاتف هو أخي، فسمعت أصوات من حوله يرددون:

-لا حول ولا قوة الا بالله.. يا حول الله يا رب.

ثم قال محدثي:

-البقاء لله يا باشا!

لم أستوعب الحدث بعد.. أضاف:

-فيه قنبلة فرقعت في الكافتيريا وأخوك تعيش إنت، ربنا يصبركم.. شد حيل...

وقال شيئًا آخر عن الإخوان والإرهاب، لكني لم أفهمه.. كنت أصرخ وأصرخ وظللت أصرخ حتى كادت أحبالي الصوتية أن تتمزق، ثم أظلمت الدنيا في عيني وغبت عن الوعي.

لم أتحدث مع أحد مطلقًا، وحتى بعد أن استعدت وعيي، ظللت متمسكًا بصمتي. زارني "الإسكندر" فتذكرت ما حدث وصرخت فيه بشكل هيستيري، حتى بدأ جسدي يرتعش، ثم غبت عن الوعي مجددًا.. كان السبب في موته، "صلاح الدين" وجماعته.. فهم بالتأكيد من وضعوا تلك القنبلة التي أودت بحياة "مينا" بالخطأ.. كي يتخلصوا من "الإسكندر"، الذي يتحمل معهم ذنب موته.. لن أسامحهم أبدًا.. لن أسامح من تسبب في مقتله، سواء عمدًا كالإخوان، أو بغير عمد كالإسكندر.

جالت بخاطري ذكرياتي معه، تذكرت كل شيء كأنني أراه، منذ هرولته نحوي عاريًا في صحراء "أبيدوس"، وتذكرت طيبته المفرطة وبراءة حديثه كما الأطفال.. تذكرت حتى لقاءنا قبل أن يذهب ليلقى حتفه. مر كل شيء كأنني أعيد مشاهدة فيلم من نوعية أفلام الكوميديا السوداء، فوجدت عيني تدمع رغم اتساع ابتسامتي. أوحشني، ففتحت هاتفي للمرة الأولى منذ أن علمت بوفاته، لأشاهد صوره وفيديوهاته.. وما أن فتحته حتى رن بالنغمة المخصصة

للرسائل مرتين متتاليتين، ففتحت الرسائل لأقرأ أكثر ما أغضبني على مدار سنين عمري التسعة والعشرين. الأولى: رسالة من رقم مجهول، مكتوب فيها (لم أكن أقصد أن أقتل "مينا"، رحمه الله، لكن حظه العاثر هو من وضعه في هذا الموقف.. سوف أدعو له الله أن يرحمه ويسكنه جناته.. تقبل اعتذاري) وذيلها باسمه (الشيخ يوسف نجم الدين). أيسخر مني؟ نعم "صلاح الدين" يسخر مني حينما يطلب أن أتقبل اعتذاره! أتقبل اعتذاره لأنه قتل شخصًا دون قصد! أيعتقد أنه داس على إصبع قدمي رغمًا عنه، فيطلب مني أن أسامحه؟

شعرت بأن جسدي على وشك الارتعاش مرة أخرى.. فأغلقت الرسالة وفتحت الأخرى المرسلة من "الإسكندر"، عسى أن أجد بها ما يشفي غليلي، فوجدت فحواها: (حاولت كتير إني أمنع أستاذ "نعيم" من المشوار ده، بس هو كان مصمم، وكنت هقوله إني زرعت قنبلة في الكافتيريا بمساعدة المخابرات، بس سيادة المحافظ قالي إنه لو عرف هيبلغ الإرهابي فمش هييجي، وكده الخطة تبوظ.. البلد في حالة حرب يا "مدحت"، ولازم يحصل ضحايا لو عاوزين ننقذها، زي ما بنضطر أحيانًا نضحي بالجنين عشان الأم تعيش.. وعمومًا حقك عليا أنا أسف مكانش هو المقصود).

أصاب فمي اعوجاج حاد في الناحية اليسرى منه، وقال الطبيب المتابع لحالتي، إن الغضب الشديد والصدمة التي تعرضت لها مؤخرًا، أصابت جهاز ما غالبًا اسمه "الجهاز السمبثاوي".. وبإصابته ازداد إفراز الأدرينالين في الجسم مما أدى إلى إصابة نصف وجهي بخدرٍ، فلم أعد أشعر به، وأدى ذلك إلى ما يسمونه شلل عصب الوجه.. وطمأنني قائلا إن هذا المرض سوف يختفي مع تحسن حالتي النفسية. ولكن.. أيمكن أن تتحسن حالتي النفسية رغم ما مررت به؟!

## (٨٠)

سيطرت على عقلي فكرة الانتقام.. ومنذ أن قرأت رسالتيهما، علمت أن حالتي النفسية لن تتحسن إلا حينما آخذ بثأري منهما.. غادرت المشفى، بعد أن رأى الطبيب أن حالتي أصبحت مستقرة.. ولما وصلت بيتي أخرجت هاتفي وحاولت الاتصال برقم "صلاح الدين"، الذي جاءتني منه رسالته، لكن دون وجدت الرقم مغلقًا طوال الوقت.. فأرسلت إليه أطلب منه أن يهاتفني أول ما يرى رسالتي، وأكدت عليه أن الموضوع غاية في الأهمية.. ولدهشتي.. ما أن أرسلت الرسالة، حتى جاء إشعار باستلامه إياها، كيف ذلك والرقم مغلق؟ لا أعرف! بعد دقائق قليلة رن هاتفي برقم غير معروف، رددت وكان هو المتصل.. قلت له، كذبًا، أنني سامحته، ثم دخلت طلبت منه أن يعلمني كيفية صنع قنبلة يدوية كالتي صنعها لقتل "إسكندر" فقتلت "مينا" بالخطأ.. سألني متعجبًا عن السبب، فقلت إنني قررت إتمام عمله الذي فشل فيه، سأقتل "إسكندر" بنفسي.. تغيرت نبرة صوته، فحلّ الفرح مكان الحزن المصطنع:

-الموضوع ده مش أي حد يعمله، أنا نفسي لغاية دلوقتي ما بعرفش أصنع قنبلة.. إنت محتاج شخص عنده خبرة، ده غير المكونات اللي مش هتعرف تلاقيها كمان!

-يعني إيه؟ هنسيب دم "مينا" يروح هدر!

فكّر قليلًا ثم قال:

-حددلي مواعيد الخاين وأنا هتصرف.

-لا ما حدش هياخد بتار "مينا" غيري، لو عاوز تساعدني بجد اتصرف وابعتلي قنبلة جاهزة على البيت عندي، زي ما عملت مع شنطة الفلوس قبل كده.

بعد بضعة أيام هاتفني وقال إن القنبلة موجودة داخل حقيبة بنفس المكان الذي وجدت به حقيبة النقود.. كيف يدخل مرساله إلى بيتي، ومتى؟ لا أعرف، ولم أكن في ظروف تسمح لي بالتحري عن الأمر. قال إنه أرسل قنبلة أكثر تطورًا من التي أستخدمها في المرة السابقة حينما قتل "مينا" بالخطأ، فهذه أكثر دقة، إذ إن بها إمكانية التفجير عن بعد باستخدام الهاتف المحمول.. وعلمني كيف أقوم بتفجيرها، فأملاني رقم هاتف وطلب مني أن أتصل به حينما يكون الهدف داخل محيط الانفجار، وبعد سماع صوت الرنّة الأولى، ستنفجر.. ثم أكد محذرًا أنه لابد أن أكون بعيداً بما يكفي عن القنبلة وقت انفجارها، كي لا يحدث ما لا تحمد عقباه.. وقبل أن يُنهي المكالمة، طلبتُ منه أن يلاقيني بالمكان الذي استشهد به "مينا" لكي أقرأ له الفاتحة في نفس المكان الذي حوى أشلاءه بين أنقاضه.. فاقتنع بحجتي الواهية، ووافق أن يأتي بالوقت الذي أحدده.

وحين أصبحت القنبلة بحوزتي، هاتفت "الإسكندر" ففرح جدًا باتصالي، إذ إنه منذ أن انفجرت في وجهه حينما زارني بالمشفى، يحاول كل يوم أن يأتي إليّ ولكنه يخشى من رد فعلي. فقلت إنني أصبت بانهيار نفسي جراء ما حدث، ولكنني هدأت الآن، وتقبلت اعتذاره لأنني أوافقه دوافعه، وأعلم حسن نيته، ولكن لي عنده رجاء أخير:

-أنا تحت أمرك.

-الأمر لله.. زي ما إنت شايف أنا جالي شلل نصفي ومش عارف حتى أتكلم!

همهم تعبيرًا عن الأسى، بينما أكملتُ:

-الدكاترة قالوا لازم حالتي النفسية تتحسن عشان أقدر أرجع زي ما كنت تاني.

ثم أضفت معلقًا الجبن للفأر بسقف المصيدة، ومنتظرًا دخوله:

-بس عشان ده يحصل لازم أحقق حاجة واحدة نفسي فيها.

-حاجة إيه؟

دخل الفأر المصيدة:

-عاوزك تاخدني للمكان اللي "مينا" مات فيه، بيتهيألي لو قريته الفاتحة وشوفت مكان موته هرتاح.

التقط الفأر قطعة الجبن المُعلقة في سقف المصيدة، بفمه.. ووافق، فأغلق بابها عليه.. أصبح حبيسًا الآن ولم يتبق سوى تحديد موعد قتله.. حددت لذلك يوم الأربعاء الثامن والعشرين من يونيو في نفس العام ٢٠١٧ وفي نفس التوقيت الواحدة ظهرا. اتصلت بـ"صلاح الدين"، وأخبرته بالموعد ولكنني قلت له إن توقيت اللقاء الواحدة والنصف، وليس الواحدة كما اتفقت مع "الإسكندر"، فقد كنت بحاجة لبعض الوقت كي أبتعد عن المكان قبل أن يتواجها. وقبل الموعد المحدد بساعة تحركنا، أنا و"الإسكندر" بسيارته التي اشتراها مؤخرًا، فوصلنا بعد الواحدة بدقائق قليلة.

كان المكان على حاله منذ حدث الانفجار، ركام من الحطام فوق أشلاء جثث لم تستطع الحكومة انتشالها.. بالكاد تمالكت نفسي، وكنت أفكر بالانتقام القريب، حتى أهدأ.. أو حتى لا تنتابني نوبة الصرع مرة أخرى.

طلبت من "الإسكندر" أن ينتظرني بالسيارة، ورجوّته ألا يقطع خلوتي مهما تأخرت في عودتي إليه، وأن يحترم حزني على "نعيم" الذي راح ضحية لخطأه. فنظر إلى الأرض تعبيرًا عن أسفه وخجله في آن واحد، بينما ذهبتُ تجاه الأنقاض وتوغلت داخل الحطام، ثم توقفت وقرأت الفاتحة بالفعل، وأنا أبكي عليه، وأجاهد روحي حتى لا أنهار. وبعد أن تمالكت نفسي، توجهت إلى خلف ما كان يومًا استراحة.. فوجدت دورات مياه منفصلة عن المكان، ومن خلفها تمتد صحراء شاسعة.. توغلت سيرًا بداخلها وأنا أهاتف "صلاح الدين"، الذي علمت أنه قريب من المكان جدًا.. فأخبرته بوجود سيارة حمراء بداخلها هدية أرجو أن تنال إعجابه. ثم أغلقت الخط وواصلت سيري حتى وصلت إلى تلة مرتفعة عن الأرض.. وقفت على قمتها، فتمكنت من رؤية السيارة بشكل جيد.

دقائق وظهرت سيارة أخرى ماركة "جيب" نزل منها "صلاح الدين"، وأخذ في الاقتراب من السيارة الحمراء، والتي ينتظرني بداخلها "الإسكندر".. وما أن شاهدا بعضهما، حتى اتصلت برقم القنبلة، فانفجرت الحقيبة التي تركتها على المقعد الخلفي لسيارة "الإسكندر".

## (٨١)

هل ستصدقني إن قلت لك إنني شعرت بارتياح كبير جدًا، وأنا أشاهد ذلك الانفجار عن بعد؟ وأنا أرى أشلاءهما تتطاير في الهواء، بنفس المكان الذي قتلا به "مينا"؟ هل ستصدق أنني ارتحت لدرجة أن المعجزة حدثت واختفى الخدر من نصف وجهي، وعاد فمي إلى طبيعته، بعد مرور أقل من أسبوع على حدوث الانفجار؟

كان من المفترض أن ألقى حتفي أيضًا.. كانت الخطة التي وضعتها تقتضي أن أقوم بتفجير نفسي معهما، لكنني عدلت عن ذلك قبل أن أصل إلى مكان الانفجار مباشرة.. ليس خوفًا من الموت، فأنا لست بجبان، وما حكيته لك يؤكد ذلك.. ولكني تذكرت أن هناك شيئًا مهمًا على فعله قبل أن أموت. تذكرت ذلك الأمر وأنا أعترف أمام نفسي بأنني كنت مخطئًا في البداية حينما بعثتهما.. وأنا أسأل نفسي: لماذا بعثت "صلاح الدين الأيوبي" تحديدًا؟ فلا أجد جوابًا غير: لأنني كنت بحاجة إلى قائد يقود الأمة نحو الخلاص.. كنت بحاجة إلى بطل يستطيع تحرير أمتنا ورفع رايتها بين رايات باقي الأمم.. كنت بحاجة لـ "مُخلِّص" يخلصنا مما نحن فيه.. كنت بحاجة لـ "مهدي منتظر"، ولم أستطع انتظار "مهدي آخر الزمان"، كنت أحتاج المهدي في الوقت الحالي، فصنعتُ مهديّ الخاص!

والآن، سأقول لك إنني لم أفجر نفسي معهما خصيصًا، لأعترف بأنني كنت مخطئًا.. نعم كنت كذلك.. فقد اكتشفت مؤخرًا أن زمننا هذا ليس زمن

الأبطال.. ليس زمن البطل الواحد الذي يستطيع أن يقود أمة بأكملها، كما تصور لنا الأفلام الأجنبية.. ولا زمن القائد المغوار كـ "سبارتاكوس".. زمننا هذا ليس زمن المهدي! وأكدت لي التجربة أننا لو بعثنا كل أبطال التاريخ - القديم والحديث - وجعلناهم يتحدوا سويًا، لفشلوا في مساعدتنا.. هذا لأننا، وباختصار، في زمن لا يصلح به أبطال، وأخشى إن قلت: "ولا حتى أنبياء" أن يعتبرني الناس كافرًا أو ملحدًا.. حسنًا.. أنا لست كذلك، كل ما في الأمر أن عقلي يتساءل أحيانًا: لماذا لم يبعث الله فينا نبيًا بعد محمد صلى الله عليه وسلم؟ في الحقيقة ولكي أصدقك القول، لم أجد إجابة أفضل من أن الله يعلم أن هذا ليس زمن الأنبياء.. هذا زمن كل إنسان فيه لابد أن يكون بطل نفسه، ويصبح ضميره قائده. وهنا تحضرني الآية الكريمة التي تقول: "إن اللَّه لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ". وهأنذا أحاول أن أغيّر ما بنفسي، وأدعو من يقرأ قصّتي تلك أن يغيّر من نفسه أيضًا. وهذا سبب آخر لعدم قتلي لنفسي.. فقد عدتُ لأضع أمامك رسالتي، والتي تستطيع أن تعتبرها أمنيتي الأخيرة قبل الموت.. أنا لن أقتل نفسي، لكن حياتي الآن في خطر.. خطر يتربص بي، من ناحية الصهاينة، بعد أن رفضت مساعدتهم، وسأفضّل الموت على ذلك. وخطر آخر آتٍ من الإخوان أو الجماعات الارهابية، بعدما علموا أنني قتلت الشيخ "يوسف" أو لنقل "صلاح الدين". وأخيرًا الخطر الأكبر، والقادم من سيادة المحافظ بالتعاون مع رجال المخابرات الحربية، الذين علمت أن "الإسكندر" أخبرهم بذهابه معي إلى حيث قُتل "مينا"، ولما عُدتُ ولم يَعُد، اعتقدوا أنني قتلته بالتعاون مع الشيخ "يوسف".

والآن.. وبعد أن وضعت بين يديك القصة كاملة، تستطيع أن تسأل عن أي شيء

إن شئت.. وأعدك أن أرد على جميع استفساراتك.. ولكن عليك أن تعاهدني أولاً أن تنشر قصتي تلك، حتى يقرأها الناس فلا يضيع جهدي أو أموت هباءً.

## (ما بعد النهاية)

وصلتني تلك الرسالة، بعد مرور شهر على إفاقتي من غيبوبتي الطويلة التي بدأت يوم الثلاثين من شهر أغسطس من العام السادس بعد الألفين.. واستمرت حتى العاشر من ديسمبر عام ألفين وسبعة عشر.. ولذا.. فحينما قال "مدحت" هذا أنه انتهى وعلى استعداد للرد على استفساراتي، سألته سؤالًا واحدًا كان يسيطر على فكري منذ بداية قصته:

هل كنتُ غائبًا عن الوعي حقًا، كما قال الطبيب؟ أم أنه بعثني من الموت أنا الآخر؟

وكان رده على سؤالي هذا أن أرسل لي وجه مبتسم ولم يعقب! ثم أغلق بعد ذلك حسابه على موقع "فيس بوك" ولم يفتحه إلى الآن! ساورتني الشكوك وأنا أعود بذاكرتي للوراء.. فأتذكر دهشة أبنائي حينما رأوني حيًا، بعد إحدى عشرة سنة من دفنهم لي! وأتذكر الطبيب المعالج لحالتي، حينما قال لهم إن حارس مقابر "حي العجوزة" سمع صوتًا داخل قبري بعد أن تم دفني، وانصرف المعزون. ففتح القبر ووجد أنني ما زلت حيًا، فقام بنقلي إلى عيادة الطبيب، بحكم أنها قريبة من المقابر. ويضيف الطبيب: إنني كنت شبه ميت، أو كما يقول الطب كنت ميتًا إكلينيكيًا، ولهذا لم يُخبر أهلي حتى لا يتجدد حزنهم مرة أخرى!

ظللت على هذه الحال طوال الإحدى عشرة سنة الفائتة، حتى حدثت المعجزة وبدأت أجهزتي تستجيب للعلاج، إلى أن شفيت. هكذا قال الطبيب، وأعرف أن

هذا كلام لا يدخل عقل طفل، ولكن لماذا يكذب؟ قد يكون من يدعي أن اسمه "مدحت" قد قام بإعطائه مبلغًا وفيرًا من المال نظير ذلك.. لكن.. لماذا يتحمل عناء بعثي، وكان بمقدوره أن يرسل قصته إلى أي كاتب آخر ممن هم على قيد الحياة؟ ويوفر بذلك تلك النقود.. قد يكون فعل ذلك ليعطي قصته مصداقية أكبر عندي وعند القراء، فيستعرض عضلاته ضد من يشكك في تلك الرواية ويرد عليه: "هأنذا أذيّل قصتي باسم أديب كبير كان ميتًا في نظركم".

أو قد يكون كلام الطبيب صحيحًا، وإنني بالفعل كنت ميتًا إكلينيكيًا.. لا أعرف أيهما أصح.. ولا يهمني أن أعرف في الوقت الراهن! كل ما أريده هو أن أطلب ممن يقرأ هذا العمل، أن يتعامل معه على أنه حكاية خيالية.. لكن لا ينكر أن بها طرحًا مختلفًا لمشكلة الوطن العربي أجمع.

ن. محفوظ

القاهرة

١٦ فبراير ٢٠١٨

تمت

## شكر وتقدير

لمحمد مجدي ومحمد عصمت ومحمد جلال ومحمد تركي وأحمد ابو رية
والمصححة اللغوية الصديقة هناء عودة والرسامة وفاء زغلول، والقارئة سحر
علي

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com

# الولي

أكاد أرى علامات الذهول تعلو وجهك. كمـا أرى أيضا إتساع مقلتي عينيك من الدهشـــة. أراهما جيدا. فقد كنت مثلك وأكثر عندمـا قرأت تلك الكلمات. وستتعجب أكثر عندمـا تكمـــل قراءتهـــا.

والآن.. دعني أجيبك عن السؤال الـــذي أعلـم أنه يدور بخلدك: "كيف وصلت الـــى هـــذه المعلومــــــــات؟.

في الواقــــع أنا لـــم أبحث يوما عنهـــا..

بل هـــي التي وجدتنـــي،

مع تلك التعويذة التي تحيي الموتى!

معذرة!!..

ألم أقل لك إن تلك التعويذة معـ..؟

إبداع
Ibdaa